الإسلام والغرب

أنور الجندي

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الإسلام والغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم: والمسلمون يستشرفون مرحلة جديدة من حياتهم على طريق القوة والنهضة فإن الأمور التي تحتاج إلى اهتمام عميق هو معرفة موقعهم من القوى العالمية التي اتصلت بهم منذ أول يوم ومازالت توالى اتصالها على نحو أو آخر، وأن يجرى استعراض هذا التاريخ في إنصاف ودون تعنت بالدليل والبرهان، حتى لا تحول الدعوات المختلفة ولا التيارات الوافدة أن تظلل نظرتهم بأي لون أو اتجاه وليعلموا أنهم «أمة» لها طابعها وذاتيتها وكيانها الخاص أقامها الله تبارك وتعالى في هذه المنطقة الحساسة من العالم وأعطاها مقادير الثروة والقوة لتحمل رسالته إلى العالمين وليظل أهلها قادرين على أن يكونوا جند الله الغالب: المجاهدون المرابطون اليقظون الواعون الذين يأخذون حذرهم دائما، فإذا غلبهم متسلط أو غاز استداروا إلى منهجهم الأصيل فعرفوا أنه هو المصدر الوحيد القادر على إعطائهم النصر وأن أي منهج آخر لا يستطيع ذلك إذن فلابد من هذه الدراسة في هذه الفترة الدقيقة التي يمتحن فيها المسلمون بالمال والطاقة والتفوق البشري، ليثبتوا إزاء قيمهم وعقيدتهم وأن لا تحول المقدرات المادية دون الحفاظ على وجودهم الذاتي وكيانهم الخاص وطابعهم الاسلامي، وأن يكونوا إلى ذلك قادرين على نقل أحدث مستحدثات العلم والتقدم والحضارة المادية لتكون «مواداً خاماً» يصنعونها داخل إطار فكرهم وقيمهم وبذلك يصنعون الحضارة القادمة:

(حضارة القرن الخامس عشر الهجري)

الذي أوشك أن يهل هلاله والذي يتطلع إليه المسلمون كعلامة على عصر جديد تعود الكرة فيه مرة أخرى إلى أيدي العرب والمسلمين.

إن أخطر ما واجه الحضارة الغربية الحديثة وأسلمها في وقت قريب إلى الأزمة الخانقة والصراع بين القوى مع ما امتلكته من أسباب التقدم المادي هو

أنها «كسرت» الإطار الديني والأخلاقي: الذي هو الحاجز الحامي لكل نهضة من التعثر والتصدع، ومضت تواجه الحياة نغير ستار يحمي ظهرها، أو نور يضيء طريقها، وبذلك صرعتها المادية الغالبة وانحرفت بها الطريق إلى تأكيد أهواء النفس وتغلب الترف والملذات والشهوات فانتهت بها إلى تلك الأزمة الحادة التي يتحدثون عنها ويبحثون لها عن علاج، وهي أزمة الإنسان الحديث وصراعه وتمزقه وغربته وضياعه، كل هذا الذي قاساه ويقاسيه من أهوال هو نتيجة غيبة المعنويات وتجاهل أشواق الروح وتصدع النفس وتمزق الكيان الإنساني وفقدان الهوية والهدف والقصور عن فهم الرسالة والأمانة والغاية والمصير للإنسان المستخلف في هذه الأرض.

فليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق إلى امتلاك أدوات الحضارة الحديثة وتراثها التكنولوجي والعلمي والميكانيكي أن تستوعبهم هذه الحضارة أو تحتويهم، في إطار هذا الفهم المدمر القاصر، وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد في الفكر ومن اللغة العربية فينقلوا إليها كل معطيات العلم، ومن الإيمان بوحدة البشرية والإخاء الإنساني والعدل والرحمة باعتبارها هي معطيات الاسلام للانسانية وليجعلوا من هذا كله إطاراً يتحركون فيه فيخضعون العلم للاخلاق والتقوى، ويجعلون مقدرات البشرية للناس جميعا وليست لفئة مستعلية أو مسيطرة على أقدار العباد، وبذلك يحققوا إرادة الله في بناء المجتمع الانساني الحق الذي تتطلع إليه الدنيا جميعا بعد أن عاشت في الظلم والاستعباد عصرا طويلا شقيت به وليطلع المسلمون الدنيا جميعا على أنهم يمتلكون منهاجا قادرا على إسعاد البشرية حقا، وردها إلى طريق الحق والعدل وتحريرها من الجوع والخوف وتأمينها من القلق والتمرد.

(٢)

ولا ريب أن أخطر التصريحات التي صدرت في العصر الحديث: ذلك التصريح الذي أعلنه الدكتور بيرون في المؤتمر الدولي للعلوم التاريخية الخامس الذي عقد في مدينة (أوسلو) عاصمة النرويج في ١٤ آب ١٩٢٩ حين قال: إن ظهور الاسلام كان خاتمة العصور القديمة وبداية إيقاظ الانسانية في أول

عصورها المتوسطة حيث بدأت أوربا الغربية مدنية جديدة وحياة جديدة يجب معها اعتبار هذا الحادث العظيم هو بداية العصر الوسيط.

ومع ذلك فما زلنا نقصر عن فهم هذه الحقيقة، والتركيز على هذه العلامة المميزة على مفترق طرق التاريخ ونجري وراء متعصبي الغرب الذين يتجاهلون ظهور الاسلام كأعظم حادث تاريخي في العالم كله. لقد تقدم الاسلام بعد ذلك شرقا وغربا حتى فتح الهند والصين وقسما كبيراً من فرنسا في سرعة مذهلة أدهشت علماء الغرب حتى أطلقوا على هذه الحادثة التاريخية «المعجزة العربية» ثم كان «العلم» هو أعظم ما قدمته الحضارة الاسلامية إلى العالم الحديث. وقد سجل بريفولت في كتابه (بناء الانسانية هذه الركيزة الثابتة في الوجود الاسلامي العالمي حين قال:

لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة الإسلامية وأن ما يدين به علمنا لعلم المسلمين ليس ما قدموه لنا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة بل يدين هذا العلم إلى الثقافة الإسلامية بأكثر من هذا: إنه يدين لها بوجود نفسه).

فضلا عن ذلك فإن الغربيين لم يتنبهوا لميراثهم القديم من الحضارتين اليونانية والرومانية إلا بعد ما كشف عنه المسلمون وجلوه ونقدوه.

(٣)

ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام فقد شكل لونه المميز على خريطة العالم، عالم مستقل له طابعه المفرد ونظريته الكاملة المتجددة بالتوحيد والإيمان بالله والإلتزام الأخلاقي في تفسير الكون والحياة، للمسلمين قبلتهم الواحدة التي لم يحيدوا عنها تهوى إليها قلوبهم وعقولهم بالإيمان والفكر، بالقلب والعقل جميعا ومنذ ذلك اليوم لم يكن لهم قبلة أخرى، وما تزال الكعبة البيت الحرام وستظل مركز الدائرة في أرض الإسلام.

ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام حاولت القوى المختلفة ضربه والإدالة منه ثم لما عجزت عن ذلك، حاولت احتوائه وإذابته وصهره في بوتقة الأممية،ولكن مازال الإسلام قادراً بتركيبه الرباني وتشكله القائم على الفطرة والحق والعدل أن يقاوم كل محاولات ضربه: سواء عن طريق الحروب الصليبية أم الغزو

الاستعماري أم الاحتلال الصهيوني أم محاولات الماركسية والمادية الوجودية والفرويدية وغيرها.

والواقع أن هناك حقيقة كبرى على شبابنا وأجيالنا الجديدة والمتجددة أن يكون موضع نظرها وتقديرها دائما بحيث لا تغيب عنها، تلك هي أننا (نحن المسلمين) نعيش في ظل تحد قائم كبير، في منطقة ذاخرة بالطاقة والثروة والتفوق البشري، كانت ولا تزال وستظل- مصدر مطامع الغرب وتطلعاته إلى الغزو والسيطرة رغبة في استنزاف الثروات وامتصاص الموارد، وأن هذه المطامع جاءت في ثوب الحروب الصليبية لاستعادة قبر السيد المسيح مرة ثم عادت في ثوب تمدين البشرية باسم الاستعمار الغربي ثم عادت ثالثة باسم أرض الميعاد، عاشت هذه الأمة موضع طمع الطامعين والغزاة قرونا طويلة، ينتهزون فرصة ضعفها لينقضوا عليها ولقد هزمت موجات الغزو واحدة بعد أخرى، وما تزال القدس هي خط الدفاع الأول عن القبلة المقدسة. ولقد قام العرب وقاوم المسلمون هذا الغزو في حطين وفي عين جالوت وفي الزلاقة وفي الأرك واستجاشت أرض الاسلام بالقوى الإسلامية المتحددة الظافرة التي حملت اللواء واستشهدت في سبيل تثبيت الحق وتحرير الأرض وحماية الدين.

واليوم يواجه عالم الاسلام ثلاث قوى: الاستعمار والصهيونية والشيوعية، والمسلمون في موقف الدفاع، يثبتون دائما ويستمدون قوتهم من عقيدتهم التي كانت مصدر النصر لهم في كل أزمة وموقع، وسوف لا تستطيع القوى الغازية أن تنتزعهم من حصنهم هذا الحصين: وهم لا يعادون الغرب ولا يطمعون في السيطرة والاستعلاء ولكنهم طلاب سماحة ورحمة وخير.

يقول الفريد كانتول سميث: إن الغرب كان ولا يزال يخاف القوة المعنوية الكامنة في عالم الاسلام المتجانس الذي تجمعه وحدة التوحيد الخالص، يخاف هذه القوة ويخشاها ويعمل منذ سنوات بعيدة على سحقها والقضاء عليها وتمزيقها وبعث الخلاف والفرقة والصراع والخصومة والتناحر بين أجزائها، ولعل حماقة الغرب في مقاومة هذه القوة هو الذي دفعها على الالتقاء والتواجد والتجمع كتلة واحدة. ولم يستطع الغربيون خلال هذه المدة الطويلة أن

يكسبوا ود المسلمين بل حصلوا على شعور جماعي بالكراهية ،نقول: وزاد هذه الكراهية قوة أن الغرب استعمل عمليات التبشير والتغريب والغزو وسيلة للإذلال إلى جوار السيطرة الاقتصادية والمادية وكان شعور القسوة والعنف والحقد والتعصب إزاء كل ما هو عربي أو إسلامي ، وتجمع الغرب كله لإخراج المسلمين من أوربا ، تضافرت القوى من ناحية الاندلس وتضافرت من ناحية البلقان ، وجاء رجالهم بعد ثمانمائة عام ليقولوا : ليوم انتهت الحروب الصليبية .

(٤)

لم يتوقف الاسلام من الانتشار منذ بزوغ فجره، وبلغ عدد الذين اعتنقوه اليوم ألف مليون على أقل التقديرات منها ٩٠٠ مليون مسلم دخلوه بالاقتناع والايمان وبقوة الاسلام الذاتية وبفضل مبادئه التي تحمل التوحيد والحرية والكرامة ، وقد وجد الاسلام من الملونين والمستعبدين قبولا حررهم من كل عوامل الظلم والعبودية وما زال الاسلام يقتحم آفاق العالم ويصل إلى كل ركن وفي مؤتمر لندن الاسلامي (مايو ١٩٧٦) أعلن أن عدد المسلمين في أوربا يبلغ حالياً ٢٥ مليوناً و٢٠٧ ألف نسمة تقريباً وان عدد المسلمين بالدول الاوربية غير الشيوعية يبلغ نحو ثلاثة ملايين و٩٣٠ ألف نسمة أي بنسبة ١.٧٥ في المائة من عدد السكان أما عدد المسلمين بالدول الأوربية الشيوعية فيقدر بنحو ١٩ مليونا و٢٧٧ ألف نسمة أي بنسبة ١٨٪ من مجموع السكان ولا يدخل في هذا العدد مسلمو الجمهوريات الآسيوية التابعة للإتحاد السوفيتي .

وهكذا نجد أن الاسلام الذي لفظته أوربا من الأندلس ومن البلقان يعود سلما ويصل إلى كل مكان ، ليس في أوربا وحدها ولكن في الغرب كله . وفي أمريكا لا يطلع الصبح يوما إلا على مسلم جديد وقد سقطت تلك القاعدة البالية التي كانت تقول في الغرب: إن على المسلمين أن ينتهوا من أوربا بالهجرة أو بالتنصير من ناحية الأندلس أو ناحية البلقان.

ويقول الأستاذ إبراهيم بولكي: منذ عرفت أوربا الاسلام ناصبته العداء وعرفت أن في وجوده خطر على ثقافتها أما الآن فهي مستعدة لأن تفهم الإسلام وتتقبل وجوده بعد أن عرفت أنها تعتمد في وجودها الاقتصادي على الدول

الاسلامية، ولقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على دعاية الغرب وزعمه أن الاسلام كان شيئاً في الماضي وانتهى، وينتظرون بلهف ذلك اليوم الذي سينتصر فيه الاسلام، لقد كان الاسلام صاحب الجولة الأولى في العالم مرتين وتشير كثير من الدلائل إلى قرب جولة ثالثة بإذن الله، إن من يعيش في الغرب يستطيع أن يعيش انحطاط المجتمع الغربي وسمو المجتمع الاسلامي والمسلمون في غرب أوربا يقيمون الاسلام كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعي لا يقاربه نظام ويقيمون فاصلا بين الحياة في ظل الاسلام وبين الحياة في ظل فوضى الغرب وتفسخه وتشير الأبحاث الاقتصادية الغربية إلى أن العرب في طريقهم إلى حدث جديد في حياتهم هو الثروة والطاقة التي سوف تمكنهم من التنمية ومن مواجهة الأخطار وإمكانيات القوة والثراء، فإذا أضفنا إلى هذا أن الفكر الغربي قد انبثق عن تيار جديد يريد أن يتفهم الإسلام ويرى أنه السبيل الوحيد لصلاح البشرية وأن الغرب لن يجد المجتمع السليم إلا إذا اعتنق «أسلوب العيش الإسلامي» وقد أورد كثيرون هذا المعنى من بينهم «برنارد شو» وغيره وهناك من أشار إلى أن الاسلام وحده هو القادر على حل مشاكل البشرية المعاصرة ومعضلاتها الحاضرة، ومن يرى أن الغرب حامل بالاسلام وسوف يلده قريباً.

ويكتب «مونتجمري وات» في جريدة التيمس تحت عنوان:

«الاسلام قوة في انتظار كلمة»

أشار فيها إلى الاسلام الذي ينطلق الآن وينتظر زعامة إسلامية عملاقة تتسلح بتعاليم الاسلام الخالصة، فإذا قدر لهذه القيادة أن تظهر فسيصبح الاسلام أحد القوى الأساسية الكبرى في العالم ويؤكد ما ذهب إليه مستشرق آخر هو (هاملتون جب) باحتمال ظهور الاسلام وإعادة بناء نفسه كقوة عالمية.

ومن قبل قال لامارتين، في كتابه (تاريخ تركيا):

في الاسلام قوة كامنة أصيلة نابعة من أن هذا الدين هو وحده الذي استطاع أن يفي بمطالب البدن الروح معا دون أن يعرض المسلم لأن يعيش في عذاب الضمير الذي يعيش فيه الغربيون، إن المسلمين بالقرآن وحده شيء

يختلف عن الأديان الأخرى لأنه لا يعبد الأشخاص، ولا ريب أن التوحيد والتنزيه هو موضع القوة في الاسلام المؤمن.

ويقول الأستاذ بريتون في كتابه «الاسلام»: إن الاسلام يعطي كلا من العالمين- الدنيا والآخرة- حقها وفي وسع المسلم العصري أن يعيد النظر في الإسلام كله دون أن ينقطع عن الماضي وله أن يراجع أحكام المعاملات والشريعة لأن باب الاجتهاد مفتوح ولا يزال، والمسلمون يجتهدون اليوم ليثبتوا أن الإنسانية الصادقة والآداب القويمة والعقل السليم تلقى أرفع تعبيراتها في شريعة الإسلام وأحكامه.

(٥)

واجه المسلمون الحروب الصليبية في الشام ومصر وحروب الفرنجة في الأندلس والمغرب وعرفوا في العصر الحديث الاستعمار والصهيونية والشيوعية وهي قوى جبارة تواجه الاسلام والمسلمين وقد صمدوا لكل ذلك والتمسوا من مفاهيم الإسلام وأصالته القوة على المواجهة والمرابطة في سبيل كلمة الله وحماية هذا الكيان الذي تشكل باسم الله على الحق إلى العالمين. وسوف ينتصرون على الأخطار التي تواجههم اليوم ما استمسكوا بكتاب الله نبراساً وضياءاً وتطبيقاً في حياتهم الاجتماعية، وسوف يخرجون من الأزمة كما يخرج الذهب من النار، أشد نصاعة وضياءاً ولعل هذه الدراسة تكشف لهم عن عامل الصمود والقوة القادر على دحر أعدائهم وغزاتهم، واقتعاد مكانهم الحق في هذا الكوكب، هذا العامل الأصيل الوحيد هو أن يكون القرآن منطلق حياتهم وقانون مجتمعهم وإطار وجودهم كله.

والله من وراء القصد

راجع ابحاثنا:
(١) الاسلام وحركة التاريخ.
(٢) العالم الاسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي.
(٣) العروبة والإسلام.
(٤) الاسلام على مشارف القرن الخامس عشر الهجري.

مراجع البحث

مصطفى صبري : النكير على مُنْكري النعمة والخلافة
بول شمتر : الإسلام قوة الغد العالمية
الكونت كاتياني : تاريخ الإسلام الكبير
أبو الحسن الندوي : مذا خسر العالم
أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر واسبانيا
أحمد توفيق المدني : تاريخ الجزائر
محمد عبدالله عنان : مواقف حاسمة
أرنولد توينبي : دراسة في التاريخ
جيبون : سقوط الأمبراطورية الرومانية
ول ديورانت : قصة الحضارة
كويب- جاكوب : تراث العصور الوسطى
حسين مؤنس : بحث عن الحروب الصليبية
جان بول ريو : الإسلام في الغرب
مولود قاسم : وأصالة انية
هنري بيرين : محمد وشارلمان
كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط
شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي
زهدي الفاتح : لورنس العرب على خطى هرتزل

الباب الأول

الاسلام يقتحم أوروبا من جبهتي
(الاندلس والبلقان)

أولا : الموجة الأولى على جبهة بيزنطة.
ثانياً : الجولة الثانية على جبهة الأندلس.
ثالثاً : أوربا قبل اقتحام الإسلام لها.
رابعاً : أوربا إزاء الإسلام.
خامساً : أجنحة المعركة: على جبهة الأندلس.
سادساً : أجنحة المعركة: على جبهة الشام.
سابعاً : أجنحة المعركة: بين الجزائر وأسبانيا.

الفصل الأول

الموجة الاولى على جبهة بيزنطة

كانت رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك بعد صلح الحديبية الذي عقده مع قريش علامة على دخول الدعوة الإسلامية في مرحلتها العالمية تأكيداً لطبيعتها التي كشفت عنها منذ إعلانها: «يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً».

وجهت هذه الرسائل إلى هرقل قيصر الروم وإلى المقوقس حاكم مصر وإلى الحارث الغساني وإلى كسرى الفرس وإلى نجاشي الحبشة حملها إليهم سفراء عن الدول الإسلامية في المدينة نذيراً وإبلاغاً وعلامة على طريق الدعوة الإسلامية.

وفي خلال السنوات الباقية من حياة الرسول وقبل إلتحاقه بالرفيق الأعلى تتابعت الحركة العسكرية على عنق الزجاجة: ذلك الطريق الخطير بين الجزيرة والروم والذي كان يفزع منه العرب من قبل في صيحتهم المشهورة: «هل جاء الروم» أنفذ النبي ثلاث حملات: الأولى عام ٦٢٩م مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل إلى حدود الروم انحازوا إلى قرية مؤته وقد وصفت بأنها حملة ذات طابع استطلاعي كمقدمة لهذا الوجه وقد أرسل لهم هرقل مائة ألف مقاتل في بعض الأقوال، وفي هذه المعركة قتل زين حارثة وجعفر بن ابي طالب واستطاع خالد بن الوليد يعود بالجيش وفي عام ٦٣٠م خرج الرسول بنفسه إلى حدود الروم في غزوة تبوك حيث صالح أهل حرباء، وأذرح ومغنا، وصالح يوحنا ابن رؤبة صاحب أيله في خليج العقبة وكتب له عهداً بأن أهل أيلة لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ودفع يوحنا مقابل ذلك ثلاث مئة دينار جزية يدفعها كل عام وعاد النبي إلى المدينة بعد أن أقام في تبوك أسبوعين وفي عام ٦٣٢م أعد النبي جيشاً جديداً لمهاجمة الروم، بقيادة

أسامة بن زيد الذي سقط أبوه في معركة مؤتة وقد لحق النبي بالرفيق الأعلى وراية أسامة منصوبة أمام المسجد، وتحرك الجيش بعد وفاة النبي فغزا ووصل إلى أيله (العقبة) وجبال الترك وسلم وغنم وعاد في أربعين يوما، ونهض في السنة نفسها خالد بن سعيد إلى بلاد الروم وأوغل في بلاد الشام حتى اقترب من دمشق وعاد إلى المدينة: كل هذا كان إرهاصا بالوجه والهدف والمنطلق.

وفي خطاب الرسول إلى هرقل قيصر: قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك أثم الاريسيين).

وقد فسرت عبارة (الاريسيون) بأنهم اتباع أريوس الذي رفض تأليه الرسول عيسى ودخل معركة حامية مع الدولة الرومانية من أجل هذا المعتقد وقد عاش الاريسيون مضطهدون ولكنهم ظلوا مصرين على عقيدتهم يتوارثونها حتى مجيء بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

والدولة البيزنطية هي الدول الأوربية الآسيوية الأولى التي اصطدمت بالفتوح الإسلامية في حوض البحر المتوسط، كانت تسيطر على أغلب شواطىء البحر المتوسط وجزره وعاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتشمل أملاكها الممتدة على سواحل البحر الشمالية شبه جزيرة البلقان والجزر الملحقة بها وآسيا الصغرى ومن الشرق تتبعها سوريا وفلسطين ومن الجنوب مصر وشمال أفريقيا.

ومنذ ذلك الوقت نشأ ما يسمى بالجبهة البيزنطية، نشأت بعد فتوح الشام وسيطرة المسلمين على الجزيرة العربية التي كانت خاضعة لدولة الروم بينما تقلص النفوذ البيزنطي إلى الشمال وانحسر عن الشام والعراق وكان أهلها قد خضعوا للروم وقاسوا الذل من نظام القيصرية ولذلك فقد رحبوا بالفتح الإسلامي الذي خلصهم من العبودية.

غير أن الروم ما كادوا يرون الدولة الأموية تنشغل ببعض الأمور حتى أخذوا في مهاجمة الساحل السوري، ولكن سرعان ما قطع عليهم معاوية خط الرجعة فغزا صقلية عام ٦٦٩ وبدأت طلائع جيش المسلمين تصل إلى القسطنطينية عام ٦٧٤ لمهاجمة عاصمة الروم من البحر، وتوالى هذا الحصار في الربيع والخريف وسمي بعد ذلك بالشواتي والصوائف، واستمر أربع سنوات

متوالية مما اضطر الروم إلى توقيع صلح مع المسلمين مدته ثلاثون عاما ، غير أنه لم يلبث إلا قليلا حتى زحفت جيوش الروم عام ٦٨٣ عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجلت العرب عن مرعش ٦٨٣ وما زال الروم ينقضون العهد ، وعندما أرسل عبد الملك دنانيره الأولى ٦٩٢ إلى الروم وعليها الآية الكريمة: « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » رفض الامبراطور قبول الدنانير وتحرك في جيش لجب إلى الحدود الاسلامية حيث اصطدم مع جيش المسلمين ٦٩٣ وخسر الروم أرمينية وعاد المسلمون إلى الصوائف كرة اخرى.

ولما اضطربت الأمور بعد وفاة الرشيد اهتبل البيزنطيون الفرصة حيث شجعوا طائفة الخرمية اتباع بابك الخارجين على الخلافة العباسية ، فلما جاء المأمون عمد إلى مواجهة الخطر البيزنطي ، فهاجم الجزء الشرقي من آسيا الصغرى واستولى على بعض الحصون وأثار جوا عاصفاً من المقاومة اضطر الامبراطور البيزنطي إلى طلب الصلح ، وتوفي المأمون (٨٣٣/٢١٨م) أثناء حروبه لغزو الروم ولما آلت الخلافة إلى المعتصم بعد وفاة أخيه المأمون حاول الامبراطور البيزنطي الاتصال ببابك الخرمي لمعاونته في ثورته على الخلافة العباسية، وأرسل بابك يحرض الامبراطور على غزو الدولة الإسلامية فزحف البيزنطيون إلى بلاد أرمينية ثم أغاروا على حصن (زبطره) وخربوا المدينة تخريباً تاماً ، عندئذ عول المعتصم على أن يفعل بعمورية ما فعله الرومان بزبطره. وكانت عمورية تعتبر مفتاح القسطنطينية فخرج المعتصم في ثلاثة جيوش عبر بهم طرطوس واقتحم بهم أبواب قليقلية وكان هو على رأس جيش في ١٣٠ ألف (عام ٨٣٧) فوصل عمورية بعد سبعة أيام ولم تلبث قواته بعد أن حاصرتها أثني عشر يوما أن اقتحمت المدينة وأدالت منها وهي المعركة التي قال فيها أبو تمام قصيدته المشهورة.

« السيف أصدق إنباء من الكتب »

كذلك جهز المعتصم أسطولا لغزو القسطنطينية في أربعمائة سفينة.

ثم جاءت تلك المرحلة الذهبية: حينا أسس سيف الدولة مملكته في حلب

عام ٣٩٧هـ والتي دامت إلى ١٠٠٣م فقد امتشق سيف الدولة حسام الاسلام في وجه الروم إلى أن توفي ٩٦٧ حيث تحول القتال الرئيسي بين الروم والمسلمين من جهة أرمينية إلى خط قتال جديد أمتد من قليقلية إلى ديار بكر، وكانت الحدود بين الدولتين تبدأ من نقطة مجهولة على الفرات فوق سمساط.

وظلت المعارك متصلة، وكلما وجد الروم من أحوال الدولة الإسلامية ضعفاً أو تفككا حاولوا اقتحام الحدود الإسلامية والاندفاع في أرض الشام بل أن بعضهم وصل إلى دمشق وطبرية حتى جاء ذلك النصر الحاسم الذي حققه المسلمون في (ملاذكرد) عام ١٠٧١م حيث استقر المسلمون في أرمينيا نهائياً، وتطلعوا إلى الرها وانطاكية. وكان ارسلان قد استولى على آني الارمينية عام ١٠٦٢ ودخلت جيوشه بلاد الروم من الشرق والجنوب عام ١٦٠٧ فاحتلت قليقلية وقيصرية.

ومنذ (ملاذكرد) دخل المسلمون آسيا الصغرى واستقروا فيها وكان ذلك مقدمة لفتح القسطنطينية من بعد. وكما كانت ملاذكرد مقدمة للحروب الصليبية، فقد كانت أوربا ترى في الدول البيزنطية السياج الحاجز الذي يحول بين الإسلام وبين اقتحام أوربا فلما هزمت الروم في هذه المعركة الفاصلة، كان ذلك إيذانا بالتماس أسلوب آخر في مقاومة الإسلام.

الفصل الثاني

الجولة الثانية على جبهة الاندلس

حاصر المسلمون أوربا من ناحية القسطنطينية وارتدوا عنها، ولم يتوقف بعد ذلك الصراع بين أوربا وبين الدول الاسلامية على حدود الشمال، ثم اقتحم المسلمون أوروبا من المغرب، حيث أخذت طلائع الزحف الإسلامي تعبر مضيق جبل طارق إلى أوروبا إلى شبه جزيرة ايبريا التي سرعان ما استسلمت للقوة الاسلامية التي سيطرت على أغلب أجزاء الأندلس إلا من جيوب قليلة كانت مصدرا للانتقاض من بعد على الدولة الاسلامية.

دخل المسلمون أوربا عام ٩٢ هجرية (٧١٠م) ومضى الفتح يوسع نطاقه حتى توقف ثمة بمعركة بلاط الشهداء ١١٤ هجرية (٧٣٢م) ولكن لم يلبث أن امتد بصورة أو أخرى على شواطىء فرنسا وموانىء إيطاليا دون أن يحقق السيطرة على أوربا.

ولم تكن معركة بلاط الشهداء (توروبواتيه) التي انتصر فيها كارل مارتل في تقدير المؤرخين والباحثين من بعد إلا بمثابة تعويق للخطوة الحاسمة التي خطاها الاسلام لتحضير أوربا ومهما بدا في أول الأمر من انها عمل قومي في مدافعة العرب الزاحفين غير أن النظرة المنصفة قد كشفت عن أن ذلك العمل قد أوقف سعي الحضارة، شهد بذلك: كلود فارير ومارك سمنوف وجميس يريسيه وهنري دى شامبون وهم عن مختلف الأجناس الأوربية.

يقول كلود فارير: لقد أناخت على الانسانية بعد التسعمائة للميلاد كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى ففي ٧٢٣م حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفواجع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى وكان أن غمرت العالم الغربي مدة سبعة قرون أو ثمانية، هذه هي معركة بواتية: برابرة المحاربين

من الافرنج بقيادة شار مارتل، تخبط من جرائها العالم الغربي سبعة قرون أو ثمانية في الهمجية، قبل أن تظهر النهضة؛ هذه الكارثة هي النصر الهائل الذي أحرزته في بواتيه جماعات الهركاس المتوحشين يقودها شارل مارتل على فرق من الغرب، في مثل هذا اليوم المشئوم تقهقرت أوربا ثمانمائة سنة، وكان يمكن أن تصل إليه فرنسا لو أن الاسلام النشيط الحكم المازق الرحب المتسامح- إذ أن الاسلام هو هذا كله- استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لاتجد لها اسماً».

ويقول جيمس برستد: إن العصر الاسلامي في إسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في أوربا، وإن انخذال المسلمين في إسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية.

ويقول مارل سمنوف: لو لم يوقف شارل مارتل العرب عن السير في فتوحهم ١١٠هـ فإن الثقافة العالية التي امتاز بها من كان يدعوهم الصليبيون بالكفار والوثنيين إحتقاراً لهم كانت أثرت قبل الوقت في أوربا الغربية وفي المدنية الافرنجية الرومانية.

ويقول هنري دي شامبون: لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت من وصمة محاكم التفتيش ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية الإنسانية ثمانية قرون،.

ولقد أقام الاسلام في أسبانيا (الأندلس) دولة باذخة ودخل الاسبانيون في دين الله أفواجا وامتد ملك الاسلام من عام ٩٢ هجرية إلى سقوط غرناطة عام ٨٩٨ هـ. وفي خلال هذه القرون الثمانية واجه الإسلام والمسلمون حرباً لم تتوقف ثم تجمعت القوى الأوربية كلها لتعمل على تدمير هذا الكيان السامق الذي حمل لواء الحضارة والعلم إلى القارة الأوربية.

أما أن الأندلس الإسلامية هي التي قدمت إلى أوربا الحضارة والعلم فذلك أمر لم يعد مجال الاختلاف الآن. بعد أن أصدرت عشرات الكتب الأوربية المنصفة التي قدرت هذا الفضل الذي ظل منكورا فترة طويلة، فقد حمل

المسلمون من أقصى الأرض إلى أقصاها علومهم وخبرتهم وتجربتهم فكانت جامعات الأندلس تحمل خلاصات العلم في أرقى مراحله ولذلك فإن مؤامرة اقتطاعها وإخراج أهلها المسلمين منها والسيطرة على هذا الميراث الضخم كان بمثابة أضخم مؤامرة على الاسلام والمسلمين.

فقد تجمعت أوربا البابوية بكل قوتها لتسحق هذا الكيان الاسلامي الذي بلغ أرقى درجات المدنية والذي كان مناراً للغرب كله حيث لم تستطع عواصم فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا أو إيطاليا أن تصل إلى مثل ذلك القدر من الرقي الحضاري أو العلمي حينما كانت الأندلس موئل العلماء والباحثين من كل أطراف أوربا.

لقد كان فتح إسبانيا مقدمة لتحضير أوربا كلها والوصول إلى دمشق عن طريق روما فالقسطنطينية. وكانت فكرة موسى بن نصير أن يعبر بعد السيطرة على الأندلس جبال البرانس إلى فرنسا (أرض غاليا) ومنها يسير شرقا إلى فتح روما ثم إلى فتح القسطنطينية. وظلت هذه الفكرة ماثلة في نفوس خلفاء موسى ابن نصير والسمح بن مالك الخولاني الذي غزا ولاية سبتمانية التي تطل على البحر المتوسط جنوب فرنسا، فقد عبر جبال البرانس ونزل في أرض غاليا (فرنسا) كما يحدثنا محمد عبدالله عنان منعطفاً نحو الغرب حيث مجرى نهر الجارون. حتى وصل إلى (طولوشا) فحاصرها واستولى عليها، وجاء من بعده عنبسة بن سُحَيْم الكلبى الذي سار على الساحل حتى وصل إلى نهر الرون ففتح بذلك إقليم بروفانس واستمر في السير على النهر شمالا مستولياً على ليون حتى وصل (أوتان) في أعالي نهر الرون ثم جاء الغافقي الذي أعلن الجهاد في سبيل الله في الأندلس وفي إفريقيا، فجاءه المتطوعون من كل مكان حتى تجمع لديه جيش كبير عبر به جبال البرنية الى أربونه ثم إلى مجرى الجارون وواصل الزحف حتى وصل بوردو عند مصب النهر ثم اندفع شمالا في السهل الواسع الذي يحده نهر اللوار وجنوبا نهر الجارون» هنالك أحست أوربا أن الزحف الإسلامي كاد أن يحقق إنطلاقته الحقة، ومن ثم تجمعت النجدات بقيادة شارل مارتل في معركة تور بواتيه المسماة (بلاط الشهداء) وكان المسلمون قد وصلوا إلى مسافة سبعين كيلوا متراً من باريس.

قال جيبون: لو انتصر العرب في تور وبواتيه لكان القرآن يتلى ويفسر في اكسفورد وكمبردج.

ولم يتوقف المسلمون بعد هزيمة بلاط الشهداء ١١٤هـ الموافق ٧٣٢م ولكنهم حاولوا مرة بعد مرة، وعاد شارل مارتل مرة أخرى فطاردهم إلى حدود سبتمانة وانتزع منهم إقليم بروفانس، أما سبتمايه فقد انتزعها منهم شارلمان وبذلك لم يبق للعرب من أملاك فيما وراء جبال البرانس.

وفي ذلك الوقت استولى المسلمون على صقلية عام ٨٢٧م وجزر البليار ٩٠٢م وقورسيقه وسردينيه وأمنوا شرق البحر المتوسط وسيطروا عليه.

ومن ثم شهد البحر الأبيض نشاطا بحريا إسلاميا في المياه الايطالية وجنوب فرنسا حيث هاجموا السواحل الجنوبية لفرنسا ودخلوا سويسرا، واستولوا على أرليس ثم فتحوا افينون واقتحموا وادي نهر الرون حتى ليون وهاجموا إقليم روما ونابولي وأغاروا على نيس وفي خلال أربعين عاما كانت بصماتهم واضحة في مختلف هذه المناطق الساحلية وقد ظل جنوب أيطاليا بأيدي المسلمين الذين أقاموا في أمارة بارى حتى عام ٨٨٦م.

وتجول الأسطول الاسلامي عن خليج نابولي إلى خليج سالرنو، هذه الجولة على البحر المتوسط من (٦٥٢ إلى ٩١٦)م يصورها ول ديورانت يقول:

أدرك زعماء الإسلام بعد فتح الشام ومصر أن ليس في مقدورهم أن يدافعوا عن سواحل بلادهم من غير أسطول وسرعان ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت العمائر البيزنطية ثم احتلوا قورسة وسردينة واقريطش (كريت ومالطة) وبدأ عام ٨٧٢ النزاع القديم بين بلاد اليونان وقرطاجة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية فأرسل الأغالبة أمراء القيروان الحملة تلو الحملة وتقدموا إلى فتحها فسقطت الروم ومسينا وسرقوسة وتارمينا، وأصبح للمسلمين السيادة على البحر المتوسط (من ٦٥٢ إلى ٩١٦) وأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة في جنوبي شرق ايطالية حيث شرعت أساطيل المسلمين ومعظمها من تونس وصقلية تهاجم الثغور الايطالية في القرن التاسع الميلادي فاستولى المسلمون عام ٨٤١ على (بارى) القاعدة البيزنطية الكبرى في الجنوب الشرقي

من ايطاليا ، وفي العام التالي انقضوا انقضاضا سريعا على إيطاليا وفي عام ٨٤٦ نزل ألف ومئبان من المسلمين في استيا وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار روما وبذل العرب ٧٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على العاصمة المسيحية في الغرب فقاتلهم الأسطول الايطالي المتحد وهزمهم ، ولكن غاراتهم لم تنقطع وظلت ايطاليا الوسطى في أيديهم جيلا من الزمان ، فأغاروا ٨٧٦ وهدموا واضطر البابا أن يؤدي لهم جزية سنوية ٢٥ ألف منقوص : حتى هزم العرب على نهر كرجليانو عام ٩١٦ وانتهى بذلك عصر الفتوح الاسلامية في ايطاليا وهو العهد الذي دام مائة عام كادت فيها أن تصبح ملكا للعرب ولو أن روما سقطت في قبضتهم لزحفوا على البندقية ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان إسلاميتان عظيمتان وبعد فقد كان مسرح الحوادث خلال القرون الثلاثة الأولى من عمر الإسلام حافلا بالأحداث فإننا نجد أن الحكم الإسلامي قد استقر في الأندلس ، بينما كانت جهة البحر المتوسط تواجه هذا الصراع الشديد ، وقد مضى الإسلام يسيطر على أطراف الدول الرومانية وإن لم يتمكن بعد من الوصول إلى القسطنطينية حتى جاء القرن الخامس الهجري الحافل بثلاث من أعظم الأحداث حيث بدأت الثغرة الأندلسية تتسع فتسقط قرطبة في أيدي الفرنجة ، وحيث جاءت ملاذكرد هادمة لآخر حصون الدولة البيزنطية ومقدمة لما وقع بعد عشرين سنة من تحرك جموع بطرس الناسك إلى عالم الإسلام .

الفصل الثالث

اوربا قبل اقتحام الاسلام لها

كانت أوربا في أول أمرها وثنية وكانت اليونان موئل الفلسفة الهيلنية قبل المسيحية بستة قرون. هذه الفلسفة التي برزت في عصور متوالية وتبلورت في رجالها الثلاث: سقراط وأفلاطون وأرسطو، وكان هذا الفكر كله من نتاج المشرق ثم تشكل بصورة جديدة في أرض يونان ولم يكن هذا الفكر بعيداً عن ميراث النبوة وتراث الأديان الحنيفية منذ دين إبراهيم وما عرفت بابل واليهودية وتراث المجوسية: ذلك الركام المضطرب اختلط فيه وحي السماء بالفكر البشري.

وقد ورثت الدولة الرومانية هذا الفكر اليوناني الهليني الذي هو تراث أوربا الذي ما زال ممتداً خلال الامبراطورية الرومانية والذي جددته أوربا في عصر النهضة وعبرت عن انها امتداد له وما تزال تؤمن بذلك حتى اليوم، هذا التراث الذي يقوم على الوثنية وعبادة الفرد قامت عليه الحضارة الرومانية التي عمرت أكثر من ألف عام التي سيطرت على سواحل البحر الأبيض وكانت الشام ومصر بلاد المغرب كلها تحت سلطان الرومان، وقد ضمت الامبراطورية الرومانية جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند عندما بلغت اقصى اتساعها على عهد الامبراطور ترجان ٩٨ - ١١٧ بعد الميلاد فقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسي غرباً حتى الفرات شرقاً فشملت في الغرب بلاد بريطانيا وغاليا وليبريا وايطاليا فضلا عن شمال أفريقيا من المحيط الأطلسي حتى طرابلس وشمل الجزء الشرقي من الامبراطورية: البلقان وآسيا الصغرى وأعالي بلاد النهرين فضلا عن الشام ومصر وبرقة. وقد امتد نفوذها الفكري إلى ما وراء حدودها السياسية واستوعبت شعوباً عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونان.

وقد عاشت الامبراطورية الرومانية حتى عام ٤٧٦ بعد المسيح وقاومت المسيحية طويلا بعد ظهورها حتى اعتنقها دينا رسمياً للدولة عام ٢٢٥ قسطنطين الذي وضع حداً للاضطهاد الذي عانته المسيحية منذ عبرت إلى الدولة الرومانية.

ولقد بدأت أوربا تدخل المسيحية بعد هذا التاريخ واستمرت حركة التنصر خلال القرون الثالث والرابع والخامس والسادس حتى ظهر الاسلام وعبر إلى الاندلس وفي الوقت الذي كانت اسبانيا تدخل في الإسلام كانت هناك أجزاءمن أوربا ما تزال تدخل في المسيحية، فقد بقيت أمم شرق أوربا إلى القرن العاشر حتى تنصرت.

يقول توينبي: إن الأمم الأوربية تنصرت في القرن الثالث والسادس من ميلاد المسيح وبقيت كذلك في غفوتها طوال عشرة قرون ثم تيقظت من نحو أربعة قرون فقط بينما نهض الإسلام بمعتنقيه وأقام حضارته الباهرة منذ القرن الأول للهجرة فلم يكن الإسلام سبب تأخر المسلمين ولم تكن المسيحية سبب تقدم أوربا فقد كانت الأمم الأوربية مثل الإغريق والرومان من أرقى أمم الأرض قبل اعتناق المسيحية.

ولقد عاشت الامبراطورية الرومانية ثلاثة عشر قرناً حتى استولى القوط الغربيون عليها عام ٤١٠ ثم أعقبهم الوندال ثم البيروليون الذين قوضوا أركان الامبراطورية الرومانية عام ٤١٦.

ولقد كان دخول المسيحية إلى أوربا بعد عبورها من المشرق مقدمة مرحلة جد خطيرة من تاريخها، لقد اضطرت أن تنصهر في إطار الدولة الرومانية ولم تستطع أن تنشىء مجتمعاً جديداً، واضطرت أن تقبل من أديان الوثنية وعقائدها ما يمكنها من البقاء حتى صدق عنها قول توينبي: انها كانت تركيباً متآلفاً جسوراً للاهوت اليهودي والفلسفة الإغريقية.

ثم كان «الفكر الغربي» بعد دخول المسيحية، تركيباً من الفلسفة اليونانية والقانون الروماني واللاهوت المسيحي ولكن الأمر الذي هو موضع التقدير أن المسيحية نقلت أوربا من الوثنية ومن العبودية ومن الاستعلاء والظلم والقتل

والقسوة- فترة من الزمن- إلى معرفة الله إلى الرحمة وإلى السماحة غير أن هذا التحول لم يلبث أن تطور إلى طابع من طوابع الزهد والاعتكاف في الصوامع والرهبانية والإنصراف عن الحياة والعزلة عن الحركة على نحو فلسفي قاس يكره المرأة ويحتقرها ويرفض العمل والاتصال بالناس، وقد ظل هذا الطابع يحكم الغرب حتى عبر الإسلام إليها فألقى إلى الفكر الغربي مفاهيم المسؤلية الفردية والعمل والتجريب والتحرر من الوساطة بين الله والإنسان ورفض صكوك الغفران وعبادة الصور.

ولا ريب أن هذا التحول من الوثنية اليونانية إلى اللاهوت المسيحي، كان خطوة واسعة وعميقة نحو التحول الخطير الذي أحدثه الإسلام الذي قبلت أوربا فكره ونتاجه وتحفظت إزاء عقيدته. هذا الأمر الذي كان بعيد الأثر في نشوء الحضارة الغربية الحديثة التي قامت أساساً على التجريب الاسلامي.

ولذلك فإن رأى جيبون لم يكن يمثل النظرة المنصفة أو الصادقة، وإنما يمثل النظرة المتعصبة، حين تقول أن المسيحية كانت المعول الهدام لكافة القيم الإقتصادية والعسكرية والسياسية، للامبراطورية الرومانية، وأن اعتناق قسطنطين للمسيحية قد عجل بانحطاط الإمبراطورية وإن كان قد اعترف بعد بان دين قسطنطين المتنصر قد عمل على تهذيب وحشية الفاتحين.

ولا ريب أن المسيحية كانت عاملا هاما في تهذيب شعوب أوربا، وكانت قاضية على قدسية الامبراطور، وطريقا إلى زلزلة عرش العبودية والنظام العبودي غير أن المسيحية لم تستطع أن تحرر المجتمع الأوربي تحريراً كاملا لأن الصورة التي نقلت بها إلى الغرب لم تكن صادقة أو سليمة، وإنما كانت خاضعة لتفسيرات لم تستوعب حقيقة الدين المنزل، فضلا عن سيطرة مفاهيم الأديان الوثنية الموجودة في البيئة الرومانية بعد تسربها إليها وقبول الدعاة لها رغبة في كسب الجماهير الوثنية بتقديم مفهوم قريب من اعتقاداتهم ولو أن المسيحية المنزلة عبرت إلى أوربا صحيحة لكانت تمهيداً طبيعياً لاعتناق أوربا للإسلام: عقيدة ونظاماً.

يقول جيبون: إن تعاليم المسيحية (التي يرى أنها كانت عاملا على سقوط الامبراطورية الرومانية) كانت مثبطة للهمم الاقتصادية بدعوتها إلى الكفاف أو

الرزق اليومي في أبسط أشكاله، ناهيك عن التطاحن بين الفرق المسيحية من جهة وبين بعضها والسلطات ».

والحق أن هذه المفاهيم من الكفاف والرهبانية لم تكن من أصول المسيحية المنزلة فضلا عن هذا التطاحن الذي لم يكن من أصول الدين: أي دين.

وهناك إجماع على أن الفضل يرجع للمسيحية في تهذيب بربرية أوربا. والحق أن أوربا قد عاشت صراعاً شديداً بين الامبراطورية الرومانية والفكر الهليني من جهة وبين المسيحية من جهة أخرى ويقدم لنا (ول ديورانت) هذه الصورة لهذه المرحلة:

« إن إدخال المسيحية أو على الأقل إساءة استعمالها كان له بعض التأثير في انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها، فقد نجح رجال الاكليروس في التبشير بأنها تدعو إلى الصبر وإيثار الجبن والواقع انها لم تشجع الفضائل التي تبعث على النشاط في المجتمع، ودفعت بقايا الروح الحربية في الأديرة وإلى جانب كبير من الثروة العامة والخاصة التي وقفت لمطالب البر والورع المموهة وكانت رواتب الجند توزع في إسراف على جماهير من الرجال والنساء لاخير فيهم وليس في استطاعتهم سوى أن يبشروا بمزايا الزهد والتقشف وفضائل العفة والطهارة والإيمان والحماسة والفضول. وكذلك فإن نوازع الحقد والضغينة أشعلت نيران الخلاف اللاهوتي وشغلت الكنيسة بل الدولة بالخلافات الدينية التي كان النزاع حولها في بعض الاحيان دموياً ودائماً لا تهدأ حدته ».

لا ريب أن أوربا سقطت خلال هذه الفترة في مرحلة الزهادة والأديرة، التي كانت بعيدة الأثر في جمود المجتمع الغربي وفساده حتى جاء الإسلام فحرر أوربا من هذا التحدي الخطير.

أما الامبراطورية الرومانية فإنها سقطت بعامل التحلل والترف وبواعث الرخاوة التخنث التي كانت السبب المباشر الذي اعجز أهل روما عن صد غارات القبائل الهمجية على حدود دولتهم كما يعبر عن ذلك المؤرخ جيبون حين يقول:

« إن الترف والتخنث الذي تبعه هما سبب سقوط الامبراطورية، وذلك أن

الفساد الذي نشأ في البلاط وشاع في المدن نفث السموم في معسكرات الفيالق مما أوجد عدم القدرة على الثبات في مواجهة الشدائد التي اصابت الفيالق الرومانية التي كان تفشي الترف فيها هو السبب المباشر في تدهور الامبراطورية وسقوطها «هذا بالإضافة إلى فقدان العدالة في توزيع الضرائب والضيق الذي عاناه الشعب من جراء قسوة الأغنياء والمياسير». ولا مراء أن هذه هي علامات سقوط الأمم والحضارات.

ولكن المسيحية- التي تحولت إلى دين عالمي لم يكن ذلك من خضائصه- عجزت عن إعطاء أوربا مفهوما كاملا سواء في العقيدة أو العلم أو المعرفة لأنها كانت في اصلها الأصيل ديناً مكملا لرسالة موسى: وخاصا ببني اسرائيل، وهي بالجانب الأخلاقي فيها- وحده- استطاعت أن تعلم القبائل الهمجية: العدالة والرحمة والصدق والعدالة على حد قول جيبون، ولكنها عجزت أن تحول دون سقوط أوربا في هذه الزهادة والرهبانية والإقامة في الأديرة واعتزال الحياة وقد امتدت هذه الفترة حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ولم تخرج أوربا من هذه التجربة الخطيرة إلى الإسلام الذي آذن بدعوته إلى تحرير إرادة الفرد والدعوة إلى العمل، والتجريب الذي كان الإسلام رائد منهجه إلى البشرية كلها.

ولقد كان سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب عام ٤٨٦ مقدمة لسيطرة المسيحية، التي لم تلبث ان أقامت في روما كنيستها الكاثولكية الكبرى التي حكمت أوربا حتى عصر النهضة وكانت حاملة لواء الحرب العنيفة المقدسة التي شنتها على الإسلام في جناحيها الأول ممتدا إلى الأندلس لاجلاء الإسلام منها والثاني الممتد إلى الشام بالغزو الذي قادته الحروب الصليبية مدى قرنين كاملين. فقد كانت البابوية الرومية هي التي تحمل لواء هذه المعركة الممتدة شرق البحر المتوسط وغربه.

لقد انتقلت القيادة من قصور الأباطرة السياسيـة إلى أروقة اللاترن (الكنيسة) إذ غدا البابا أهم شخصية رومانية باقية في ايطاليا، كما سيطرت الكنيسة على مختلف نواحي الثقافة مما كان له أعمق الأثر في حياة المجتمع الأوربي ومن ثم بدأت مرحلة (العصور الوسطى) المظلمة في غرب أوربا وقد حددها المؤرخون

بالفترة الواقعة بين ذلك العام (٤٨٦م) وبين نهاية القرن التاسع الميلادي ومطالع القرن العاشر.

وقد أخذت المسيحية تشق طريقها في العالم الهليني لتقيم نظاماً اجتماعياً ونفسياً مخالفاً لما كانت عليه الحضارة الهلينية والرومانية: كانت الديانة الهلينية تؤمن بتعدد الآلهة فإذا بالمسيحية تدعو إلى فكرة جديدة قوامها التثليث والخطيئة والصلب التي ستكون بعد من أكبر التحديات في وجه الفكر الأوربي. يقول توينبي:

انه بالرغم من أن المسيحية قد اكسبت الهلينيين سحراً طاغياً كان كفيلا بأن يأسر النفوس الهلينية، فإنه لم يكن في وسع المسيحية ذاتها بعد حملة أن تشق طريقها في العالم لو لم تتخذ لنفسها «ثياباً هلينية» مثلما فعلت الديانات التي قصدت لمنافستها، وهذا اعتراف من المؤرخ الكبير بأن المسيحية اعتمدت تفسيرات من خارج أصولها الأولى.

ومن الحق أن هذه الأفكار الثلاثة التي بثتها المسيحية الغربية وهي التثليث والخطيئة والصلب كانت تحفل بها الأديان البشرية العديدة التي تملأ العالم اذ ذاك وخاصة الديانة الهندوكية والديانة المندية التي كانت تعيش في قلب أوربا.

كانت اليهودية قد تأثرت بالديانات البشرية البابلية وغيرها كما تأثرت المسيحية بالهلينية وسيطرت عليها الفلسفة اليونانية مما تشكل بعد من خليط عجيب بإسم (الافلاطونية المحدثة) التي شارك فيها اليهود والمسيحيون متأثرين بأرسطو وأفلاطون. ولعل الأمر الوحيد الذي استطاعت المسيحية أن تحول أوربا عنه هو فكرة عبادة القيصر، وكان الهلينيون يؤلهونه أما المسيحية فقد اقنعت الهيلنيين أنه ليس في إستطاعة الإنسان أن يؤله نفسه ويفلت من القصاص ولكن المسيحية لم تستطع أن تتحرر تماما من عبادة الإنسان حين أقامت قاعدة الثليث وجعلت للسيد المسيح رسول الله الإنسان جانباً إليها يعبد.

وقد ظل طابع الفكر الهليني مسيطراً على المسيحية التي حاولت التعايش مع

مجتمع الحضارة الرومانية ولذلك فإن أوربا لم تنتقل نقلة واسعة بعد أن تمسحت لأن القانون الروماني ومفاهيم الثقافة والإجتماع الهلينية ظلت مسيطرة، لقد صارعت المسيحية الوثنية ثلاثمائة سنة تقريباً حتى استقرت ولكنها لم تكن الا مفهوماً مغايراً للمسيحية وخليطا مضطرباً، لم يستطع أن يقضي على الوثنية أو العبودية الرومانية قضاءاً نهائياً ومن ثم لم تعد المسيحية إلا عنصراً من عناصر ثلاث، وقد عاشت المسيحية مرحلة مضطربة قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام وعبر إلى أوربا من الشرق ومن الغرب وآثار ثائرات كثيرة ففي نفس الوقت الذي كانت أوربا تمتشق الحسام لتحول بين الإسلام وبين السيطرة على الغرب كان الفكر الإسلامي يؤثر ويغير في اعماق فكرها ومجتمعها فإنه ما كادت الغرب المسيحية تستعيد طليطلة الاسلامية عام ١٠٨٥م حتى أخذت تستوعب الفكر الإسلامي وتنصهر فيه فقد بدأت ترجمة المؤلفات العربية إلى اللغة القشتالية ومنها إلى الإنجليزية والفرنسية واستمرت زهاء قرن كامل، وعنيت بالدرجة الأولى بمؤلفات العرب في الطب والفلك والنجوم والرياضيات والفلسفة، وقد قامت هذه الحركة في طليطلة تحت إشراف الأسقف (ريمون) وجاءت وفود من روما ومنهم جيرار الكريموني الإيطالي الذي لمع اسمه في روما ١١٤٩م ويعد الأب الحقيقي للحركة العربية في أوربا فقد ترجم أكثر من سبعين مؤلفاً عربياً وقد استمرت حركة الترجمة من العربية إلى الاسبانية واللاتينية قائمة في اسبانيا إلى أن سقطت غرناطة في يد المسيحية عام ١٤٩٢ وبسقوطها طرد العرب نهائياً من اسبانيا وأرغم من بقي على التنصر وقد لقى التراث الاسلامي اضطهاداً بالغا من بعد فإنه بعد أن حجزت كتب الطب والعلوم اضرمت النيران في كتب المسلمين ولم يعد الغربيون يذكرون المسلمين بأي فضل أو أثر.

وكان هذا التراث الإسلامي هو الذي هز أوربا من أعماقها ودك معاقل الوثنية الرومانية والرهبانية المسيحية وفتح الطريق تماماً أمام ما يسمى بعصر النهضة.

يقول ول ديورانت: أحدثت هذه التراجم كلها في أوربا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر كما أحدثت تطورات خطيرة في النحو وفقه اللغة ووسعت نطاق المناهج الدراسية واسهمت بنصيب في إنشاء الجامعات. وكان عجز المترجمين أن

يجدوا مفردات لاتينية تؤدي المعاني التي يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذي ادى إلى دخول كثير من الالفاظ العربية في اللغات الأوربية، هذا وقد أدخل المسلمون إلى أوربا أخطر ثلاث ركائز كبرى للحضارة: (١) الجبر (٢) علامة الصفر (٣) النظام العشري في الحساب هذا بالإضافة إلى علوم الطب.

الفصل الرابع

أوربا في الاسلام

وقفت أوربا ممثلة في الكنيسة المسيحية موقفاً صارما عنيداً وركزت تركيزاً شديداً على مقاومة وجود الاسلام وذلك بالمقاومة والعدوان عن طريق الحدود البيزنطية الاسلامية من ناحية والوجود الاسلامي في اسبانيا وطلعت أوربا تحس بالأثر العميق الذي تركه استيلاء الاسلام على المناطق العربية التي سيطرت الدول الرومانية عليها أمداً طويلا ثم ظلت أوربا المسيحية تنظر بحذر إلى نمو الاسلام وتستشعر الخطر في داخل الفكر الغربي نفسه، يقول توينبي:

«عندما كانت حضارة الغرب تنحدر إلى الهاوية في القرن السابع المسيحي ظهرت الحضارة الاسلامية الفتية، اصابت الغرب نوبة هستيرية لظهور هذا الخطر الجديد وأشد ما خشيه الغرب من الحضارة الاسلامية الناشئة انها كانت تستند إلى مثل اعلى فوق المادة لا ينفع في دفعه ما لدى الغرب من اسلحة مادية» ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة التي قادتها البابوية ودعت اليها ملوك أوربا لمؤازرتها في مواجهة الاسلام وصده عن أوربا، أولا بالقضاء على وجوده في اسبانيا وفي نفس الوقت باقتحام حدوده من دولة بيزنطية كرة بعد أخرى، ثم بإعلان الحروب الصليبية.

ولقد كانت البابوية من الناحية الرسمية هي التي تنطق بلسان الدين المسيحي وكانت للكنائس والأديرة أملاك ضخمة واسعة، وكان عدد من الأساقفة ينحدرون من اسر النبلاء فكان يديرون املاك الكنائس على النمط الذي يدير به أمراء الإقطاع اقطاعاتهم. كان لكل أسقف ولكل صاحب كنيسة جامعة فرسانه وأتباعه الذين يقدمون ولاءهم ويتسلمون منه قطائعم وكان أخطر رجال البابوية: جريجوار السابع والبابا اروبان الثاني وللأول دوره الخطير في تحول القتال بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا إلى حرب صليبية شاملة

شاركت فيها أوربا على اختلاف اقطارها وكان لها آثارها البعيدة في حياة اسبانيا الإسلامية، أما الثاني فكان له الدور الأول في إنتقال الحروب الصليبية إلى شواطىء البحر المتوسط من أقصى الشرق إلى اقصى الغرب وهذا الدور وحده يمثل أصدق تمثيل النفوذ السياسي للكنيسة داخل الحياة الأروبية ذاتها.

وقد كان للبابا جريجوار السابع الذي تولى البابوية ١٧٠٣م نفوذه الخطير حتى قيل: إن انتصار البابوية قد تجاوز كل تصور، لقد بدت الكنيسة وكأنها الحاكمة بأمرها في الدنيا.

ومن قبل جريجوار السابع كانت خطة حرب الإسلام في الأندلس قد تم إقرارها ففي عهد البابا اسكندر الثاني ١٠٦٣ إندفعت موجة من فرسان الشمال وخاصة من النورمانديين إلى اسبانيا وانتزعوا (حصن بريشير) من أيدي المسلمين بعد مذبحة هائلة. أما جريجوار فقد تجاوز التعضيد إلى الدعوة الصريحة يوجهها البابا نفسه إلى الأمراء يحضهم على المشاركة في الحرب المقدسة ويعلن مقدما سيادتهم على الأرض التي تنتزعونها من المسلمين وقد كان من ثمرة ذلك سقوط مدينة طليطلة (٦ مايو ١٠٨٥) بعد حصار عامين وهو الحديث الذي كان مقدمة لتصفية الأندلس: الفردوس الإسلامي.

في القرن العاشر المسيحي والإسلام مايزال غضاً لم يكمل العقد الخامس بعد، مدت أوربا كلتا يديها بالعدوان على الاسلام في قرطبة بأرض الاندلس وفي الحروب الصليبية على جبهة المشرق ١٠٩٦.

وقد تناول كثير من الباحثين موقف البابوية من مجتمع الغرب الأوربي حيث يقول مؤلف تراث العصور الوسطى (كويب- جاكوب) أن البابوية بلغت أوج سلطانها في زمن البابا انوسنت الثالث الروماني المعتز برومانيته العريقة، الذي رفع شأن البابوية وسلطانها إلى أعلى عليين، إذ فرض الكنيسة الرومانية فرضا على القسطنطينية وكنيستها الأرثوذكسية وانزل الحرمان الديني بانجلترا وفرنسا وبدأ أعظم الحروب الصليبية الاسبانية نجاحا ضد دولة المسلمين وعمل على إثارة ملوك أوروبا لمساعدة الفونس الثامن ملك قشتالة في حملة صليبية أوربية ضد الموحدين أصحاب اسبانيا الاسلامية، هذه الحلة الصليبية التي

انتهت بهزيمة الموحدين في موقعة لاس نافاس دي تولوز عام ١٢١٢م وبذلك خضعت الملكية في أوربا للبابوية، وحيث أصدر قراراً بحرمان البارونات من رحمة الكنيسة وأخذ يعين الأباطرة ويعزلهم وفقاً لشروط ملائمة للكنيسة وقد وصفت بابوية انوسنت الثالث بأنها ثيوقراطية استبدادية، وذلك لاعتقاده الحرفي أن البابوية خليفة المسيح في الأرض وأن البابا مملك في أمور الدين والدنيا وله السلطة المطلقة في كل شيء ومن حقه أن يكون اختيار الأباطرة وفقاً على مشيئته.

كذلك فان البابوية اعلنت حرباً بمساعدة ملك فرنسا ضد ايطاليا واسبانيا عام ١٢٨٢ هذه الحرب حرمتها عن مواصلة الحرب الصليبية في الأراضي المقدسة واعاقت مشروع تحالفها العسكري مع المغول للاطباق على العالم الإسلامي من أجل تخليص الدولة الصليبية وقد كان لانشغال البابوية في معمعة السياسة الأوربيةالمتصارعة في إيطاليا اثر كبير في إنهيار الدولة الصليبية نهائياً ١٢٩١ وقال اللورد اكتون أن البابوات في القرنين ١٣، ١٥ وضعوا نظاما للاضطهاد المنظم، هذا الاضطهاد وهو أبرز الوقائع البابوية في العصر الوسيط وأنه لايمكن تجاهل الشدة ووجود حجرة التعذيب والقائمة التي يشد إليها من يحرقونه.

لقد اكتسبت أوربا عنفها من ميراثها الروماني القديم الذي جاءت المسيحية لتزيله فكانت في نشرها المسيحية كذلك عنيفة مدمرة وكانت في صراعها بين الفرق قاسية دموية، فقد كان الملوك يسوقون أمام فتوحهم الرهبان لنقل الناس إلى مذاهبهم بالقوة، وتروى في ذلك قصص عديدة منها ما حدث في فرنسا على يد البارون (سيمون دي مونفور) الذي توجه بإذن البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسية ومعهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة لانج روك لاستئصال الديانة المجوسية فأغرقوا الإقليم كله في أنهار الدم والنار حتى أهلكوا من كان فيه من المجوس، أين هذا من سماحة الإسلام الذي لم يجبر أحداً على الدخول فيه، ويفسر هذا الإتجاه الأوربي بعد المسيحية ما ذهب إليه القاضي عبد الجبار حين قال: ما تنصر الروم ولكن النصارى تروَّموا » إذ بدأت في روما نصرانية رومانية لا يعرفها السيد المسيح وهي التي تولد عنها من بعد صكوك الغفران

وكرسي الاعتراف، أما بالنسبة للاسلام فقد كان الموقف عنيفاً. فمنذ أن توحدت أوربا أو جزء كبير منها تحت قيادة شارلمان عام ٨٠٠ ميلادية أعدت أوربا لتكون قلعة صليبية تمنع انتشار الإسلام.

يقول برناردشو: لقد عمد الاكليروس في العصور الوسطى إلى تصوير الاسلام في احلك الألوان، والواقع أنهم يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصماً للمسيح، أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الانسانية وأعتقد أن رجلا مثله لو تولى زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته».

والواقع أن أوربا لم تقبل مزاحمة الاسلام لها وهي التي وضعت قاعدة لم تتخلف قوامها على المسلمين أن ينتهوا من أوربا بالهجرة أو بالتنصير أو بالإبادة.

(٢)

كانت غلطة المسلمين أن تركوا تلك الثغرة الواقعة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة والتي تعرف باسم (إقليم جليقية) دون السيطرة عليها، يقول ول ديوارنت: أن العرب لم تطمع في امتلاك هذا الإقليم لفقره وبرده فانحاز إليه البقية الباقية من نبلاء القوط المغلوبين ورجال الدين ونمت فيه بذرة الدولة الاسبانية التي ماتزال باقية حتى الآن «وقد ظلوا يترقبون الفرص لتوسيع رقعتهم فلما كانت الحروب الأهلية بين عرب الأندلس من ناحية وبينهم وبين البربر؛ انتهز هؤلاء النصارى الفرصة ووصلوا بملكهم إلى ضفاف نهر دويره واحتلوا مدينة ليون وجعلوها عاصمتهم وأصبحت مملكتها تسمى مملكة ليون، وظل أمرها على هذا الحال وهي تتسع رويداً رويداً في المنطقة التي خلت بنزوح البربر إلى الجنوب أو عودتهم إلى أفريقيا على أثر انهزامهم أمام العرب حتى إذا ما وصلوا إلى عصر ملكهم الفونسو الثالث نجد هذه الإمارة تحتل مدينة سموره، وقد أصبحت حصن إمارة ليون المواجهة للمسلمين عند غزوهم لبلاد النصارى وقد هاجمها المسلمون وخربوها مراراً حتى سميت (سمورة الخراب) أما من ناحية الشرق ونعني به الممالك النصرانية التي قامت وظهر أمرها فيما يلي الثغر الاندلسي الأعلى فيما بين نهر أبر ونهر اته وجبال البرانس. فقد نشأت كلها في

الجبال نظراً لاشتداد الخطر العربي من الجنوب ومن الجبال أمتدت في البسائط شمالها وجنوبها أي أن جبهتها الشمالية كانت متاخمة (لأوربا النصرانية) وجبهتها الجنوبية متاخمة (لأسبانيا الإسلامية) وهذا الاتصال بين الامارات النصرانية وثقة العالم النصراني جعلها أقرب إلى تيار الحضارة كما جعلها على صلة بالبابوية والعالم الكاثوليكي وقد ظلت هذه الممالك تتقدم في أرض الأندلس ».

ومنذ سقوط الخلافة الأموية وقيام عصر ملوك الطوائف استجمع نصارى الشمال قوتهم للوثوب حيث وحد الاذفونس (الفونسو السادس) تحت أمرته (استوريا - ليون، قشتاله) وقد ظل يستولي على الحصون والقلاع واحدةً اثر اخرى حتى وثب وثبة حاسمة استولى بها على طليطلة الإسلامية عام ٤٧٧هـ ١٠٨٥م.

وبينما كانت البابوية تغذي هذه المؤامرة في اسبانيا الإسلامية كانت تغذي مؤامرة أخرى على سواحل الشام، حيث بدأ عصر الحروب الصليبية التي توالت على المشرق الإسلامي خلال قرنين كاملين.

سقطت (طليطلة) عام ٤٧٨هـ واقتحم الصليبيون القدس ٤٩٣هـ وبينهما خمسة عشر عاما وكان ذلك بداية عصر من التحدي الخطير قوامه الصراع بين الاسلام وأوربا المسيحية على كل من الجهتين في وقت واحد. حيث بدأت في اسبانيا ما أطلق عليه حركة الاسترداد Reconquista التي امتدت إلى سقوط غرناطة ٨٩٨هـ ١٤٩٢م.

وكانت موازية لها في الشرق الحروب الصليبية التي انتهت ٦٩٠هـ ١٢٩١م بالهزيمة الساحقة للغرب بينما جلا آخر مسلم عن الاندلس إلى المغرب بعد ذلك بقليل.

وكان هذا مقدمة لما بعده، فقد سيطر العثمانيون واستطاعوا أن يحتلوا القسطنطينية قبل سقوط غرناطة بقليل عام ٨٥٧هـ ١٢٥٤م وأن يزحفوا ليحموا البحر الأبيض المتوسط من الغزو المعاكس الذي بدأته البرتغال واسبانيا بعد إجلاء المسلمين عن الأندلس والذي استمر ثلاثمائة عام تقريباً على جبهة (الجزائر. تونس. المغرب) والذي أطلق عليه حرب الثلاثمائة عام والذي لم

يلبث أن تحول إلى الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ كمقدمة للاحتلال الأوربي لمصر وتونس والسودان وغيرها بعد أن كانت هولندا وبريطانيا قد سيطرتا على جزر الملايو والهند قبل ذلك.

وهكذا نجد أن المعركة لم تتوقف، وأن أوربا منذ أن ظهر الاسلام وهي تحتشد لمقاومته في أوربا ثم هي لا تلبث أن تندفع وراء الاسلام إلى ارضه لتطوقه وتشدد الحصار ثم تسيطر عليه مما لا تزال اثاره قائمة إلى الآن.

الفصل الخامس

أجنحة المعركة: من الاندلس إلى الشام
(على جبهة الاندلس)

بدأت المعارك على الجبهتين: جبهة الأندلس وجبهة في الشام في وقت واحد.

أما في جبهة الأندلس فقد سقطت طليطلة الإسلامية في يد القوط ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) بعد ثلاثة قرون إلا قليلا. فكانت نذيراً للوجود الإسلامي كله في الأندلس بالمؤامرة عليه، مما دفع ملوك الطوائف إلى الاستنجاد بمسلمي المغرب حيث عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وهاجم الفرنجة في معركة (الزلاقة) الحاسمة التي كبدت الفرنجة خسارة فادحة وكتبت للأندلس عمراً جديداً أمتد نحو قرنين من الزمان.

ويقول ول ديورانت: كانت غارات المسلمين على اسبانيا عام ٧١١هـ قد دفعت من لم يغلبوا من القوط والسويفى والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحي والكلت من سكان شبه الجزيرة إلى جبال الكنبتريان في الشمال الغربي من إسبانيا وطاردهم المسلمون في هذه الجبال ولكن قوة صغيرة هزمتهم عند (كفاذنجا) ٧١٨هـ وأسست المملكة الاسبانية على أثر هزيمة المسلمين في (تور) إمتدت الحدود من استوريا إلى جليقية ولوزينايتا وبسكايا ثم ضمت ليون. وإلى شرق استوريا، وفي جنوب جبال البرانس مباشرة تقع (نبره) وقد أفادتهم منعة جبالهم في حماية استقلالهم من المسلمين والفرنجة والأسبان. وفي الفترة ما بين ٩٩٤/١٠٣٥م استولى ملك (نبره) على ليون وقشتالة وأرغونة حيث قامت مملكة أرغونة التي استطاعت أن تدفع المسلمين إلى الجنوب وقد سميت قشتالة نسبة إلى قلعتها (كاستل) التي كانت تواجه الأندلس الإسلامية وتقضي حياتها في التأهب للحرب، ثم كان سقوط خلافة قرطبة ١٠٣٦ فرصة ثمينة اغتنمها

الفونسو السادس (الأذفنش) ملك قشتالة فاستولى على طليطلة بمعونة المعتمد ملك اشبيله ١٠٨٥ واتخذها عاصمة لملكه وعامل المسلمين معاملة سيئة.

وتقابل هذه الفترة التي تركزت فيها الجهود للقضاء على الوجود الإسلامي في الجنوب إلى أن ظهرت مملكة قشتالة التي خلقت اسبانيا خلقا فاضطلعت بالحرب وخاصة في القرن الثاني عشر كما اضطلعت بتوحيد اسبانيا بعد ذلك في القرن الخامس ».

هذه المملكة المسيحية الصغيرة التي لم تمت، والتي نمت خلال فترة لا تزيد على قرنين والتي حملت لواء الغزو ضد المملكة الإسلامية الاسبانية وكان دورها في سقوط طليطلة نذيراً بالخطر الداهم على الإسلام، هذا الخطر الذي أحس به ملوك الطوائف.

وتقابل هذه الفترة التي تركزت فيها الجهود للقضاء على الوجود الإسلامي في الاندلس فترة الحملات الصليبية المتوالية على بيت المقدس وسواحل الشام ومصر.

وفي العام التالي مباشرة لسقوط طليطلة (وفي ١٥ ربيع الاول ٤٧٩هـ) عبر يوسف بن تاشفين قائد المرابطين وحاكم المغرب إلى الأندلس في جيش ضخم فنزل بأرض الجزيرة الخضراء، قرب مدينة بطليوس في بسيط فسيح الزلاقة حيث اشتبك في واحدة من أعظم المواقع الفاصلة التي جرت بين المسلمين والاسبان قتل فيها معظم جيش العدو ويقدر بمائة ألف شخص وكسرت شوكة الاسبان.

وكان الاسبان قد أجمعوا أمرهم على طرد المسلمين من شبه الجزيرة الاندلسية بعد أن تمزقت وحدة الحكم فيها وظهر ضعف ملوك الطوائف وكانت المعركة في ١١ رجب ٤٧٩ (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦) حيث سلم الملوك على يوسف بن تاشفين باسم أمير الملوك الذي كر عائداً إلى مراكش تاركاً لهم الغنائم وفي ٤٨٠هـ جاز إلى الاندلس جوازه الثاني برسم الجهاد حيث حاصر حصن لبط ملبياً نداء استنجاد أهل بلنسيه ومرسيه ولورقه وبسطه. وترك جيشا لحماية الثغور ومطاردة العدو، ثم جاز إلى الأندلس جوازه الثالث ٤٨٣هـ حيث نازل طليطلة فحاصرها والفونس بها فهتكها وقطع ثمارها وخرب ناحيتها إنتقاماً لما

فعله جيش الفونس بالمسلمين. وفي هذه المرة لم يأته أحد من ملوك الأندلس، فلما شفى نفسه من طليطلة سار إلى غرناطة وكان صاحبها قد ظاهر الفونس فأخذها من يده، هي ومالقه.

ولم يلبث أن صفى ممالك الطوائف. بعد أن رد اسباب الخذلان والهزيمة إلى حياة اللهو والاستهتار التي كان يحياها ملوك الطوائف، قال ابن خلدون: توافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين فساء نظره فيهم وافتاه الفقهاء وأهل الشورى بخلعهم وانتزاع الأمر من ايديهم.

وتابعت دول الموحدين ما بدأته دولة المرابطين من الجواز إلى الأندلس وتلبية نداء المسلمين، فقد قاد الخليفة المنصور بالله بن يعقوب بن يوسف حملة كبرى إلى الأندلس ٥٨٠هـ (١١٩٥م) وانتصر على الإسبان في موقعة الأرك، وأعقبها إنكسار المسلمين في موقعة العقاب ٩٠٦هـ ١٢١٢م.

لم يتوقف المغرب المسلم عن مناصرة مسلمي الأندلس ومقاومة الحملة الصليبية على شاطىء البحر المتوسط فقد قام الحفصيون في تونس بمقاومة الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع الذي انهزم في معركة المنصورة قد كلفه الأفارقة في تونس حياته كلها وقامت قوات الجزائر بدورها الحاسم في معركة على أرض قرطاجنة مما أدى إلى هزيمتها ٦٦٩هـ ١٢٧٠م. وكان ذلك مقدمة لما قامت به قوات الجزائر في مقاومة القراصنة الأوربيين الذين مافتئوا يهاجمون السواحل الجزائرية وموانيها وقامت مدينة بجاية بدور كبير في حركة المقاومة لرد العدوان الأوربي واقتحام مراكز القراصنة في مواني أوربا نفسها كاسبانيا والبندقية وجنوه وصقلية.

ولم يبق للمسلمين بعد هذه المعارك إلا مملكة غرناطة التي استمرت منذ ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) إلى ٨٩٨هـ (١٤٩٢)م، هذه الدولة الاسلامية الوحيدة التي بقيت قائمة ما يزيد عن القرنين ونصف القرن حتى كانت معركة السنوات العشر (٨٨٨هـ- ١٤٨٢م) إلى (٨٩٨هـ ١٤٩٢م) التي شنها الملك الكاثوليكي فرناندو والملكة إيزابيلا صاحبي عرش مملكتي قشتالة وأرجوان تؤيدهما بالمال والسلاح والرجال كل القوى المسيحية في أوربا إطاعة لأمر البابا الذي فرض على الدول ضريبة دعاها (ضريبة الصليبية) وفي هذه المرحلة ظهرت البطولة

المضحية التي استماتت في سبيل الحفاظ على ما بقي من أرض الاسلام يقودها موسى بن الغسان الذي وقف ضد الاستسلام قائلا: أي باعث فينا إلى اليأس فإن دم الأبطال عرب الأندلس فاتحي هذه الديار يجري في عروقنا وعندنا قوة وافرة وجيوشاً معودة مجربة في الوقائع لا نرتاب في اقدامها ولدينا عشرون ألف شاب يمكنهم أن يدافعوا عن دورهم وأسوارهم» ومن الحق أن مملكة غرناطة لم تستسلم ولكنها قاومت بكل ما تملك، لم يتوقف المسلمون لحظة عن البذل والتضحية في سبيل وجودهم ولكن سلطات الحكم كانت قد تمزقت وغلبها الخلاف ودمرها الترف.

يقول وشنطون أرفنج: إن هذه الحرب (حرب تحطيم مملكة غرناطة) حقبة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر بما تخللها من باهر الثبات والاصرار فإن النكبات توالت فيها على المغاربة (أهل الأندلس) عشر سنوات دون انقطاع فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الأخرى وافنت رجالاتهم قتلا واسراً، فقد قاتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج، بل عن كل صخرة، كأنما هم ينتظرون الفتح، ولم يجدوا مكاناً يثبتوا فيه اقدامهم ولا جداراً يمكنهم رمي السهام من ورائه إلا واعتصموا به ينازعون العدو وطنهم المحبوب حتى لم يبق إلا عاصمتهم مقطوعا عنها كل مدد غير طامعة في أي غوث ينزل على اسوارها. أمة بقضها وقضيضها لم يزالوا يدافعون عنها كأنما هم يترقبون معجزة.

«وبنى فردنيا ندو مدينة كاملة تجاه مدينتهم إشعاراً لهم بأنه لن يرجع عنها أبداً، وبدأ للشبان والمجاهدين تحت قيادة موسى الثبات والموت إلى آخر رجل تحت سنابك الخيل إذ لم يبق هنالك إلا أحد أمرين: الاستسلام أو الهلاك المحقق في معركة الإنقاذ الشرف.

ولكن أهل غرناطة (٥٠٠ ألف نسمة) خافوا فضيحة النساء وانتهاك حرمة البنات وتشتت الشمل وفقدان المال فقرروا الإستسلام بعد مقاومة بطولية ورضوا أن يكونوا رعايا الدولة الاسبانية مقابل اعترافها بدينهم».اهـ

وقالت عائشة الحرة لولد ها آخر السلاطين أبو عبدالله:

«إبك مثل النساء ملكاً لم تدافع عنه دفاع الرجال».

ولم يكن سقوط غرناطة هو خاتمة المطاف ولكنه كان بدأ معركة ضخمة من أقسى معارك مقاومة الإسلام، فقد جرى تدافع الاسبانيون على اذلال البقية الباقية من المسلمين سنوات طويلة لإخراجهم من الإسلام ثم لإخراجهم من بلادهم.

ثم كانت الحملة الصليبية الاسبانية البرتغالية على المغرب: هذه المعركة التي استمرت ثلاثمائة سنة وامتدت ما بين نهاية الاندلس وبدء الاحتلال الفرنسي. (١٤٩٢هـ- ١٨٣٠م) وقد جرى فيها تطويق العالم الإسلامي كله.

يقول الاستاذ أحمد توفيق المدني: إن الاسبان الذين تمكنوا من تحطيم مملكة الاندلس الشامخة التي شغلت في التاريخ ٧٨٢ سنة بقوا يتذكرون ولم ينسوا أبداً ثلاثة أمور:

١- أن جنود الفتح الإسلامي لاسبانيا قدمت من بلاد المغرب العربي.

٢- عندما كانت الممالك الإسلامية الأندلسية تنهار تحت ضربات الأسبان الفتاكة وتحت عوامل الفتنة والانقسام جاءتها النجدة بما يشبه الفتح الجديد من بلاد المغرب العربي وفي شخص ابن تاشفين والمرابطين وفي شخص عبد المؤمن بن علي والموحدين:

٣- أن المسلمين الذين اضطرتهم الإنتصارات الإسبانية إلى ترك أوطانهم وأموالهم وممتلكاتهم إنما لجأوا إلى بلاد المغرب العربي المختلفة يستثيرون أهلها ويبثون في صفوفهم دعوة الجهاد المقدس ووجوب إرجاع بلاد الإسلام، من أجل هذا كانت حملة الاسبان على بلاد المغرب.

(٢)

عندما قبل المسلمون وعود (فرديناند- إيزابيلا) هل وفى هؤلاء للمسلمين؟ لقد غدروا بما عاهدوا أبو عبدالله عليه «إذ ما كاد الملك الأندلسي يغادر غرناطة حتى قلب الاسبان للمسلمين ظهر المجن فأسلمت المدينة إلى حكم الرهبان حتى نصر الراهب هرناندو في يوم واحد ثلاثة آلاف من سوقة

المسلمين بدعوى أن أبائهم كانوا من النصارى.

أما الكادينال (جمينين) فقد أقنع الملك والملكة بنقض العهد وأعلن: «أن على مسلمي غرناطة، إما اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد فخرجوا هائمين لا يحملون من متاعهم إلا النزر اليسير يلتجئون إلى جبال البشرات؛ التي بقيت في أيدي المسلمين ويبحثون عن مركب ينقلهم إلى بلاد الإسلام، حيث التقى التاريخ بالبطلين العملاقيين التركيين: عروج وخير الدين على رأس عمارة القرصان التي كانت تقاتل الدولة النصرانية المحاربة للاسلام فأنقذا من تلك المحنة القاتلة ما يزيد على العشرة آلاف نسمة، وبقي المستضعفون واجبروا على التنصر واقفلت مساجد المسلمين «وحولت إلى كنائس»[1]

وأعدت للمسلمين محاكم التفتيش الرهيبة «التي هي سبة في وجه أوربا والغرب ووصمة عار في وجه المسيحية وأصبحت مدن اسبانيا كلها محارق فظيعة تستحيل فوقها رماداً بقايا المسلمين».

خلفت المحنة شعبا يبلغ زهاء المليونين أطلق عليه إسم (الموريسكيون) هم بقايا الأمة الأندلسية المغلوبة وهم من ارغمتهم اسبانيا على التنصر بعد أن سقطت في يدها (غرناطة) آخر القواعد الإسلامية بالأندلس وتحولوا - كما يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان - بفعل الضغط والاضطهاد من أمة مسلمة إلى طائفة نصرانية كاثوليكية أطلق عليها اسم الموريسكين MORISCOS أي العرب المتنصرين، وقد لبث هؤلاء يرزحون تحت النير الاسباني المرهق زهاء مائة عام وهم يعانون أروع ما يعانيه الشهداء من حروب الاضطهاد والمذلة تطاردهم السلطات المدنية والدينية ولا سيما محاكم التفتيش الشهيرة بأقصى أنواع المطاردة وترغمهم تباعاً على ترك عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية ولغتهم واسمائهم وثيابهم العربية، حتى تقضي بذلك على تراثهم الديني والحضاري وعلى أخص مقوماتهم المادية والمعنوية. وبالرغم من أنهم كانوا في الظاهر نصارى يشهدون القداس ويتكلمون القشتالية فقد كانوا في سرائرهم مسلمين متعلقون أشد التعلق

---

(١) احمد توفيق المدني؛ تاريخ الجزائر

بعقيدتهم الدينية الأصلية ويزاولون شعائر دينهم من الصلاة والصوم وتلاوة القرآن خفية.

وكانت اسبانيا تنظر إلى وجودهم في أرضها بعين السخط العميق وتعتبرهم عنصراً دخيلا بغيضاً يجب التخلص منه».

وقد عمدت الحكومة الاسبانية تحت ضغط الكنيسة إلى التخلص نهائياً من المسلمين الموريسكيون وقررت إجلائهم من اراضيها وذلك عام ١٦٠٩ في عهد الملك فليب الثالث حيث صدر مرسوم النفي النهائي مشيراً إلى إخفاق كل الجهود التي بذلت لتنصيرهم أو ضمان ولائهم وتقرر نفي مجموعتهم إلى بلاد البربر (المغرب) وأن يرحلوا في خلال ثلاثة أيام مع أولادهم من المدن والقرى إلى الثغور التي تعينها لهم الحكومة ولهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطيعون حمله على ظهورهم وبدأ خروجهم وفقاً لهذا القرار من مختلف الثغور الاسبانية في رجب ١٠١٨هـ، أكتوبر ١٦٠٩م في مناظر قاسية من البؤس والمهانة والجوع وقد القت السفن بهؤلاء المنفيين إلى ثغور المغرب المختلفة، نزل بعضهم بتطوان وسلا والرباط ووهران وتلمسان وفاس والجزائر والثغور التونسية ويقدر عدد من غادر اسبانيا من الموريسكين المنفيين نحو ستمائة ألف هلكت منهم جموع كثيرة من الجوع والمرض.

يقول الاستاذ عنان: إن مائة عام من التنصير المغصوب والإرهاق المستمر لم تخمد جذوة الاسلام في نفوسهم.

(٣)

ولا ريب خسرت اسبانيا خسارة كبرى بإخراج المسلمين الذين لم يكونوا عرباً مهاجرين ولكنهم كانوا اسبانيين لهم جذورهم التي استمرت في التزبة ثمانية قرون فقد كان المسلمون في اسبانيا أحذق الصناع وأمهر الفلاحين وأكبر أصحاب رؤس الأموال ولذلك كان لاضطهادهم وتقتيلهم وتشتيت شملهم اكبر الأثر في انهيار الصناعة والزراعة، فضلا عن انحطاط الثقافة والأخلاق والتسامح الديني، بعد أن غلب التعصب الشديد، حتى أن ينابيع الفكر جفت بعد طرد المسلمين وتدهورت الصناعة. ولا ريب أن أكبر دليل على قوة

العقيدة الإسلامية في اسبانيا هو ما أبداه المسلمون من المقاومة الباسلة تجاه الموقف الذي قابلهم به الحكام النصارى. وقد بدأ هذا التعصب بعد سقوط غرناطة في يد المسيحيين منذ ١٤٩٢م حتى صفيت الاندلس عام ١٦٠٩م في خلال ذلك جرت عمليات التنصير واحرقت المساجد وأضرمت النار في المخطوطات والكتب النفيسة.

«ولما صدر المرسوم الذي يخيرهم بين التنصير والرق ثارت ثائرتهم وقد منعوا من الهجرة خارج اسبانيا واشتعلت حينئذ الثورة في (فالانس) وصعد المسلمون إلى الجبال. وهاجموا القرى وبدأ القتال حامياً، وتآمرت قوى أوربا مجتمعة على ضرب المسلمين. وكان القراصنة المسلمون يتوغلون داخل اسبانيا وينظمون هجرة المسلمين إلى افريقيا الشمالية. والذين لم يستطيعوا المهاجرة ادوا مكرهين أقل ما يستطيعون ادائه من أمور الدين الذي فرض عليهم فإذا عادوا إلى بيوتهم أقاموا عقود زواجهم وفق سنن الشريعة الإسلامية.

واستطاع المسلمون دفع أموال باهظة في سبيل مغادرة اسبانيا وكانوا يتوجهون نحو تركيا عبر البندقية، أو إلى افريقيا، ونظمت حركة سرية لتهريب الآلاف من المسلمين على يد البحارة المغاربة وقد أجرت اسبانيا محاولات كثيرة لحجزهم لأنهم كانوا يؤدون دوراً في إزدهار اقتصاد البلاد ولذلك فقد أصيبت غرناطة بالخراب والفناء بعد ذهاب المسلمين غير أنهم قرروا عام ١٦٠٩ طرد جميع المسلمين وبدأت هجرة المسلمين الجماعية حتى شهر مارس ١٦١٠ حيث هاجر نصف مليون مسلم وتقول بعض الروايات أن عدد المخرجين من المسلمين واليهود والموريسكين ما بين سقوط غرناطة ١٤٩٢ حتى الجلاء الأخير ١٧١٤ يبلغ من ثلاثة إلى خمسة ملايين وأن الذين خرجوا في مستهل القرن السابع عشر بلغوا مليوناً من المسلمين، غير أن هؤلاء الذين نفوا عادوا إلى الإسلام بالرغم من مرور أكثر من قرن على تنصيرهم ولم تنطفىء جذوة الإسلام في صدورهم بالرغم من العسف والأرهاق الشديد والتعذيب المستمر وقد هاجروا فارين بدينهم تاركين وراءهم اموالهم وممتلكاتهم.

ومنذ سقطت غرناطة ١٩٤٢ وإلى عام ١٧٩٢ وفي خلال ثلاثمائة سنة بدأت حرب جديدة اجتاحت المغرب كله وشاطىء البحر المتوسط وقد تركزت بقوة

على الجزائر وكانت جولة خطيرة من جولات مقاومة الغرب للإسلام.

(٤)

ماذا كان موقف الغرب بعد سقوط الأندلس؟ للمرة الثانية بعد هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء ١١٤هـ ٧٣٢ تتقهقر الحضارة الإسلامية في أوربا عام ٨٩٨هـ ١٤٩٢م بعد أن دام سلطان الإسلام اسبانيا ثمانية قرون، ثم انحسر عنها بعد أن ترك معطيات العلم والتجريب والتراث الإسلامي كله. وكانت معاملة أوربا للمسلمين قاسية بينا كانت معاملة المسلمين للصليبيين في الشام والقدس حين انسحابهم كريمة ورحيمة وبينا اغرق الاسبانيون مراكب المسلمين قام صلاح الدين بفرض نفوذه على مراكب أوربا لإعادة الصليبيين، يقول ناجي معروف[1]:

لقد كان المسلمون نبلاء سمحاء مع أهل الأديان ومع معابدهم، فقد حافظوا على بيع النصارى وكنائس اليهود ولم يخربوها سواء في إسبانيا والبرتغال أو سائر جزر البحر المتوسط وباقي البلاد النصرانية التى استولوا عليها.

أما الإسبان والبرتغاليون وغيرهم فقد عمدوا إلى محو آثار المسلمين فإنهم حاولوا ألا يبقوا أمام الاجيال القادمة شواهد تدل على رقي حضارة المسلمين المغلوبين وليبرروا ما قاموا به من أعمال وحشية في تنصير المسلمين وقتلهم وإحراقهم أو نفيهم وليشيدوا ولتفخروا بالظفر الذى أحرزته النصرانية على الاسلام. بهذه الصلة أدرك رئيس أساقفة إسبانيا الكردينال (أكزيمنس) أن حرق الكتب العربية سوف يمحو آثار العرب الفكرية والثقافية من إسبانيا فعمد إلى حرق ٨٢ ألف كتاب عربي في ساحة غرناطة بعد سقوطها عام ١٤٩٢ بسنين قلائل.

ويعلق جوستاف لوبون على هذا فيقول: لقد هدم الإسبان أكثر المساجد الاسلامية العظيمة وأزالوا معالمها وحولوا كافة المؤسسات الاسلامية إلى

(١) ناجي معروف في كتابه عن الحضارة بتصرف.

مؤسسات مسيحية على الرغم مما تنطق به الكتابات العربية التي لا يزال بعضها في جامع طليطلة وجامع قرطبه وجامع أشبيلية وغيرها من المنشئات الإسلامية التى تتخذ اليوم كنائس عظمى فقد أرادوا بعد ان قرروا تنصير الملايين من المسلمين بالحديد والنار، ألا يرى المتنصر أثراً إسلاميا سواء أكان مسجداً أم مدرسة مما يذكره بأمجاد إسلامية، ومن الناحية الأخرى غالوا في تصميم الكنائس وأبراجها وفي زخرفتها وحليها وملئها بالتماثيل والتصاوير لتبهر عقول هؤلاء المسلمين المتنصرين وأبنائهم وليوحوا إليهم أن هذه الكنائس المسيحية خير من المساجد الاسلامية وقد بلغ التعصب بهم والاسراع في تعميم التنصير ومحو كل أثر الاسلام درجة كبيرة بحيث أعدوا كثيراً من القوانين الصارمة تباعاً خلال قرن وربع منذ سقوط غرناطة (١٤٩٢ حتى ١٦١٤م) وكانت شروط تسليم غرناطة تتكون من ٦٧ شرطا وكانت على تسامح مع كثير من العرب غير أن الأحبار لم ترق لهم هذه الشروط فظلوا يلحون على الملكية الكاثوليكية (فرناندو إيزابيلا) طالبين اليها السعى في سحق طائفة محمد في إسبانيا وأن يخير الذين أن يريدون البقاء في البلاد بين التنصير وبين بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب وأتبعت الكنيسة العنف والشدة في تنفيذ هذه السياسة وخرقت نصوص المعاهد نصاً نصا.

(٥)

ولقد كشف التاريخ عن نتائج هذا العمل الخطير في كثير مما سجله الكتاب والشعراء، يقول الشاعر الإسباني فلا سبازا:

« ونحن الأندلسيين على الرغم من لباسنا الحديث وأهمالنا لغة أسلافنا العرب ما نزال حفدة أولئك البدو الذين تعودوا في وحشة الصحراء أن يخاطبوا الله وهم قعود أمام خيامهم المنسوجة بشعر الأبل، وكما أننا لو انتزعنا بعض الكلس عن جل كنائسنا لوجدنا تحته لما مذهبة لاسم الله الأقدس المحفور بالحروف الكوفية. وكذلك لو خدشنا بشرتنا الأوروبية الصفراء، لبرز لنا من تحتها بشرة العرب الحمراء إن قوميتنا الاروبية ما هي غير العرض الظاهر » أما العربية فهي حقيقتنا الخالدة، إن كل ثوراتنا

الاوروبية القديمة والحديثة لم تكن في الغالب غير أثر للروح العربية التي تطفر من أعماقنا محتجة ناقمة، لا بد أن ابن الصحراء المتجرد الحر الذى تعود الهواء الطلق تحت نور الشمس (لافى كوة) مظلمة لا يقوى على الحياة خلف القضبان المتراصة في الأقفاص (المظلمة) المثقل جوها بكثافة القواعد المنطقية والمناهج اللغوية ».

ويمضى المستشرق الإسباني فيلا سبازا فيعبر عن وجهة نظر الجيل المعاصر كله حين يقول: لقد حجب الغرب أنوار المسيحية وبدل ما في المسيحية من مواساة وحول فلسفتها إلى أحاج ومعميات، إن جميع إكتشافات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمعة واحدة، ولا خلق ابتسامة واحدة، وليس أجدر من أمم البحر المتوسط المحتفظة بالثقافة العربية والقائمة على إذاعتها بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤم إلى هوة التوحش الإقتصادي؛ ليس في طاقاتنا نحن الأندلسيين المعتنقين بإيمان ثابت دين المسيحية أن نجمد دين أسلافنا فلئن كان الأول مستقراً في ضمائرنا فإن الثانى (أى الاسلام) ما برح مستقراً في نظرة قوميتنا المزدانة بالبدائع.

تلك هي الأندلس التي أخرج منها المسلمون إخراجا، المسلمون من أهلها الذين اعتنقوا الإسلام ثمانمائة عام، وأجلى العرب عن لغتهم وجامعاتهم وعلومهم التي ورثها الغرب وعاش قرناً كاملا يترجمها إلى لغات اللاتين لتكون أرهاص النهضة وأساس الحضارة.

الفصل السادس

اجنحة المعركة: من الشام إلى الاندلس (على جبهة الشام)

لم تتوقف المعركة البابوية المسيحية ضد الاسلام عند جبهة الأندلس الاسلامية وحدها داخل أوروبا، ولكنها تابعت المؤامرة بالزحف على أرض الاسلام نفسه وذلك عندما تنادت إلى الحروب الصليبية باسم استخلاص قبر المسيح، هذا الزحف المتصل الذي لم يتوقف خلال قرنين كاملين في حملات ليست هي الحملات الصليبية المعروفة وحدها.

ترجع فكرة الحروب الصليبية إلى وقت بعيد، أبعد كثيرا من تاريخها المعروف فقد كانت أوربا ترقب نمو الاسلام وتقدمه في قلق شديد وتحاول بقدر ما تستطيع أن توقف هذا الزحف الذي امتد على جبهة القسطنطينية حينا، لم يتحقق له دخول أوربا، ثم حين اقتحم الاسلام أوربا من المضيق الذي أطلق عليه من بعد اسم فاتح أوربا «جبل طارق» وظلت الدولة البيزنطية حصن المسيحية والغرب في جبهة الشرق فلما تهاوت هذه الجبهة لم تجد أوربا بدأ من الاندفاع إلى إقتحام عالم الاسلام من خلال هذه الثغرة.

يصور الأستاذ محمد عبد الله عنان هذه المرحلة فيقول:

كانت تعاليم محمد تنذر في فاتحة القرن الثامن بامتلاك إيطاليا وغاليا والوثنية بالامتداد إلى ما وراء نهر الرين، وأخذت الجيوش تندفع ظافرة إلى الأمام تكتسح كل قوة تغالبها مؤملة على قول الشاعر الانجليزي سوزي أن تخضع أوربا النصرانية إلى صولة الاسلام حتى يصبح الغرب المقهور كالشرق يطأطيء الرأس إجلالا لمحمد، ولكن سيل الاسلام ارتد امام جيوش الفرنج في سهول تور، وأعتبرت أوربا النصرانية (شارل مارتل) حاميها ومنقذها من قبضة الإسلام ومن نير القرآن المدني وأسبغ شارلمان على الفكرة لونا واضحا

فطارد القبائل الوثنية نحو الشرق وفرض النصرانية على سكسونيا وبوهيميا ولومبارديا وردّ المسلمين إلى ما وراء جبال البرنية.

وكانت النصرانية تقنع بالدفاع عن نفسها بادى الأمر، فلما تفككت عرى الدولة الإسلامية واستحالت في القرن العاشر إلى ممالك وأمارات واضمحل شأن القبائل الوثنية في شرق أوربا، واستطاعت النصرانية أن تتحدى الدول الاسلامية وبدأت بين النصارى والمسلمين سلسلة من الحروب والمعارك.

وقد بدأت النزعة الصليبية في إسبانيا بعد مقاومة المسلمين لإسبانيا النصرانية تحت لواء المرابطين ثم الموحدين من بعدهم، فقد أثار هذا الانفجار ارتياع الإمارات النصرانية وبعث إليها نزعة مضاعفة من التعصب الديني، وكان واحداً من العوامل التي أزكت نار الصراع المستعر بين إسبانيا النصرانية وبين، وهذه نفسها هي التي حولت فكرة الحروب الصليبية نحو المشرق».

(٢)

تعد معركة ملاذ كرد العامل المباشر للحروب الصليبية:

يقول ول ديورانت [١] أول سبب مباشر للحروب الصليبية، هو زحف الاتراك السلاجقة وكان العامل قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى».

وكان السلاحقة قد ظهروا عام ٩٥٦ واعتنقوا الإسلام على مذهب السنة ونزعوا من بلاد القزوين في التركستان وحلوا منطقة بخارى ووصل طغرل إلى أطراف خرسان، ثم كان على أبواب بغداد عام ١٠٨٥م وأصبحت بلاد غرب آسيا عن عبارة عن مملكة إسلامية موحدة في ظل السلاجقة، وكان ذلك في حد ذاته نواة السيادة التركية على العالم الإسلامي فيا بعد، هذه القوة الإسلامية الجديدة التي جددت شباب الاسلام، واستطاعت أن تواجه التحدي البيزنطي في صمود وأصالة وسار قادتها طغرل بك وألب أرسلان وملك شاه لرد عدوان

(١) قصة الحضارة جـ ١٥

البزنطيين إلى الأراضي الاسلامية فحققوا انتصارات حاسمة كان أكبرها في موقعة ملاذ كرد ٤٦٣ هـ الموافق ١٠٧١ التي أسر فيها الأمبراطور رومانوس الذي كان قد خرج على رأس جيش ضخم من الروم والصقالبة والفرنج) في أعظم قوة جردتها الدولة الرومانية الشرقية على الإسلام، واتجه إلى (ملاذ كرد) وهي بلدة حصينة على فرع نهر (مرادسو) فضرب حولها الحصار وقد خاض المسلمون المعركة بقيادة ألب أرسلان في عدد لا يتجاوز ربع قوة عدوهم؛ وقد أختار قائد المسلمين الاشتباك مع الروم يوم الجمعة فصلى بجنده ظهراً ولبس البياض وتحنط استعداداً للموت واعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدو قبره وزحف على رأس قواته نحو الروم:

وقد ثبت المسلمون وحاربوا في براعة وجلد وبسالة، فلما رأى رومانس ما لحق بجيشه من الضعف حاول الارتداد ليتأهب للقتال في اليوم التالي، غير أن المسلمين حالوا بينه وبين ذلك فضغطوا بقوة ضخمة على صفوف العدو المتخاذلة المتراجعة، فأحدثوا ثغرة تدافع منها الفرسان المسلمون، واقتحموا قلب القوة الرومية وأصلوها سهاما قاتلة، ثم إنقضوا على جيش الروم من كل ناحية فحصدوه، وأسر رومانوس، وتمت هزيمة الروم ٤٦٣هـ ونقل القيصر الأسير الى حيث التقى بالسلطان ألب أرسلان الإمبراطور.

-ماذا كان يفعل لو كان هو المنتصر؟

وقال رومانوس: أنه كان يقتل السلطان ويمثل به.

قال أرسلان: ولكني عزمت على العفو عنك والفداء.

فافتدى الامبراطور نفسه بألف دينار وخمسمائة ألف، وقد أطلقه السلطان وأطلق معه البطارقة وشيعة فرسخا، وأرسل معه جندا يحفظونه ومعه راية مكتوبة عليها «لا إله إلا الله» وقد علق على هذه المعركة المؤرخ ريتشارد ينوهول فقال:

لقد كان الغزو الإسلامي بقيادة ألب أرسلان في نطاق لم تشهد الامبراطورية البيزنطية أوسع منه منذ أكثر من ثلاثة قرون، وقد منى الروم بهزيمة منكرة تمزقت بها أوصال جيشهم، وأخذ المسلمون الامبراطور البيزنطي أسيرا، ومن ثم

كانت واقعة (ملاز كرد) من الوقائع الفاصلة في تاريخ الشرق والغرب إذ كانت ضربة قاصمة للامبراطورية البيزنطية لم تبرأ منها فكانت عاملا حاسما في إندلاع الحروب الصليبية ولو أن ألب أرسلان سار في طريقه- بعد هذه المعركة- إلى البوسفور لما وجد شيئا من المقاومة ولقوض أركان الامبراطورية البيزنطية » .

ومنذ معركة ملاذ كرد استوطن السلاجقة هضاب آسيا الصغرى وأصبحت في حوزة المسلمين، ثم استولوا على (نيقة) ٤٧٧هـ وبقي سلطانهم في هذه البلاد حتى قضى عليه المغول ٦٥٥هـ قبل سقوط بغداد بعام واحد وتوفي السلطان ألب أرسلان بعد معركة ملاذ كرد بعامين وخلفه ملكشاه واستمرت غزوات السلاجقة لأراضي الدولة الرومانية الشرقية حتى طوقوا آسيا الصغرى من الجنوب وبسطوا سلطانهم عليها .

وكان لملاذ كرد أعمق وقع في أوروبا، فقد بدا للغرب أن سيل التوسع الإسلامي ينذر باقتحام الدولة الرومانية الشرقية والاندفاع إلى اوربا، هناك تعالت الصيحات وجرى إعداد مخطط الحروب الصليبية التي امتدت بجناحيها إلى المشرق وإلى المغرب غير أنه لم يمض على (ملاز كرد) أكثر من خمسة عشر عاما حتى استطاعت القوى الاسلامية في المغرب والأندلس بقيادة المرابطين أن تسحق قوى الفرنجة في موقعة الزلاقة .

كذلك فإنه لم تمض على ملاز كرد خمسة عشر عاما حتى جاءت جموع بطرس الناسك زاحفة تقتحم عالم الاسلام وتصل إلى بيت المقدس » .

وكان بطرس الناسك قد زار بيت المقدس وأدهشه ما رأى من ضعف بلاد الاسلام فعاد إلى الغرب ونبه أذهان البابوية إلى ضرورة انتهاز الفرصة السانحة [فإن بلاد المسلمين في حالة يرثى لها من الضعف ولا بد من الإسراع بحملات عسكرية لاستخلاص الأراضي المقدسة من أيديهم] ثم ذهب إلى فرنسا وأخذ يطوف ببلادها داعيا في حماس شديد إلى الاسراع بحرب المسلمين وقد حمل بطرس الناسك إلى أوربان الثاني من سمعان بطريق أورشليم ما سماه برسالة استغاثة .

ولقد ذهب البابا أوربان الثاني إلى أبعد من ذلك فقد دعا إلى الحرب لا

للفوز بمدينة واحدة فحسب، [بل للفوز بأقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تخفى] . حيث قال: فسيروا نحو القبر المقدس وخلصوا الأرض المقدسة من أيدي الغاصبين وتملكوها أنتم من دونهم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا .

وقد سارت هذه الجحافل إلى المشرق تحمل صيحة متعصبة.

يا شعب الفرنجة: جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جيشا لعينا أبعد ما يكون عن الله طغى وبغى في تلك البلاد: بلاد المسيحيين وخربها بما نشره فيها من اعمال السلب والحرائق وهم يهدمون المذابح في الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم ».

ما كان ذلك صحيحاً لا في جملته ولا في تفصيله فقد كان السلاجقة من أكرم الحكام وأكثرهم إيمانا بمفهوم الإسلام في معاملة أهل الذمة.

وقد ظل أوربان عامين كاملين يتنقل في بلاد أوروبا داعيا إلى الحروب الصليبية حتى وصلت إلى انطاكية ١٠٩٨ الحملة الصليبية الأولى ثم وصلت جموع الصليبيين (٤٩٣هـ - ١٠٩٩) فيما أطلق عليه الحرب الصليبية الأولى.

وهكذا اكتملت الحلقة في ضرب الاسلام في جناحيه: جناحه في الأندلس وجناحه داخل العالم الاسلامي عن طريق البحر المتوسط والشام.

وقد اقتحم الصليبيون الأسوار وقتل من المدافعين نحو ٧٠ ألف مسلم وبدأ إنشاء مملكة بيت المقدس الصليبية ثم أكمل الصليبيون احتلال طرابلس عام ١١٠٩ وأنشأوا فيها الامارة الصليبية الرابعة ثم ملك الصليبيون الساحل كله وجزءاً كبيراً من أراضي الشام وفلسطين وشمالي القدس وأعالي الفرات.

(٢)

منذ اليوم الأول لوصول الصليبيين تداعت القوى وتنادت الاقطار وخرج المسلمون من كل مكان للمواجهة الشاملة «وظهر[١] قادة الكفاح المنظم وبدأ حرب التحرير سلسلة من الابطال، من شرف الدولة مودود إلى صلاح الدين

(١) الدكتور حسين مؤنس في بحثه عن الحروب الصليبية.

وحطمت حصون المعتدين، ولم يتقدم الصليبيون من شمال آسيا الصغرى إلى جنوب القدس إلا على أجساد الشهداء ألوف من العرب قتلوا مدافعين عن أنطاقية وطرابلس ومعرة النعمان وصور وصيدا والقدس وغيرها، ولم يكتف المتطوعة من الاغارة على طوابير القوات الصليبية في الطريق فخطفوا رجالها ورموها بالسهام المصمية وبرزت جماعة الفدائيين المقاتلين الذين يسميهم مؤرخونا بالتركمان: والتركمان هم الذين علموا العرب والمسلمين فن القتال على الخيول السريعة والرمي بالسهام وراء كل صخرة أو شجرة» وفي كل بلاد العراق والشام ظهرت جماعات المستنفرين يخطبون في المساجد وعلى قوارع الطرق والاسواق يهيبون بالناس أن يحملوا السلاح وينفروا لتحرير البلاد، وذهبت جماعات إلى بغداد وحاصرت قصر الخليفة العباسي وأرغمته على الظهور فعاتبوه عتابا شديداً، وظهر رجال أفذاذ عملوا على توحيد الصفوف وتكوين قوات عسكرية للجهاد والتحرير منهم نجم الدين أبلغاري بن ارتق صاحب ماردين ونور الدين بلك، وآق سنقر البرسقي، وكان عماد الدين زنكي عام ٥٣١ هو أول من تمت على يده أول خطوة حاسمة من خطوات التحرير وهي القضاء على إمارة الرها الصليبية في أعالي الفرات ٥٣٩ وتوفي عماد الدين ٥٤١هـ/١١٤٧م وخلفه «نور الدين محمود» ابنه الذي أمضى ٢٢ سنة في الميدان حطم فيها قوات الصليبيين تحطيما وقضى على الحملة الصليبية الثانية ووحد الشام والموصل في جبهة النضال، وقضى على الفاطميين في مصر وضم مواردها إلى معسكر الجهاد وتوفي نور الدين شوال ٥٦٩هـ ١١٧٤م وجاء صلاح الدين الذي حقق نصر (حطين) ربيع الثاني ٥٨٣ يوليو ١١٨٧ واستعاد بيت المقدس وقضى نهائيا على مملكة بيت المقدس وقد هز استعادة المسلمين بيت المقدس الغرب كله فتوالت الحملات ولم تتوقف.

ليست هناك حملات صليبية تسع كما يقولون ولكن هناك تدفق مستمر متفاوت الحجوم ولما عجزت الحملات أن تحقق شيئا. استدارت إلى مصدر المقاومة الحقيقي، يقول جون بول رو (بينما كانت الحملات الصليبية الثلاث التي استهدفت القدس قد تبددت قواها على الشاطىء الفلسطيني، تغير الاتجاه فقرر البابا أنوسنت ١١٩٨ أن ركائز القوة الاسلامية ليست في فلسطين

بل في مصر وكان صلاح الدين قد استولى على الحكم خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر (السادس الهجري) وأسس سلطة قوية، وعزم البابا على ان يوجه الضربة إلى صلاح الدين، غير أن الحملة الصليبية الرابعة انحرفت عن هدفها واستأثرت بالقسطنطينية وتبنت الفكرة الحملة الصليبية الخامسة التي حاصرت دمياط، ودخلتها ١٢١٧، لقد ذهب المسيحيون إلى مصر للقضاء على القوة الإسلامية وكان على لويس التاسع ألا يعتمد على نفسه فلما فشل في مصر وأسره المصريون حاول أن يضرب الإسلام في مكان أقرب إلى أوربا وهكذا رأس آخر حملة معدودة من الحملات الصليبية » .

نعم: على شواطىء مصر انكسرت الحملتان الصليبيتان الخامسة والسادسة ٦١٥هـ ١٢١٨م-٦٤٧هـ ١٢٤٩م

تقدم الصليبيون في الأولى حتى استولوا على دمياط وتجمعت قوات المجاهدين من شتى نواحي مصر في شرق الدلتا وفي مقدمتهم اتباع الطريقة الشاذلية وكان رجال أبي الحسن الشاذلي يقاتلون في سبيل الله في نواحي المغرب الأوسط وعندما انتشرت الطريقة في مصر اصبح رجالها من المصريين من رجال الجهاد، هؤلاء هم الذين قطعوا جسور النيل ليغرقوا قوات الصليبيين وامام طوفان الماء بدأ الصليبيون يتراجعون نحو الشمال حيث كان المجاهدون هناك في انتظارهم فتخطفوهم من كل جانب.

أما في الحملة السابعة التي قادها لويس التاسع فإن الذي قضى على الصليبيين هو ثبات المجاهدين في شمالي شرق الدلتا، لقد تولى المعركة بعد ذلك بيبرس البندقداري، رئيس المماليك، ومماليك الصالح أيوب، الذين قادوا الهجوم المنظم بعد أن كان المتطوعون المصريون قد انهكوا قوى العدو إنهاكا تاما، وعندما فتح المصريون جسور النيل مرة أخرى تقرر بصورة نهائية مصير الحملة الصليبية السابعة، فاضطر الأعداء إلى التسليم ووقع لويس التاسع في الاسر، وتشجع بيبرس بهذا النصر، وكان همه بعد أن أصبح سلطانا هو القضاء على بقايا الصليبيين في الشام وفي يده سقطت إمارة انطاكية (٦٦٦هـ ١٢٦٨م) أما سيف الدين قلاوون فقد استولى على طرابلس في نفس السنة وسقطت عكا في

يد الأشرف خليل ابن قلاوون (٧١٩هـ ٢٩١م) وبسقوط عكا تمت تصفية العدوان الصليبي.

(٤)

لهذه المعركة الضخمة بين الشاطئين: الشرق والغرب، بين أوربا المسيحية وبلاد الإسلام حيث تدفقت الملايين في حقد وغضب وطمع إلى بلاد المسلمين كيف عادت وقد رأت سماحة المسلمين وحضارتهم وثباتهم وإيمانهم، وكيف كان أثر ذلك في الغرب كله، وكيف اهتزت له الكنيسة فقاومته وقضت على كل من يتحدث بخير عن الاسلام؛ هذه الجولة الضخمة أنها من أكبر مواقع الصراع الذي شنته أوربا المسيحية خلال قرنين كاملين لم يتوقف، بل توالى يوما بعد يوم، كان هذا الشاطىء الإسلامي هو مرمى هذه القوات، التي لم تكتف حتى بعد انتهاء الحروب الصريبية.

يقول جان بول ريو في كتابه الإسلام في الغرب: لقد اعتدنا أن نتحدث عن ثماني حملات صليبية الأولى بدأت منها ١٠٩٦م والأخيرة انتهت عام ١٢٧٠ غير أن هذا التقسيم لا يبدو متجاوبا كثيراً مع الواقع ويمكننا أن نزيد هذا العدد إذا اخذنا بعين الاعتبار جميع الدفعات التي وجهت إلى الشرق، وما أن أنشئت مملكة لاتينية في القدس حتى بات من الضروري الدفاع عنها وبالتالي إرسال النجدات المتتالية لحمايتها. وقد لوحظ سريعا بأنه حتى يكون الاحتلال مسيطراً فإنه يجب القضاء نهائيا على القوى الإسلامية».

«أنها محاولة بقاء الدولة اللاتينية الصغيرة في الشرق: بمثابة رأس جسر العالم المسيحي في عالم الإسلام بالغة الإزعاج بالنسبة له لأنها في قلبه نفسه وما دامت الحرب مستمرة فإن الضغط الإسلامي الرئيسي لا يمكن إلا أن ينصب عليها قبل غيرها.

«يجب أن نحذر من الاعتقاد القائل بأن هذه الحملات الثماني الشهيرة هي وحدها تشكل حروب المسيحية الخارجية، إن هذه الحملات في الواقع ليست سوى مرحلة هي أكثر المراحل تأثيرا، وحقبة هي أشد الحقب عنفا في تاريخ هذه الحروب، لقد كان أمل هذه المغامرة ضئيلا بالنجاح فقد قذف بملايين

الاوربيين إلى شواطىء الشرق ومهمتهم تغيير المعتقدات الشرقية ومن أجل الوصول إلى ذلك كان عليهم أن يخربوا هذا الشرق، وقد تصلب الأوربيون في عنادهم طيلة قرنين من الزمان وملكية قبر المسيح أصبحت رمزا للنصر والثبات أكثر منها قضية إيمان » .

تلك هي وجهة نظر كاتب غربي اليوم، لقد تصلب الأوروبيون عنادا ولكنهم عادوا مهزومين، وإن كانوا استفادوا كثيرا حين نقلوا معطيات الفكر الإسلامي والعلوم التجريبية فكانت هذه الحروب هزيمة عسكرية ونصرا فكريا وحضاريا، لقد كشف المسلمون عن جوهر طبيعتهم الصامدة القوية في الحرب قتالا، وفي معاملة أهل الكتاب سماحة وكرما وحفظ التاريخ ولا يزال يروى صفحات السماحة والبطولة معا، وكيف عامل صلاح الدين الصليبيين بعد إستعادة بيت المقدس.

فمن مركز القوة رفض صلاح الدين أن يقتص ممن قتلوا سبعين ألفا في معركة دخول بيت المقدس وأكرم العائدين وسمح لهم بحمل كل مافرحوا به وفرض على المراكب الإيطالية وغيرها إعادتهم إلى بلادهم، وأكرم كل من ورد من حجاج المسيحيين وشرع في مد الطعام لهم وعندما مرض رتشارد أرسل إليه الأطباء والأدوية والثلج، وقال إن ديننا لا يسمح لنا إلا بحسن المعاملة.

(٥)

غيرت سماحة الإسلام موقف الصليبيين تماماً وسجل المنصفون منهم تقديرهم لصلاح الدين، وكشفوا عن الفارق البعيد بين المغيرين المتعصبين وبين أصحاب البلاد المناضلين في ميادين الحرب دفاعا عن بلادهم ودينهم الرحماء بعد انتهاء الحروب، يقول هذا ريك فإن لون المؤرخ الهولندي: إن الصليبيين بدأوا القتال وهم يضمرون أشد البغض للمسلمين وأعظم الحب للشعوب النصرانية في الدولة الرومانية ولكنهم حين عادوا كانت قلوبهم قد تغيرت تماماً.

نظرة الغرب إلى الاسلام إبان الحروب الصليبية[١]

لم يكن الواقع في أرض القدس هو ماصوره الذين حملوا لواء التحريض على الحروب الصليبية . بل كان الواقع عكس ذلك تماما . ولم يكن الواقع كما صوره العائدون من الحروب الصليبية هو ما حاولت الكنيسة أن تقنع به أهل الغرب ولكنه كان عكس ذلك تماما . ولذلك فقد كان لا بد من تكميم كثير من الافواه وعزل كثير من العائدين عن المجتمع حتى لا يتبين أن كل هذه الحركة الضخمة التي استمرت قرنين من الزمان لم تكن الا مؤامرة وهمية خطيرة ، أما قبل الحروب الصليبية فقد كان الكاتب الفرنسي « برناردي وست »في القدس وكتب في مذكراته يقول إن السلام سائد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين حتى أنني لو كنت مسافرا وهلك بعيري ، أو حماري الذي ينقل أمتعتي على الطريق وتركتها كلها في مكانها دون حارس أو رقيب ، وسرت إلى أقرب مدينة لأطلب لي بعيراً آخر لوجدت بعد رجوعي أنها باقية على ما هي لم يمسها أحد » ولكن البابا جريجوريوس السابع حمل عام ١٠٧٥م لواء الحملة المسلحة إلى القبر المقدس ، وبدعوى أن الأتراك أسروا وقتلوا وهدمت الكنائس وانتشرت شائعة بأن شعبا من مملكة الفرس قد اكتسح أراضي النصارى وأباد سكانها بالسيف والنار ونهب منازلهم. ولم يكن شيء من ذلك كله صحيحاً .

الغاية : هي إثارة عواطف المسيحيين لكي يسيروا إلى مقاتلة المسلمين ، وعلى حد تعبير رانا كارلتون منرو المؤرخ الأمريكي[١] هذه الفظائع المنسوبة إلى المسلمين كانت ممزوجة بكثير من الافاوية لتوافق روح العصر ، وخاصة الرسالة الملفقة المنسوبة إلى الإمبراطور من الكسيوس الأول ، وقد لجأ الغربيون إلى أنواع أخرى من الدعاية ضد المسلمين - يقول كارلتون منرو - فقد اتهموهم بعبادة الأصنام ، في كتب ذلك العهد انتشر كثيرا في الغرب الاعتقاد بأن المسلمين يعبدون محمداً كإلـه ، وإنه كان لهم آلهة وأصنام أخرى وقد وجد في الكتب

---

(١) تحليل لبحث الدكتور رانا كارلتون منرو المؤرخ الامريكي (نشر ١٩٣١ في مجلة الكلية م١٨)

الراجعة إلى عهد الحروب الصليبية أنها كثيراً ما تذكر هذا الاعتقاد بألوهية محمد عند المسلمين » .

والمعروف أن الهدف من هذا هو شجب الأثر الذي أحدثه الإسلام في مجموعات القوى المدفوعة إلى الحرب وقد ظهر من بعد ما يعارضه تماما إذ اكتشفت هذه القوى إن المسلمين إنما يعبدون الله الواحد القهار كذلك فقد أشار الباحثون الغربيون إلى أن الدعاية التي روجها المتعصبون بأن المسلمين جبناء . هي شبهة تبددت تماماً بعد أن قدموا إلى الإسلام حيث وجدوا أن المسلمين لا يعبدون الأصنام وأنهم مثل عال في البطولة صبر في الحرب قادون على سحق أعدائهم وقد اعترف بشجاعة المسلمين ومهارتهم الحربية وفروسيتهم وكرم أخلاقهم عديد من المؤرخين في مقدمتهم جبرت. ويقول اليجنيث في كتاب (GESTA) المجهول: إني سأتكلم عن الحقيقة التي لم يجرؤ واحد على إنكارها: وهي أنهم لو نبتوا في دين المسيح وفي المسيحية المقدسة لما كان باستطاعة أحد أن يجد محاربين أقوى واشجع وأمهر منهم.

ويقول المؤلف (راناكارلتون منرو) الذي ننقل عنه: لم يقف تأثيره احتكاك الصليبيين بالمسلمين عند حد الإعجاب بشجاعتهم بل تجاوزه إلى تحاملات أخرى عليهم، فقد احتك الصليبيون في سوريا وفلسطين احتكاكا دائما متصلا بأهل البلاد في الأعمال الزراعية وبناء القلاع وقلما كانوا يميزون بين المسلمين وهراطقة النصارى ويقول: وقد أسر كثيرون من الافرنج ظلوا في القيد أمداً طويلا ، وكانوا عادة يعاملون معاملة حسنة ويمنحون قسطاً وافراً من الحرية بحيث أصبحوا يعرفون المسلمين عن كثب والتجارة التي كانت من ضرورات الإمارات الصليبية كانت من عوامل التعارف بالمسلمين وكانت نساء الفرنج قليلات فأدى ذلك إلى التزاوج بين الفريقين، وكان المسيحيون يؤثرون استشارة أطباء المسلمين لتقدمهم على أطباء المسيحيين » وهكذا نرى أن الحروب الصليبية بعد أن انتهت كشفت زيف الدعاوى التي وجهت إلى الإسلام والمسلمين وتبين أنه لم يكن هناك حدث خطير يستدعى هذه الحملات المتصلة خلال قرنين من الزمان، إلا التعصب والمطامع ثم كشفت ايضاً زيف الادعاءات الموجهة إلى عقيدة المسلمين وأخلاقهم، ولما عاد الصليبيون كان الأمر غاية في

القسوة بالنسبة للكنيسة صاحبة الدعوى الباطلة ولذلك فقد أخذ الدعاة أسلوبا جديداً يصفه الدكتور (رانا كارلتون منرو) حيث يقول: بدأت الدعاية ضد الاسلام تأخذ شكلا جديداً فبطرس المحترم رئيس دير كليني فكر في اتخاذ خطة جديدة هي تفنيد تعاليم الإسلام إذ أن الغربيين كانوا يتوقون إلى الوقوف من أعدائهم المسلمين ومعتقداتهم فقد يكون وصل إلى الغرب خبر البعض من المسيحيين الذين اعتنقوا الدين الاسلامي ولكن يظهر أن التأثير الأكبر كان لسفرة قام بها بطرس المذكور إلى أسبانيا عام ١١٤١م فهناك شاهد (تقدم المسلمين وقوتهم) فعزم على معرفة محتويات القرآن لتنفيذ تعاليمه فاستخدم ثلاثة مسيحيين وجعلهم يشتغلون بالاشتراك مع رجل عربي في ترجمة القرآن تحت إدارة كاتبه وقد كلفته هذه الترجمة كمية كبيرة من الدراهم. ولكنها لم تكن مع الاسف ترجمة صحيحة بل كانت فاسدة جدا على أنها هي الترجمة الوحيدة التي عرفها اهل الغرب حتى اواخر القرن ١٧ وقد طلب بطرس من برنارد اليكرفوس أن يضع رداً على القرآن فابى فاضطر هو نفسه إلى القيام بهذا العمل وبدأت تظهر كتب حولية في اللغات الأروبية المختلفة عملت على إشاعة المعتقدات الفاسد عن محمد والإسلام وهي التي تمتلىء بها مصادر القرن الثالث عشر والقرون التي تعاقبت » .

وهكذا نجد ان الغرب قد حشد نفسه لمقاومة دخول الإسلام الى الغرب وبدأ يثير الشبهات حوله ويقوم بحملة مضادة هي ما تولى الاستشراق أمره لتزييف مفاهيم الإسلام لدى المسلمين أنفسهم وهو ما قام به الغرب بعد أن اتيح له الزحف إلى بلاد المسلمين، وقد كان من آثار الحروب الصليبية: إندلاع حرب الكلمة والتبشير وبناء ذلك الجهاز الضخم من الإرساليات التي زحفت على بلاد المسلمين ونذكر في هذا الصدد وصية لويس التاسع الذي هزم في المنصورة ودعا الغرب إلى اتخاذ حرب الكلمة مع المسلمين بديلا عن حرب السيف، ولكن هل استطاعت تلك المحاولات أن تعزل الغرب عن فهم حقيقة الإسلام وأخلاق المسلمين وخاصة تلك الصورة الزاهية: صورة صلاح الدين الأيوبي: الحقيقة أنها لم تستطع فإن كثيرا ممن زاروا بلاد الإسلام في هذه الفترة قد كتبوا فصولا ضافية ما زالت مرجعا تاريخيا ومما يذكره المؤرخ الغربي الذي

نقل عنه (رانا كارلتون منرو) ذلك البحث الذي كتبه BURCHERD برشارد نحو عام ١١٧٥ ونقله (أرنولد أف لبيك) في تاريخه وكان برنارد قد بعث بمهمة من قبل الأمبراطور فردريك بارباسا إلى صلاح الدين، وهنا يصف لنا معتقدات المسلمين وصفا حسنا ويطري روح التسامح عندهم، فيذكر أن في الأسكندرية عدة كنائس مسيحية وأن كل قرية في مصر لا تخلو من كنيسة، ويشهد أن كل إنسان حر في اتباع دينه الخاص وإن أكثر المسلمين يكتفون بزوجة واحدة، وهو يخبر عن مداومتهم على الصلاة وعلى اعتقادهم بأن الله هو خالق كل الاشياء، وأن محمدا هو رسوله الأقدس، وصاحب الشريعة، وأن العذراء المباركة خلقت من نفحة روحة وبقية عذراء بعد ولادة المسيح، وأن ابن العذراء هو نبي وقد نقله الله لنفسه بأعجوبة إلى السماء. والمسلمون ينكرون أنه ابن الله وأنه تـعمد وصلب ومات وقام، ويؤمنون بأن الرسل هم أنبياء ويقدمون الكثير من الشهداء والمؤمنين » وتحدث عن صلاح الدين فقال: إن صلاح الدين كان محبوبا في الغرب لسلوكه الرؤوف وكرمه بعد استيلائه على اورشليم الذي يخالف تماما سلوك الصليبيين عام ١٠٩٩ وقد أثار دهشة الصليبيين وعجبهم، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد التسامح وقد سمح أن يكون للمسيحيين اللاتين راهبان وشماسان في كل من أورشليم وبيت لحم والناصرة وأن يقوموا بطقوس دينهم بكل حرية، وكان مشهوراً بتأدبه وقد نشأت بينه وبين ريتشاد قلب الأسد علاقات ودية عديدة وقد وصلت حكايات رأفته وكرمه إلى الغرب، وقد أشار وليفر في كتاب له: أن المسلمين اعترفوا بالمسيح نبيا وليس إلها، وينكرون آلامه وموته واتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية فيه والثالوث الأقدس وقد ظهرت في هذه الفترة كتابات كثيرة يجادل بها المبشرون الغربيين دعوة المسلمين إلى دينهم في محاولة لاستغلال بعض نصوص القرآن ومن ذلك وليفر، هذا، وجوكست، ويرجع الباحث الامريكي هذا الإتجاه إلى الإستعانة بالكتاب الذي كتبه وليم الصوري عن المسلمين، وقد حاول بعض المبشرين المسيحيين في هذه الفترة استغلال بعض نبوءات كاذبة عن قرب نهاية الإسلام، ومنها انهيار صرح الخلافة الاسلامية في بغداد على يد هولاكو ولو أنهم علموا ما حدث بعد ذلك من توسع وثبات للاسلام وقيام الدولة العثمانية واتساع الإسلام في افريقيا

وجنوب شرق آسيا لندموا على هذه الأوهام.

ويقول (رانا كارلتون منرو) :إنه بالرغم من كل هذه المحاولات فقد بقيت نظرية أكثر أهمية على ما هي عليه، وهي ما كانوا يشعرون به من أنه من المستحيل إستمالة المسلمين إلى الدين المسيحي وقد أثارت مخاوفهم كثرة المسيحيين الذين أعتنقوا الإسلام، حتى أن البابا جريجوريوس العاشر عام ١٢٧٤م عمل على وجوب تحريم مدّ يد المعونة إلى من ارتد من فرقة الداوية وفي معاهدة عقدت مع المسلمين ١٢٧٣م أرغم الإفرنج على التعهد بحماية حقوق المرتدين عن الدين المسيحي. وكان البابوات يعملون لحرب صليبية جديدة وينشطون الدعاية ضد الإسلام » .

وبالجملة فإن محاولات الغرب في مواجهة الإسلام، هذه المحاولات القائمة على التعصب والحقد والبغي قد فشلت جميعها وتبين للغرب نور الإسلام وعظمته الحقة في ذلك التعامل لمدى قرنين كاملين بين المسلمين والمسيحيين الغربيين الذين جاءوا تحت لواء الحروب الصليبية مغررا بهم وقد تكشف لهم فساد ما نقل إليهم عن الإسلام نفسه وعن أخلاق أهله فوجدواماالحقيقة الكبرى: سلاماً وإيماناً ورحمة.

الفصل السابع

اجنحة المعركة: بين الجزائر واسبانيا

بعد أن سقطت الأندلس [وقد بدأت بسقوط (طليطلة) ٤٧٨هـ(١٠٨٥م) وانتهت بسقوط (غرناطة) (١٤٩٢م)] وكانت الحروب الصليبية قد انتهت بهزيمة الغرب (٩٩٦هـ ١٢٩٩م) ونشأت الدولة العثمانية في نفس أعوام هزيمة الصليبيين، وارتفعت في سماء المجد حتى فتحت القسطنطينية ٧٥٤هـ ١٣٥٣م أي أن آخر معاقل الإسلام في الاندلس سقطت بعد استيلاء المسلمين على القسطنطينية بأقل من أربعين سنة، في هذه الفترة التي أخذت الدولة العثمانية تتسع وتنمو كانت هناك حركة خطيرة تزاولها دولتي الاستعمار الأوليان: أسبانيا والبرتغال بعد أن تحررتا من النفوذ الإسلامي ، هذه الحركة ترمى الى الإنتقام من الإسلام في الشاطىء الجنوبي وكان التركيز الأكبر على الجزائر حيث دارت معركة الثلاثمائة عام، وهي الجولة التي سبقت احتلال فرنسا للجزائر من بعد والتي استمرت ثلاثين ومائة من الأعوام لم يكتف الغرب باسترداد الاندلس وإذلال أهلها المسلمين من قتل وتعذيب وتهجير خلال تلك السنوات الطويلة للتخلص من المسلمين نهائياً في شبه جزيرة ايبريا وهم من أهل البلاد أصلاً، ولكنهم أرادوا ملاحقة هؤلاء المسلمين في بلاد المغرب والانتقام منهم ومن اهل المغرب الذين عبروا مرتين إلى الأندلس لاستنقاذ المملكة الأندلسية نعم (كما يقول الأستاذ احمد توفيق المدني) : لم تكتف إسبانيا النصرانية أو تقنع بسحق الأندلس المسلمة واستعادة آخر نقطة للإسلام في إسبانيا بل رأت غداة ظفرها ان تطارد الإسلام بكل ما وسعها وأن تمحو كل رسومه وآثاره من صحيفة حياتها وأن تدفن ذلك الماضي المجيد إلى الأبد، والمعروف أن البرتغال هي التي اخذت بادرة ما أطلق عليه من بعد اسم الاستعمار والكشف الجغرافي وتبعتها إسبانيا وكانت الضربات الأولى موجهة إلى موانى الجزائر وامتدت إلى تونس والمغرب وليبيا.

وقد حملت منذ اليوم الأول روح التعصب والحقد الصليبي وكان قادتها الاول ممن اطلق عليهم اسم المكتشفين بالغي الكراهية للانسانية ومندفعين في الانتقام والعسف، وكانت كل محاولات اكتشاف الكيان الإقتصادي لعالم الإسلام حتى يكون عاجزا عن الجهاد والمقاومة، وكانت تحاول أن تحقق ما أطلق عليه اسم تطويق عالم الإسلام من الخلف، حيث كانت الدولة العثمانية اذ ذاك مسيطرة على شرق البحر المتوسط كذلك فان خطة الغرب المقاومة كلها للاسلام: فكرا وسياسة، وانما كانت تحاول أن تحول بين أهل أوربا وبين فهم الإسلام فهما صحيحا ثقة بأنه من اليسر بحيث يدخل في القلوب بغير استئذان ولذلك كانت تلك الحركة العنيفة التي تضم إلى سلك محاكم التفتيش وهي القضاء على قوة المستنيرين العائدين من الشرق بعد فشل الحروب الصليبية والذين أعلنوا بكل قوة أن ما أذاعته اوربا عن الاسلام كاذب، وأن معاشرتهم للمسلمين كشفت عن سماحة ورحمة وخلق رفيع، لقد قضوا على هذا الرعيل حتى لا يشك الأوربيون في أكاذيب الصليبيين التي هي مبرر حملاتهم على الشرق، كذلك كانت السياسة الأسبانية تعمل على «أن تحجب آثار العصر الإسلامي[1] وتخفيها عن كل باحث ومتطلع كانما كانت تخشى أن تؤثر روح التفكير الإسلامي في تفكير أسبانيا النصرانية وهي لم تدخر وسعا في مطاردة هذا الروح وقتله» وقد ظل هذا الاتجاه زمنا حتى جاء الوقت الذي ظهر فيه الحق فكشف النقاب عن الحقيقة التي تبرز كرامة الإسلام وسماحة المسلمين. وفي نطاق هذه الخطة كانت تلك الحملة المذعورة على الشاطىء الإسلامي للبحر الأبيض والتركيز على الجزائر بالذات فبدأ هذا الزحف مبكراً حينما استولت البرتغال على ميناء سبتة ١٤١٥م ثم دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح واكتشف كولمبس القارة الأمريكية بعد شهور من سقوط غرناطة بأيدي النصارى الأسبان ١٤٩٢ وفي ١٤٩٧ سار فاسكودي جاما فاستدار حول رأس الرجاء الصالح، ووصل الى (موزنبيق) و (مالندي) حيث الحكم العربي الإسلامي، ثم شق طريقه إلى (قالنقوط) ثم عاد إلى لشبونة سالكا نفس الطريق الذي بدأه من قبل. وأنشأ البرتغاليون المستعمرات على ساحل افريقيا الشرقي

(١) احمد توفيق المدني: نفس المصدر

وتمكنوا مابين (١٥٠٢-١٥٠٩ من إنهاء السيطرة الإسلامية على شرقي أفريقيا والمحيط الهندي وإقامة ثلاث مستعمرات رئيسية (كلو-موزانبيق-سوخالا).

ثم بدأ تنافس الدول الأوربية واضحا بعد زمن قصير من تحرك البرتغاليين فتحركت فرنسا ١٥٢٩ وانجلترا ١٥٨٠ ((وهو نفس العام الذي بدأت البرتغال تفقد مستعمراتها بعد ضمها إلى أسبانيا) ثم جاءت هولنده ١٥٩٥ وكان لانكشير الإنجليزي قد وصل إلى الهند عام ١٥٩١ سالكانفس الطريق البرتغالي القديم حيث أسست شركة الهند الشرقية ١٦٠٠ وقد قام البرتغاليون باستعمار شرق القارة الأفريقية في أقل من عشر سنوات ثم هبت الدول الأوربية تنازعهم السيادة الاوربية في آسيا وأفريقيا ولم تلبث البرتغال وأسبانيا أن سقطتا وانسحبتا من ميدان الإستعمار وكان أخطر ادوارها هو حرب الجزائر التي استمرت ثلاثمائة عام أذاقها فيها المسلمون صنوف العقاب والمقاومة فلم يمكنوها أن تحقق شيئا مما كانت تأمل فيه.

(٢)

خرج الشرق الإسلامي من الحرب الصليبية مضعضع القوى، وكانت المعركة في الاندلس على أشدها، وهي معركة لم يكتف فيها الغرب بالسيطرة على أسبانيا بل امتدت للقضاء على المهاجرين ومعاقبة الشاطى الأفريقي العربي الاسلامي الذي عاونهم وساندهم والانتقام منهم وكانت هناك المحاولات المتصلة لمهاجمة الشواطى الجزائرية، وموانيها حيث تكونت في مواني اوربا قواعد للقرصنة في اسبانيا والبندقية وجزيرة صقلية.

وقد هاجمت هذه القوى معظم سواحل المغرب الأقصى واحتلت مدن وهران ومستغانم والقلعة المقابلة لمدينة الجزائر وموانى من تونس ومراكش، وكان ذلك تقدمة لخطة شاملة للسيطرة على الإسلام، وشن الغارات على المهاجرين من الاندلس ومدها إلى مواطنهم الجديدة في شمال أفريقيا، ولقد اشترك في مقاومة هذه الحملة الحفصيون في تونس والزناتيون في الجزائر والمرينيون في المغرب الأقصى، وقد جاء دورهم في الجهاد بعد دور الموحدين والمرابطين.

ومن ثم بدأت الجزائر تدخل المعركة الكبرى التي جاءت بعد سقوط الاندلس بعشرين عاما تقريبا والتي بدأت ١٥١٤ وظلت ملتهبة الأوار حتى تناهت بالهزيمة الكاملة عام ١٨٣٠ (٩١٨-١٢٤٦هـ) كانت يد الإستعمار المسيحي الأوربي قد طمعت في السيطرة على المغرب وأخذت تدق أبوابه بشدة وكان الإسبان قد سيطروا على مدينة تطوان عام ١٤٠٠م حيث حطموها وقتلوا نصف سلطانها وساقوا باقي أهلها أسرى إلى أسبانيا وامتدت يد البرتغال الى مدينة سبتة ١٤١٥ وإذا كانت المعركة قد توقفت في المشرق فإنها ثقلت في المغرب واتسع نطاقها ودخل المسلمون في تجربة أريد بها« السيطرة على الإسلام من هذه الناحية، سيطرة قائمة على مفهوم التبشير والغزو الفكري أساسا وإذا كانت موانى الشاطىء المغربي (الجزائر وتونس والمغرب) قد سقطت بين أيدي البرتغال (سبتة وطنجة وأصيلا وأزمور والصويرة واسفى) والأسبان صخرة باديس الحربية ومدينة سبية وبلدة أفنى إلى يومنا هذا) فإن ذلك لم يحدث إلا بعد حروب ومعارك قاسية عنيفة أبلى فيها المجاهدون المغاربة البلاء الحسن بما عرف عنهم من قوة وإيمان. وإتقاء لخطر اتحاد إسلامي موسع في أفريقيا ضد الصليبيين الإسبانيين أرسل فرديناند ١٥٠١ بعد سقوط غرناطة وأثناء اشتداد المحنة وفداً إلى العاصمة : عاصمة المماليك يطلب عقد معاهدة صداقة ، كذلك فإن الراهب (خيمينس) الذي قاد الحملة الصليبية على الجزائر كان يدعى أنه يعمل جهاداً في سبيل الله، وكان البابا في روما قد أصدر أمره إلى جميع البلاد المسيحية الأوربية أن تضع كل إمكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك إسبانيا من أجل إخضاع بلاد الشمال الأفريقي للحكم وللدين المسيحي أخيرا وكان ذلك كله رد فعل الخوف الذي ملأ قلوب الغربيين والإسبانيين على الخصوص بعد اخراج المسلمين من أفريقيا من أن تزحف موجه جديدة على رأسها قائد مثل يوسف بن تاشفين أو عبد المؤمن وكان الاسبان يخافون أن يعيد عليهم المسلمون الكرة من جديد ، وكان ظنهم أن يستسلم لهم المغرب فريسة طيعة وخاصة الجزائر ولكن الأمر لم يكن كما تصوروا فإن الأمة الإسلامية التي كانت قادرة دائما أن تستجيش من أعماقها بالقوة القادرة على المقاومة والردع في الوقت المناسب سرعان ما أخرجت عروج وخير الدين فتغير

وجه التاريخ وتحولت المواقع من هزيمة إلى نصر . وسجل التاريخ للجزائر دوراً دوليا في هذا العصر وفي ابان شراسة الاستعمار البرتغالي والاسباني لا يقل قوة عن دورها من بعد في مواجهة الاستعمار الفرنسي: فقد حشدت الجزائر كل مذخورها الروحي والمادي) ضد العدو المهاجم، وأقامت دولة الجزائر : دار الجهاد ١٥١٦ التي ظلت تقاوم إلى ١٨٣٠.

« ظهر [١] عروج وخير الدين في الميدان ودخلا في الأسطول العثماني ، وبقي عروج أسيراً في يد قراصنة مملكة البندقية وعندما أطلق سراحه بعد تعذيب وتنكيل قرر أن يكرس حياته لمقاومة القراصنة واستمال إليه اخاه خير الدين حيث كان الصراع على أشده بين القراصنة والإسبان ومسلمي شمال أفريقيا والقادرين من الأندلس فشاركا في تهريب الناجين والفارين منهم إلى شمال افريقيا وبلاد الشرق واتفقا مع الامير الحفصي بتونس أن يكون ساحل تونس وميناء حلق الوادي بالذات موئلاً ومركزاً لقوتها البحرية لقاء خمس ما يغنمونه من الأعداء ومن « جيجل » بعد انفكاكها من الإيطاليين أخذا يشنان الغارات على القراصنة ، وكررا المحاولات ضد الإسبان في ثغر بجايه ، وقد استطاع عروج وخير الدين ومن ورائهم الجموع المجاهدة الكثيفة من الاستيلاء على الجزائر وطرد الإسبان ووسعا مجال السيطرة حتى تلمسان وأقرت الدولة العثمانية هذا الوضع وقد دخل المغرب الإسلامي في الدولة العثمانية عن رضا وطواعية واستطاع خير الدين بعد الحملة الإسبانية الكبرى على الجزائر ١٥١٩ أسر ثلاثة آلاف جندي من مدينة جيجل وواصل نشاطه سبع سنوات متصلة فاستطاع أن يسيطر على الملاحة في المتوسط وإخضاعها لسيطرة الأساطيل الإسلامية ، كذلك فانه استطاع اقتحام قلعة الإسبان المواجهة لمدينة (برج الفنار) وضربها عام ١٥١٩م وتوالت حملات الإسبان ولكنها هزمت شر هزيمة . ثم اختير خير الدين بعد ذلك قائداً عاماً للبحرية العثمانية ولما حاولت إسبانيا وألمانيا وإيطاليا الوقوف في وجه النفوذ العثماني والسيطرة على بلاد شمالي أفريقيا زحف خير الدين في قوات كافية ودخل إلى تونس ١٥٢٤ وقد زحف شارل الخامس بعد

(١) احمد توفيق المدني.

ذلك في أربعمائة سفينة، و ٢٨ ألف جندي واحتل حلق الوادي واتخذ جامع الزيتونة اسطبلا وما لبث خير الدين أن رد عليه بهجوم مفاجىء على جزر البليار واسترق منها ٦ آلاف شخص وعاد بهم إلى الجزائر وتولى قيادة البحرية الجزائرية (حسن أغا) الذي واجه القرصنة الإسبانية، حيث أعاد شارل الخامس ١٥٤١ الكرة وقاد حملة بحرية في ٣٦ الف جندي و١١٦ سفينة وقد سجلت الجزائر انتصارا عظيما على أكبر حملة في القرن السادس عشر وضد أكبر دولة ولم يرتدع شارل الخامس وحاول تنظيم حملات انتقامية منذ عام ١٥٤٣ ولكنها فشلت كما فشلت حملته في نفس العام على تلمسان.

ولم تفلح مؤامرة شارل الخامس (الذي كان امبراطور إسبانيا) في الإتصال بالأميرالاي العثماني خير الدين حيث عرض عليه الاستقلال لبلاد المغرب تحت حمايته، ولما أحس الإسبان بمساعدة فرنسا لهم، نزلوا ضد العثمانيين في تونس ولكن درغوث التركي تمكن من النزول في تونس ودخل في صراع عنيف مع قوات إسبانيا في البحر المتوسط وكانت طرابلس في يد فرسان القديس يوحنا منذ عام ١٥٣٥ تسلموها هدية من الامبراطور الأسباني شارل الخامس، وكان الإسبان قد استولوا عليها ١٥١٠ فلما استنجدت طرابلس بالسلطان العثماني بعث اليهم نجدة بقيادة مراد أغا، فلما استعصت عليه طرابلس جاءته نجدة من سنان ودرغوث اللذين قدما جميعا إلى طرابلس وفكوها من الفرسان وطردوهم نهائيا ١٥٥١م وجمع درغوث قوات بحرية كبيرة وحاصر جزيرة مالطا وتصارع من جديد مع فرسان القديس يوحنا واستشهد[1] وهكذا نجد أن الغرب المسيحي ممثلا في البرتغال واسبانيا قد انطلق انطلاقة عنيفة حاقدة إزاء المغرب كله ولكن الدولة العثمانية كانت مع مجاهدي المغرب عوناً على ضرب هذه المؤامرة ولما رأى البابا أن القوى الإسلامية صامدة وقادرة على رد الاعتداء بقوة، ألف حلفا مسيحيا ضد الدولة العثمانية اشتركت فيه البندقية واسبانيا، وقد التقت قوات هذا الحلف بالاسطول العثماني في معركة (ليبانتو) الشهيرة عام ١٥٧١ على مدخل خليج كورنثة باليونان وتغلبت، ولكن الأتراك أعادوا

---

(١) عن كتاب احمد توفيق المدني (حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر واسبانيا)

تونس أواخر ١٥٨٣ وضربوا الحصار على حلق الوادي حتى أرغموا الاسبان والأمير الحفصى على الفرار إلى تونس ثم لاحقوهم هناك والتحموا معهم في معركة فاصلة وهزموهم ولم يتوقف الأمر بعد على البرتغال والاسبان بل اخذت الدول الأوربية جميعها تتصارع على الشاطىء الإسلامي الأفريقي، وبدأ عصر القرصنة الاوربية المسيحية وقد واجه المسلمون في تونس وطرابلس والجزائر هذا الخطر باتخاذ قوات بحرية للدفاع عن كيانها وشواطئها ضد الحملات والحروب الصليبية التي كانت تشنها الدول الأوربية، وقد واجه المغرب الإسلامي التحدي الصليبي(كما فعل أهل المشرق بالحروب الصليبية) بأعنف الوسائل التي تمثلت في إنشاءأساطيل وإعداد قوات بحرية ضخمة تحدت أطماع دول وممالك أوربا وظهر الأسطولين الفرنسي والإنجليزي على أنقاض التركي والإسباني وكانت هذه بداية مرحلة جديدة.

(٤)

ولقد كانت القرصنة الاسبانية البرتغالية أشد ما تكون هولا وفظاعة، تفتك بالمسلمين فتكا ذريعا، وتعمل على استذلال رقابهم، لولا أن الأتراك العثمانيين كانوا قد وطدوا في المشرق اقدامهم، وشيدوا أسطولا عتيداً واشتهر من رجال البحر عروج وخير الدين وكانا قد تطوعا بنقل المسلمين من الأندلس إلى سواحل المغرب، ثم تعاقدا مع الأمير الحفصي التونسي على أن يجعلا قاعدة أعمالهم البحرية في جزيرة (جربة) وأصبح النفوذ الاسباني يزداد في البحر والاسبانيون يتكالبون بكل جرأة على المسلمين، ثم أرسل الجزائريون إلى بربروس خير الدين يستنجدون به فقدم وجعل مدينة الجزائر عاصمة ملكه، ولما أرسل خير الدين إلى السلطان يشعره بدخول الجزائر تحت لوائه أمد السلطان الجزائر بجند وأسطول وأصبح الأتراك يقفون وجهاً لوجه أمام الاسبان المعتدين. وأذاق بربروس الأسطول الأسباني أمر العذاب ودمره شر تدمير في عدة مواقع كبيرة وامتد ميدان المعركة بين الغرب والاسلام من تلمسان إلى البحر المتوسط وكان للحكم التركي أثره الكبير في إنقاذ الجزائر – والمغرب كله – من شر الاحتلال الاسباني وكانت ولاية الجزائر تتمتع باستقلال داخلي

تحت سيادة الباب العالي الإسمية وأقامت الجزائر في مواجهة القرصنة الأوروبية نوعا من الجهاد الذي يسفر عن الحرب مع الدول البحرية التي لم تربط علاقاتها التجارية مع حكومة الجزائر ، وكانت تحسن معاملة الأسرى المسيحيين وتسمح لهم بإقامة معالمهم الدينية علنا في نفس الوقت كانت اسبانيا تقوم بحرق المسلمين أحياء .

ولقد انكسرت الدول الأوروبية وخاصة الاسبان أمام الجزائر مرات ومرات، وحاولت اسبانيا أن تنال مع الجزائر كانت أعظم مدينة حصينة بالبحر المتوسط كله . وكان بها من المواقع الضخمة ما يفوق في رميه وقوته مدافع أوربا وكان الأسطول الجزائري مؤلفاً من ٧٢ قطعة بحرية يحمل كل منها ٣٠ مدفعاً ونحو من ١٤٠ سفينة من ذات العشرين مدفعاً .

(٥)

ولقد حاول الغرب في العصر الحديث وهو يكتب التاريخ أن يزيف كثيراً من الوقائع ، ومن ذلك محاولة الادعاء بأن المسلمين كانوا يمارسون القرصنة على النحو الذي عرف عن الغرب نفسه والواقع أن ما كان يمارسه الغرب في مواجهة أساطيل المسلمين وفي وجه هجرة الأندلسيين[1] ويسمى إنما بالقرصنة كذبا وتمويها ولكنه في الحقيقة يسمى باسم لصوصية البحرcourse أما القرصنة firaterie في مفهومها الصحيح فهي نوع من أنواع الحروب البحرية التي تقع بين الدول المتعادية والتي كانت الغاية منها ضرب اقتصاديات العدو بالإستيلاء على البضائع الصادرة منه والواردة إليه وأسر من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية وقد كانت الحكومات تسلم أوراقا رسمية للقراصنة تكسبهم بذلك صبغة مشروعة تميزهم عن لصوص البحر وتجعلهم شبه جنود ومتطوعين أحراراً يعملون فوق البحر ، كذلك فالمعروف أن القراصنة لا يعملون إلا مدة الحرب فحسب ولقد نشطت القرصنة الإسلامية بهذا المفهوم داخل القيود المشروعة وفي نطاق القرصنة العالمية في ناحيتين:

(الاولى) ناحية الشرق حيث كانت السلطنة العثمانية أيام عنفوان قوتها

(١) انتفعنا في هذا القسم بدراسة احد اعلام التاريخ الحديث ونقلناها مع التصرف.

تحارب كل الدول الأوروبية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط فالى جانب أسطولها الضخم الذي كان يدوخ البحر وتحتل الجزر والمواني وينقل الجنود والعتاد، أنشأ المجاهدون الأتراك أسطولا للقرصنة النظامية يحارب من حارب سلطانهم ويسالم من سالمه، وعظم شأن هذه القرصنة فأصابت تجارة وأرزاق الدول المعادية في الصميم. واشتهر من قراصنتها أبطال عمالقة لعبوا في التاريخ الإسلامي أدواراً سجلت أسماءهم في سجل الخالدين أمثال عروج وشقيقة خير الدين وأمثال قالش على وطورغود، وسنان وإضرابهم.

(الثاني) في بلاد المغرب الإسلامي حيث نشأت القرصنة الإسلامية أول ما نشأت ببلاد الأندلس وكانت مدينة (المرية) مركزها الأكبر، فكانت بأعمالها الواسعة في البحر المتوسط وفي المحيط وفي مضيق جبل طارق تشارك في ذلك الصراع الإسلامي المسيحي الرهيب وتتصدى لسفن الاسبان وحلفائهم.

وذلك بينما كان الاسبان والبرتغال قراصنة في ذلك الحين من أولى القوة والبأس يعترضون في كل البحار سير السفن الإسلامية وخاصة على سواحل المغرب الإسلامي وإزدادت هذه القرصنة على السواحل المغربية جرأة وعدوانا عندما حم القضاء بمسلمي الأندلس وأخذت بقاياهم وفلولهم تخترق البحر، فارة بدينها وشرفها وبقايا متاعها وأموالها إلى سواحل الشمال الأفريقي فكانت سفن القراصنة الاسبانية والبرتغالية تستحوذ على السفن الإسلامية وتعبي من فيها من رجال نساء وتأخذ ما معهم من متاع، «ولقد اشتد عضد المسلمين في المغرب بمن جاءهم من مهاجري الأندلس الثغريين العارفين بالملاحة وفنونها الماهرين في صناعة السفن فاخذت المدن الساحلية تنشىء سفن القراصنة دفاعا وتقابل العدوان بالمثل وصارت سفن المسلمين تخرج من سلا، ووهران وشرشال والجزائر ودلس وبجاية وجيجل، تخرج جريئة إلى سواحل اسبانيا تقاتل فيها العدوان بمثله فتخرب معالم العدو وتأخذ ما استطاعت أخذه من خيراته وأرزاقه، وتسبي ما استطاعت سبيه من رجاله ونسائه وتمدّ يد الاعانة والمساعدة للمنكوبين البائسين من رجال الأندلس، وكان لمدينة وهران في مستهل القرن ١٦ (١٢ سفينة) قرصان بلغ من قوتها وجرأتها أنها هاجمت سواحل التي واليكانتي وأخذت منها الغنائم والأسلاب ثم سارت ست منها إلى مرسى مدينة

مالقة الإسبانية فاقتحمتها وأحرقت داخلها كل السفن المعادية التي كانت بها .

يقول الاستاذ ف . ا . بروديل : إن القرصنة لم تكن في غرب البحر المتوسط بالشيء الجديد فمنذ قرون عديدة كان المسلمون وكان المسيحيون يقومون بأعمال القرصنة في البحر ولا يحق لنا أن نغالط التاريخ فان القراصنة المسيحيين كان عددهم كبير جدا خلال القرنين ١٥ ، ١٦ بهذا البحر المتوسط ثم خفت وطأة القرصنة المسيحية بعد ذلك ، لكن القرصنة الإسلامية زادت ضراوة في الشمال الأفريقي بعد إبعاد مسلمي اسبانيا واضطرارهم إلى الإلتجاء لهذا الشمال .

(٦)

ولا ريب أن القرصنة قد انطلقت من أوربا [١] من اسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وبريطانيا والدانمارك والسويد وبلجيكا وغيرها من الدول الأوربية ، أما الدفاع فبدأ من المغرب الإسلامي ، إبتداء من ١٥١٠ بتدخل عروج وأخيه خير الدين بعد أن كانت القرصنة الاوروبية المقرونة بالصليبية شائعة ذائعة سائدة في البحر المتوسط ، هذه القرصنة بدأت في اوروبا بالهجوم وكانت احتلالا صليبيا ، وكانت أيضا قرصنة بقصد الأغراض الدنيوية ، بقصد الكسب والسلب والنهب ، ولم تكن من المغرب الإسلامي إلا دفاعا عن النفس ، وقد أنقذت هذه الحركة الجزائرية كثيرا من الأندلسيين من اسبانيا ، واذ ذاك فقط قويت البحرية الجزائرية إبتداء من عام ١٥٣٠ ووصلت سفنها إلى سواحل ايرلندا وانجلترا والدانمارك وفي القرنين ١٧ ، ١٨ اصبحت قوية فعلا وقلبت الموازين وسادت البحار طوال القرون التالية حتى عام ١٨٢٧ كانت البحرية الجزائرية مجرد دفاع عن الشواطىء والسيادة ضد حركة صليبية جديدة خطط لها على مستوى عالمي ، وبدأ تنفيذها (فرديناندو الكاثوليكي) على سواحل المغرب والجزائر ونائب ملك صقلية على سواحل تونس وطرابلس . وكانت القرصنة الصليبية الأوربية تمتد وتبسط نفوذها وتنطلق بعيدا ، وفعلا ذهبت بعيدا إلى الفيلبين واذ امتدت أسبانيا حتى الفيلبين امتدت هولندا إلى

---

(١) مولود قاسم : كتاب انية واصالة .

أندونيسيا فلما جاءوا إلى الجزائر هزموا شارل الخامس شر هزيمة، وقاومت حملات أوربية أخرى عديدة وخاصة فرنسية إبتداء من عهد هنري الرابع قامت بها البحرية الاوربية ولكنهم نكصوا كلهم على أعقابهم مدحورين أمام شواطئنا تاركين وراءهم أسلحة وعتاداً وأسرى في المعارك التي لا تكاد تحصى كما مني الاسبان والبرتغال في المغرب بهزيمة شنيعة في معركة وادي المخازن المعروفة.

(٧)

لا ريب أن قيام الإمبراطورية العظمى في التاريخ الأوربي ١٥٢٠م وهي إمبراطورية شارل الخامس أو شارلكان كانت أكبر من حمل أحقاد الصليبيين الغربية على المسلمين، وكان شارل قد جمع بين يديه اسبانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا وصقلية وطليطلة وسردينيا ونابولي وجزءاً من ألمانيا وأغلب البلاد الأمريكية المعروفة، وأصبحت هذه الإمبراطورية تقف أمام الإمبراطورية العثمانية ودولة الجزائر، وقد لقيت الاندحار فوق أرض الجزائر وأنهار الامبراطور مكسيمليان تحت ضربات الأتراك العثمانيين الذين تحالف معهم ملك فرنسا فرنسوا الأول. ومما وقع فيه شارلكان: احتلال عاصمة ألبانيا ١٥٢٥ وانتهاك حرماتها بواسطة جنوده من ألمان وإسبان واحتلال تونس ونهبها وانتهاك حرمة سكانها ١٥٣٥.

الباب الثاني

أوربا والغرب: بين المسيحية والاستعمار

اولا : أوربا المسيحية.
ثانياً : تمزق الوحدة الأوربية.
ثالثاً : الفكر الغربي المسيحي.
رابعاً : أثر الإسلام في الغرب.
خامساً : الإستعمار.

الفصل الأول

اوربا المسيحية

عبرت المسيحية: دين الله المنزل بالحق على عيسى بن مريم إلى اوربا الرومانية الوثنية التي كانت تعيش سنوات انحلال الامبراطورية العتيدة، وكان ذلك على يد «**بولس**» الذي ظهر في السنة الثامنة بعد المسيح، وكان من أكبر أحبار اليهود المعروفين بالعلم والذكاء، وكان في أول أمره من أعداء المسيح وأشد المنكرين على تعاليمه مع انه لم يجتمع به قط، ثم عاد فادعى ان المسيح هبط عليه وعلمه الحقائق وأمره بإعلانها فظهر للناس في طوره الجديد.

ولد في طرطوس بآسيا الصغرى، اسمه الأصلي (شاءول) روماني الجنسيةدرس في القدس كلف من رئيس الكنيس اليهودي بالذهاب إلى دمشق لمقاومة المسيحية قال: أنه في طريقه رأى نوراً ساطعاً يدعوه إلى الإيمان بالمسيح وقد ادعى أنه تلقى المسيحية من المسيح نفسه لا عن طريق الحواريين. وقد ثار عليه اليهود بعد إندماجه في المسيحية وقبض عليه في أورشليم فسجن عدة سنين قبل أن يرسل إلى روما ومن هنا أدخل المسيحية إلى عالم الغرب وهو في نظر كثير من المؤرخين الغربيين: المؤسس الحقيقي للمسيحية الحالية فقد وضع قواعد جديدة اختلفت بها عن الرسالة المنزلة وأمامنا وثيقتين أحدهما للعالم الغربي (بيري) والأخرى للفيلسوف (ويلز) يقول بيري:[جاء شاءول وهو يهودي روماني من الفريسيين أحد طبقات اليهود العليا لم ير عيسى ولا سمعه يبشر الناس، وقد لعب شاءول هذا دوراً كبيراً أنقذ به المسيحية بعد أن أوشكت أن تدخل عالم النسيان الذي ضم كثيرا من امثال هذه الحركات. وكان شاءول في عهده أكبر أعداء المسيحية أنزل بأهلها ألواناً من الاضطهاد والقتل والتعذيب ولكنه فجأة تحول الى المسيحية واستخدم تجاربه ومكانته لينفع المسيحية وينتفع بها. وكان عيسى يهوديا وقد ظل كذلك ابداً ولكن شاءول كون المسيحية على حساب

عيسى، فشاءول الذي سمى فيا بعد بولس - هو في الحقيقة مؤسس المسيحية وهو يمتاز بأنه صاحب دراية في السياسة والابتكار، أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود، أدخل صوراً من فلسفة الإغريق ليجذب له اتباعاً من اليونان فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد استطاع الجنس البشري بواسطته أن ينال النجاة، وهذه الاصطلاحات التي قال بها بولس كانت شهيرة عند كثير من الفرق اليهودية فانحازوا إلى ديانة بولس، وعمد كذلك ليرضى المستضعفين اليونان فاستعار من فلاسفة اليونان فكرة إتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة (فيلـون) أو ابن الإله أو الروح القدس بدأ بولس ديانته في أنطاكية حيث نشأ لأول مرة التعبير الشهير المسيحية christianوبدأت تنتشر هذه الديانة في المدن حيث تكثر الحاجة والفقر. فبولس هو المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية وجعلها تتناسب مع فكرة «المسيح» من الناحية اللاهوتية والناحية الإنسانية وجعلها تتناسب مع فكرة الإنقاذ القديمة فقدم آداباً مستحدثة في طابع قديم مألوف، وبهذا فصل دعوة عيسى عن اليهودية. ولم ينفر بولس من الطقوس الوثنية بل على العكس اقتبس كثيرا من هذه الطقوس ليضمن نشر ديانته بين الوثنيين وليبعد ديانته عن أن تذوب في اليهودية ومنها أنه جعل عطلة الأسبوع يوم الأحد، وأهمل يوم السبت وهو اليوم المقدس عند اليهود كما غير أيام الأعياد.

وعيسى أصبح ابن الله حملت به أمه العذراء حملاً غير طبيعي واحتلت صورة العذراء والمسيح مكانا مقدساً احتلته قديماً صورتا حورس واوميريس ووضعتا في كل الكنائس. وعلى الرغم مما اخذت المسيحية من الوثنية لم تصبح المسيحية وثنية في روحها بل ظلت متمسكة بتحفظها الديني الذي ورثته عن اليهودية كما حافظت على إبتعادها عن الناحية الجسمانية الشهوانية.

اما الفيلسوف (هـ. جـ. ولز) فيقول: كان القديس بولس من اعظم من أنشأوا المسيحية «الحديثة»، وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس، وكان اسم بولس في الأصل شاءول وكان في بادىء الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد، ثم اعتنق المسيحية فجأة، وغير اسمه فجعله بولس، وقد أوتي ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة كما كان شديد الإهتمام

بحركات زمانه الدينية فتراه على علم عظيم باليهودية والمتراسية وديانة ذلك الزمان الذي تعتنقها الإسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيراً من فكرتهم ومصطلح تعبيرهم. ولم يهتم بتوسيع فكرة عيسى الأصلية وتنميتها وهي فكرة ملكوت السموات ولكنه علم الناس ان عيسى لم يكن المسيح الموعود فقط، بل أنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب[1] تكفيراً عن خطيئة البشر، فموته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة في أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشر، وقد استعارت المسيحية أشياء كثيرة من هذه الديانات كالقسيس الحليق وتقديم النذور والهياكل والشموع والتراتيل والتماثيل التي كانت لعقائد متراس والإسكندرية بل تبنت أيضا حتى عبارتها في عبادتها وأفكارها اللاهوتية، وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الذاهبة إلى أن شأن عيسى كشأن أوزيريس: كان رباً مات ليبعث حياً وليمنح الناس الخلود » .

من هاتين الوثيقتين التاريخيتين اللتين كتبها رجال مسيحيون من خيرة مفكري الغرب نرسم الصورة التي عبرت بها رسالة المسيح -التي جاءت ختاما لرسالات أنبياء بني اسرائيل- عبرت إلى الغرب، وكأنها ديانة مستقلة، وديانة دعوة، وقد تحررت تماما من أكثر صلاتها السماوية، وارتباطها التاريخي، وانصهرت في مجتمع مشكل مكون له حضارته وثقافته وقانونه ونظامه فكان من العسير عليها أن تجد مكانا إلا بعد مشقة شديدة. وقد وجدت في سنوات انتقالها الأولى معارضة شديدة، ولكنها لجوهرها الرباني إستطاعت أن تشق طريقها إلى النفس الإنسانية الغربية الوثنية التي كانت غارقة في الشهوات والآثام فوجدت المؤمنين بها الذين واجهوا بعد ذلك أشد أنواع الإضطهاد والتعذيب حتى اعترف (قسطنطين) بها كديانة للدولة عام ٣٢٣م وكان عهد دقلديانوس ٢٨٤م من أقسى عهود التعذيب والاضطهاد.

ولقد كانت فكرة بولس قائمة على استرضاء كل العناصر الوثنية المتدينة وغيرها حتى تنفذ المسيحية إلى المجتمع الذي كان ذلك الوقت يعيش حياة

(١) الاسلام لا يقر هذا المفهوم ويقرر ان عيسى رسول الله وليس الها ولا ابن اله وأنه لم يصلب كما لا يقر نظرية الخطيئة.

مريرة من العبودية القاسية، والتسلط الحاكم الشنيع، وحيث يسيطر الحكام ويتأملون، ويعيش المجتمع كله حياة الذل والحرمان، وعندما دخلت الدولة الرومانيـة في عهد قسطنطين المسيحية تحولت الصورة ثمة: «فقد حمل الناس على الدخول في المسيحية بالسيف فدخل الناس في الدين حاملين معهم عقائدهم الوثنية الموروثة التي عز عليهم أن يتحرروا منها لشدة إتصالهم بها فخلطوا بينها وبين دينهم الجديد فكان هذا أول ما طرأ على الديانة من الانحراف، ومن هنا فقد أصبح أتباع المسيحية فريقان: فريق الشرقيين الذين نزلت فيهم الديانة والذين يؤمنون بأن المسيح عليه السلام نبي مرسل من ربه، وفريق الغربيين الرومانيين الذين شكل فكرهم بولس، والذين يقولون بألوهية بالمسيح وقد وقع الصراع بين الفريقين وكان عنيفا فقد كان (أريوس) وأتباعه يعارضون المذهب الروماني ويعلنون موقفهم واضحا بالتفرقة بين الألوهية وبين النبوة وقد عقدت مجتمعات متعددة لمناقشة هذا الخلاف وحسمه وقد حسم أخيرا لحساب المذهب الروماني فلا ريب كان لدخول المسيحية إلى الغرب مصدراً من مصادر التغيير، ولكنها وقعت في براثن الفلسفة اليونانية فاحتدم الجدل بين الفلاسفة والنصارى وبين النصارى وأنفسهم، وكان الخلاف حول طبيعة المسيح، «ولم يكن للنصارى الأول من العلم ما يمكنهم، من مقاومة الفلسفة اليونانية فتغلب العنصر المسيحي اليوناني على العنصر المسيحي المركب من بسطاء اليهود فاختلطت وتغلبت مسائل الفلسفة اليونانية على تعاليم الديانة المسيحية.

وقد ظلت فكرة (أريوس) مسيطرة زمنا، القائلة ببشرية الميح، وأنه ليس بإلـه، وكان المذهب الأريوسي شرقياً وقد ظل مسيطراً، حتى عام ٣٦١ عندما ثار الاساقفة الغربيون ونادوا بمذهب ألوهية المسيح، وأصدر الملك تيودسيوس (الذي جاء بعد الملك قسطنطين) قرارا بأن يتبع النصارى كلهم مذهب البابا القائل بألوهية المسيح ومن يخالف ذلك يكون هرطقياً مرذولاً ومستوجباً لأشد العقوبات. وكان الأسقف أنفيلوك هو الذي أقنع الإمبراطور تيودسيوس بهذا الاتجاه ومن ثم استقرت فكرة ألوهية المسيح.

ويرى توينبي: إن المسيحيـة هي نتـاج لإمتزاج الحضارتـين اليهودية واليونانية. ويقول: إن المسيحية لم تستطع أن تصبح دولة خلال عمر المسيح أو

بولس لأنها نشأت داخل تخوم دولة عالمية موجودة، آنـذاك، هي الأمبراطورية الرومانية، واستغرق تمسيح هذه الأمبراطورية من الكنيسة الكاثوليكية مدة ثلاثمائة سنة.

ويقول العالم المسيحي (أرنست دي دينسين) في كتابه:

ISLAM OR TRUE CHRISTIANI

إن المسيحيـة انتقلت من ديانـة بسيطة توحيدية إلى ديانة-وثنية تتركب من الافكار البوذية واليونانية على يد بولس: وإن العقيدة والنظام الديني الذي جاء به الانجيل ليس هو الذي دعا اليه السيد المسيح بقوله وعمله، إن مرد النزاع بين المسيحيين اليوم وبين مفهوم الإسلام ليس الى المسيح بل إلى دهاء بولس: ذلك المارق اليهودي والمسيحي وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (Essenie) والتمثيل، وملئه الصحف بالتنبوات والأمثلة، إن بولس في تقليده لأسطفانوس راعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية، إنه واضع ذلك المزيج من الاحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم والتي تعرض المسيح بصورة لا تتفق مع التاريخ أصلا، ليس المسيح هو بولس، والذين جاءوا بعده من الأحبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس العقيدة المسيحية والأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرنا».

ويرد الكثير من الباحثين الغربيون: الفكرة الأساسية في المسيحية: «التثليث» إلى الفلسفة الأغريقية، ويقولون: إن اللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي كانت فيه الافلاطونية الحديثة، لذلك يوجد بينهما تشابهات كثيرة، ومن هنا فقد صار للمجتمع الغربي بعد المسيحية: اضطراب فكري شديد لتلك التداخلات بين الدين الحق المنزل وبين الفلسفات، وفي هذا يقول لورد ماكولي: «لم يسلم تابعوا المسيح من النصارى» أن يصيبهم في إيمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم، فتمثل الإله لهم في صورة أدمي مشى بينهم وشاركهم في أغراضهم وما يعتريهم من الإنحلال والاضمحلال. كماكان يبكي على القبور ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب فظهروا بذلك

للعـــالم في لبـــاس جديــد من الوثنيـــة ثم كـــان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الالهة على مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريخ عند اليونان وكذلك اتخذوا العذراء وسيسليا وغيرهما آلهة للجمال وفنون الأدب كما كانت الزهرة وسبع كواكب اخرى إلهات لدى اليونان » وبعد فهل استطاعت المسيحية على هذا النحو المغاير أن تعطي المجتمع الغربي كلمة السماء : الحق أن المسيحية حين وصلت إلى أوربا ، وصلت إليها نظاما روحيا وإرشادا خلقيا فقد كانت روما تقوم على القانون الروماني المسيطر على الحياة والمجتمع ، ومن هنا فهي لم تستطع أن تتجاوز دائرة العقيدة ، كذلك فإن المسيحية حين اعتنقت مفهوم الرهبانية عارضت العمل الدنيوي معارضة شديدة وجعلت الحياة الإنسانية قاصرة على العمل للآخرة ، وفي كلا الأمرين عجزت الدعوة الوثنية التي عبرت إلى الغرب أن تعطي مفهوما حقيقيا لرسالة السماء .

(٢)

الامبراطورية الرومانية

استولى القوط الغربيون على روما عام ٤١٠ ثم أعقبهم الوندال ثم الهيروليون الذي قوضوا أركان الأمبراطورية الرومانية بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند عندما بلغت اقصى اتساعها في عهد الأمبراطور ترجان-١١٧م وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسي غربا حتى الفرات شرقاً فشملت في الغرب بلاد بريطانيا وغاليا وأيبريا وإيطاليا بالإضافة الى شمال أفريقيا من المحيط الأطلسي حتى طرابلس، وشمل الجزء الشرقي من الامبراطورية: البلقان من آسيا الصغرى وأعالي بلاد النهرين فضلاً عن الشام ومصر وبرقة وقد امتد نفوذها السياسي إلى ما وراء حدودها التي تسيطر عليها واستوعبته شعوباً ذات حضارة قديمة كالمصريين واليونان.

ويرد المؤرخون قيام الإمبراطورية الرومانية إلى عام ١٤٦ قبل الميلاد ومنذ العام ٣١ قبل الميلاد أصبحت الدولة الرومانية امبراطورية.

ومن أهم أحداث التاريخ أن المسيحية ظهرت في عصر الامبراطورية الرومانية وكانت منطقة الشام وفلسطين التي ظهر فيها السيد المسيح تحت سيطرة الرومان وقد تعقب الأباطرة الرومان المسيحية بالمقاومة والاضطهاد الشديدين منذ البداية إذ كانت المسيحية منافسا خطيراً للوثنية التي كانت تدين بعبادة الأمبراطور، وتعد فترة دقليانوس أشد ما واجه الكنيسة المسيحية، فقد قدم كثير من الشهداء أرواحهم فداء لرسالة السماء ولكن المسيحية عادت فانتصرت عام ٣٢٥.

وفي عهد قسطنطين الأكبر ٣١٣م الذي اعترف بالديانة المسيحية كإحدى ديانات الدولة المتعددة في ذلك الوقت ولم تلبث المسيحية أن انقسمت إلى أرنوسيين واثناسيوسيين، وقد اعترف قسطنطين بالمسيحية بمذهبيها مع عبادة الامبراطور، التي كانت تعتبر مصدراً أساسيا لقوة الأباطرة ونفوذهم وقد أقام

قسطنطين قوته السياسية على دعائم رئيسية هي: [العبادة الامبراطورية+ العقيدة الأريوسية+ العقيدة الاثناسيوسية] وقد احتفظ بالعبادة الوثنية القديمة وبرجالها ومعابدها وطقوسها كما احتفظ كأسلافه الأباطرة بلقب الكاهن الأعظم.

ويقول المؤرخون: «لقد التقى قيصر والمسيح في المجتلد فانتصر المسيح على قيصر » ولا ريب أن المسيحية قد كسرت حدة الوثنية واليهودية التلمودية ومهدت للتوحيد الخالص خلال ستة قرون كاملة وقد اتخذ قسطنطين: القسطنطينية عاصمة له عام ٣٣٠ وكان من أثر ذلك أنه عندما اجتاح الغزاة أوربا سقطت دولة روما عام ٤٧٦ وبقيت الدولة الرومانية الشرقية في القسطنطينية حامية للمسيحية حتى اقتحمها محمد الفاتح عام ١٤٥٣ حيث سقطت القسطنطينية نهائيا في أيدي المسلمين وبعد سقوط الدولة الرومانية في أوربا قامت بدلا منها دولة الكنيسة وظهر سلطان البابا سياسياً ودينياً وأصبح له نفوذه الواسع على ملوك أوربا وأخذت أوربا تتجمع في وحدة فكرية مسيحية تحت لواء الكنيسة، وفي نفس الوقت ظهرت الرهبانية واكتسحت المجتمع الغربي كله وبالمسيحية انتقل الغرب من مرحلة أخرى في الفكر والعقيدة والثقافة. كانت الفلسفة الرومانية قائمة على عبادة القيصر، وإطلاق اللذات والشهوات، واستعلاء السادة وعبودية العبيد، فلما جاءت المسيحية هدمت هذه الأسس الثلاث وسارعت بإسقاط المجتمع الروماني جملة فإن الاعتراف بالمسيحية عام ٣٢٥ وسقوط روما عام ٤٧٦ ما لا يزيد عن قرن ونصف قرن تحول فيها المجتمع الغربي تحولاً خطيراً وانتهى ذلك الإطار اليوناني الروماني الذي قام على الإلحاد والإباحية والعبودية ودخلت أوروبا حثيثاً في مفهوم جديد قوامه عبادة الله وتحريم الإنسان والدعوة إلى الأخلاق غير أن هذه العوامل الثلاثة لم تستكمل وجودها فقد شاب الدعوة الله إنحراف التفسير الذي قدمه بولس، وشاب الدعوة إلى تحرير الإنسان روح النسك والرهبانية التي نقلت المجتمع الغربي من التحلل الخطير إلى العزلة التامة.

يقول روبرت بالمر في كتابه تاريخ العالم الحديث: لقد انتشرت المسيحية في البداية بين الفقراء، المحرومين من بهاء الحياة الإغريقية وزهو الحياة الرومانية

أو من المستعبدين الذين لم يكن لهم الا أن يرجوا المسرة على الأقل في العالم الباقي، ثم اخذت تنتشر شيئاً فشيئاً بين أفراد الطبقات الأخرى، ولم يحل القرن الخامس حتى أصبح جميع العالم الروماني يدين بالمسيحية رسميا، ودخل في المسيحية المنكرون والرجال الذين أخذوا على عاتقهم توحيد المعتقدات المسيحية مع الفكر الإغريقي الروماني التقليدي وفلسفته التي مر عليها ألف عام وأهمية المسيحية في دخولها أوروبا، أنها جلبت مفهوماً جديداً للحياة البشرية فإذا قاد الإغريق الإنسان إلى عقله فإن المسيحية دلته على روحه وعلمته أن الأرواح متساوية في نظر الله وأن كل نفس بشرية مقدسة وطاهرة وإذ عرف الإغريق جمال الجسد، وعرفت المسيحية جمال الروح، استبدل المسيحيون القناعة الذاتية بثمرات الأعمال البشرية التي كان يؤمن بها الأغريق والوثنيون بأن أخذوا يعلمون الناس الخشوع والتواصل لله ويشير روبرت بالمر إلى أن المسيحية أحدثت بذلك ثورة، إذ إليها يرجع الفضل - لا إلى الفلسفة الفعلية - في تبديد الكثرة من الآلهة والالهات الصغرى والعظمى وأبطال ضحايا الدماء وعملية التضحية بالنفس، واختفت بفضل المسيحية عقائد الوثنيين في آلهتهم المحلية أو القبلية أو القومية، وأصبح على جميع العالم أن يعتقد بآله واحد للخلاص من الآثام بعناية إلهية واحدة تتجه إليها القلوب وكان من شأن المسيحية أيضاً: أن كشفت أن الامبراطور في الدولة الرومانية ليس كما كانوا يصورونه أعلى من كل مخلوق على وجه الأرض.

ويقول: لم يكن في نظر الوثنيين فارق واضح بين الآلهة والناس فبعض الآلهة يتصرفون كالناس وبعض الناس أكثر شبهاً بالآلهة من غيرهم، فالامبراطور كان يعد في الحقيقة إلهاً، «الآله قيصر» وقد اقيمت العبادة للقيصر على أنه ضرورة لإدامة الدولة التي كانت هي العالم نفسه، وقد رفض المسيحيون ذلك بشدة وامتنعوا عن قبوله، وقد عرض القديس أوغسطين: العقيدة بصورة منظمة وواضحة في كتابه مدينة الله (٤٢٠) على ضوء قول المسيح: أعط ما لقيصر ومالله لله، كان العالم عالم القيصر» في عهد القديس أوغسطين قد أشرف كتابه فقد نهب البرابرة الوثنيون روما نفسها ٤١٠م وقد كتب أوغسطين كتابه في ظل هذه الحادثة ليطلع الناس بأنه وإن كان العالم قد تلاشى فإن هناك عالما

آخر أكثر خلوداً واهمية، وقال انه يوجد في الحقيقة مدينتان: المدينة الأرضية والمدينة السماوية فمدينة الإنسان زائلة ومدينة الله هي الخالدة، والمدينة الارضية هي ملك الدولة والامبراطور، وملك السلطات السياسية والخاضعين للسياسة، وقال: إن الامبراطور إنسان والحكومة ليست أزلية ومطلقة التصرف، وهي خاضعة في الواقع بطريقة ما إلى قوة روحية عليا وأن هذه القوة تقع في مدينة الله » ولا ريب أن هذا التحول في مفهوم المسيحية قد اتسع في القرون التالية وأحدث تأثيراً بعيد الأثر خرج بالدين الإلهي عن وضعه الصحيح، وخاصة في مفاهيمه التي تتصل بالصلب والخطيئة والتثليث: وما أشار إليه روبرت بالمر: من قوله: (إن الله نفسه قاسى الآلام بهيئته الإنسانية على الصليب) تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً.

ولا ريب كان لهذه المفاهيم أثرها في ذلك التحول الخطير الذي عرفته اوربا في عصر النهضة خروجا من الفكر اللاهوتي كلية وعودة إلى الفكر الوثني اليوناني والروماني وتجديده. واعتباره أساسا للنهضة وللحضارة الغربية القائمة ويرى أدوار جيبيون أن المسيحية هي أبرز عوامل سقوط الامبراطورية الرومانية لأنها جاءت بتعاليم جديدة لاتتفق مع القيم التي ورثتها روما عن الوثنية اليونانية والعصور القديمة كلها. وأن الاتجاه الذي قدمته المسيحية أدى الى اضعاف الروح الحربية وامتد تأثيره إلى جميع مرافق الامبراطورية مما مكن الجرمان من هجمتهم التي زلزلوا بها أركان الامبراطورية.

(٣)

الكنيسة

تؤلف الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من العقيدة المسيحية. ولم يكن معنى كلمة الكنيسة CHURCH مقتصرا على دور العبادة المسيحية فقط بل تفيد الكنيسة أيضا المجتمع المسيحي بأسره بعلاقاته المادية والمعنوية إذ يرتبط أعضاء ذلك المجتمع بالسيد المسيح رأس الكنيسة الأوحد عن طريق الإيمان ولما كان الدين المسيحي يرتكز بصورة عامة على ما جاء في العهد القديم والجديد[١] وعلى ما تناقلته الألسنة مما لا يكتب وتدور العقيدة فيه حول الخطيئة الأولى (riginalsu) خطيئة آدم حينا عصى ربه فعوقب بالسقوط الى الأرض وتعرض لغضب الله فعوقب بالأمراض والموت ثم شمل الغضب)مفهوم هذه النظرية(ذرية الإنسان، وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة في نسله وإن مهمة كافة الأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل المسيح قبل المسيح كانت الإعداد لإنقاذ البشرية من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح، لما كانت الديانة تقوم على هذه النظرية فإن الكنيسة هي الركن الركين في عملية الإنقاذ وهي تعتمد في هذه العملية على رموز دينية يشار اليها بالأسرار السبعة saeraments لأنها صلات الوصل الخفية إلى توطد الرابطة الروحية بين المسيح وأتباعه. وعن طريق ممارسة تلك الأسرار تحتضن الكنيسة الفرد المسيحي من المهد إلى اللحد وجعلت هذه الأسرار سبعا حددها المسيح نفسه ولأن حياة الإنسان الجسدية والروحية كحياته الجديدة تتطلب هذا العدد، ومن أبرز المتطلبات الروحية (التعميد) (peptism) هو السر الذي قصد به إزالة الخطيئة الأولى ومنح الولادة الروحية الثانية ويتم ذلك عن طريق الماء عادة بالرش أو الغسل أو التعطيش. وكان هذا من أهم أعمال الكنيسة وكذلك فيما يتعلق بالتوبةالتي تمارس بالاعتراف أمام الكاهن وقد اتبعت

---

(١) اعتمدنا في هذا على جلة ابحاث منها كتاب العصور الوسطى الاوربية (د. عبد القادر احمد اليوسف)

الكنيسة في تقسيماتها الإدارية الأنظمة التي ورثتها عن اليونان وقد صور المؤرخون الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط بأنها أشبه بحكومة ملكية يقف البابا على قمتها وهو السيد المطلق في الشؤون الروحية وهو المشرع الأعلى، وليس هناك من مجلس مها سمت منزلته له حق أن يشرع قوانين ضد إرادته وأن كل تشريع يعتمد على موافقته، ويمكن للبابا إلغاء أي قانون مها كان قديما لم يشر له في الإنجيل. ويساعد البابا مجلس من الكرادلة ويتم الإشراف البابوي من روما على سائر الجهاز الإداري في العالم المسيحي بعدة أساليب. وللكنيسة مجموعة شرائع قانونية استندت على مقررات المجالس الدينية العالمية منذ مؤتمر نيقيا ٣٢٥م وما بعده وعلى قرارات البابوات ويمكن للبابا أن يصدر عقوبة التحريم ضد مدن وأقطار بأكملها وقد بلغت الكنيسة الغربية درجة كبيرة من القوة في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر وتوضحت في سياسة البابا أنوسنت الثالث وظهور فرقتي الفرنسيسكان والدومنيكان ونشاط الأديرة النسائية ومحاكم التفتيش. وفي عهد أنوسنت الثالث(١١٩٨-١٢١٦) بلغ نفوذ الكنيسة أعلى مرتبة فقد تمكن من فرض سطوته على عدة ملوك في أوربا وأصبحت ممالكتهم تابعة بالمعنى الاقطاعي للبابوية (انجلترا- البرتغال- الأراكون) وقد أشير إلى أن البابا وريث صلاحيات كل من القديس بطرس وقسطنطين الأكبر وأعلن أن السلطة السياسية، وقد كانت البابوية من الناحية الرسمية هي التي تنطق بلسان الدين المسيحي وكان رجال الدين في الغرب يمثلون نسبة عددية ضخمة بالقياس إلى السكان في تلك العصور وكانت للكنائس والأديرة أملاك واسعة وكان عدد من الاساقفة ينحدرون من أسر النبلاء فكانوا يديرون أملاك الكنائس على النمط الذي يدير به أمراء الإقطاع إقطاعتهم، كان لكل أسقف ولكل صاحب كنيسة جامعة فرسانه وأتباعه الذين يقدمون ولاءهم له ويتسلمون منه قطائعهم، وكان للكنيسة طموحها السياسي الواسع وأثرها القوي في الحياة العامة.

ومن أكبر أعمال الكنيسة : تلك الحرب التي أثارتها على المسلمين في أسبانيا وفي المشرق.

ويعد البابا جريجوار السابع والبابا أوربان الثاني هما أبرز رجال هذه

القضية وللبابا جريجوار السابع دوره الخطير في تحول القتال بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا إلى حرب صليبية شاملة شاركت فيها اوربا على اختلاف اقطارها وكان لها آثارها البعيدة في حياة اسبانيا الإسلامية.

ففي عهد سلفه البابا اسكندر الثاني ١٠٦٣ اندفعت موجة من فرسان الشمال وخاصة النورمان إلى اسبانيا وانتزعوا حصن (برشتر) من أيدي المسلمين بعد مذبحة هائلة، أما جريجوار فقد تجاوز التعضيد إلى الدعوة الصريحة يوجهها البابا بنفسه الى امراء المسيحية يحضهم على المشاركة في هذه الحرب المقدسة ويعلن مقدما سيادتهم على الأراضي التي ينتزعونها من المسلمين ومن ثمرة ذلك سقوط (طليطلة) في ٦ مايو ١٠٨٥ بعد حصار دام سنين، الحدث الذي استقدم بسببه المرابطون من المغرب العربي ووقوع معركة الزلاقة المشهورة. أما البابا أوربان فقد كان له دوره الهام في انتقال الحروب الصليبية إلى شواطىء البحر المتوسط وتحريض تلك الجماعات بادعاء غير صحيح على اقتحام عالم الإسلام باسم استنقاذ بيت المقدس ثم كانت الكنيسة بعد ذلك هي التي تضع علامة الصليب على صدور جنود الغزو الاسباني والبرتغالي وتعطي هذه المجاميع الضخمة مبررات الغزو الأرضي الإسلام باسم التبشير، وخاصة ما بعثت من شراذم إلى أفريقيا وجنوب شرق آسيا على نحو ربط بين التبشير والكنيسة من ناحية الاحتلال والاستعمار الغربي كله. وبذلك صك تاريخها بأنها اختارت لنفسها خدمة الطبقات والقوى الحاكمة في عصر الاقطاع وخدمة الاستعمار في عصر الرأسمالية.

ويصور نفوذ الكنيسة في هذه المرحلة الكاتب الغربي (ج. كويب. أجاكوب) فيقول: لقد أمتد نفوذ الكنيسة في العصور الوسطى إلى ما هو أعمق من الهيمنة على المجتمع، مع التسليم بأن رجال الدين فرضوا لأنفسهم حقوقا في ولاء أهل كنيستهم، وهي حقوق لا أصل لها في الروابط الطبيعية بين رجال الدين وأهل كنائسهم، لا صلة لها بالجدارة الشخصية المفروضة من رجال الدين، وقامت هذه الحقوق على الاعتقاد الديني بأن مملكة المسيح ليست في هذا العالم، لقد سلم أهل القرون الوسطى للكنيسة ولرجال الدين بواسطة الاعتراف والكفارة، والتناول الكلي في العشاء الرباني، ثم عيّر رجال الدين دائماً بالنفاق والإرشاد والفجور

وأنه ما تأخذه على كنيسة العصور الوسطى مما نسميه مساوىء أو خرافات هي في الواقع جزء من الثمن الذي دفعته الكنيسة لوصولها إلى مرتبة العالمية.

ولقد أقبل الفرد برغم فطرته الوثنية على المسيحية ودان لها بالتبعية ولم تلبث الكنيسة أن صبغت حياته كلها صبغة تامة، إذ أحس الناس أن الكنيسة هي التي تفسر لهم طريق الحياة لأن سر الكنيسة لم يكن جزءا من الحياة فحسب، بل هو معنى للحياة، ولقد حاولت الكنيسة أن تسيطر على الدنيا ولم تكف أبداً عن التأثير فيها ولكنها لم تستطع أن تجعل الدنيا والكنيسة مملكة واحدة هي مملكة الله .

وقد نادت الكنيسة بأن المسيحية هي تفسير العالم وأنها الحركة الحية للمشيئة الإلهية، هذه هي الصورة كما يرسمها أصحاب الولاء، أما أصحاب الخلاف فإنهم يرسمون صورة أشد قتامة، وبالجملة فان الكنيسة غاصت في السياسة والمطامع الدنيوية وقل اهتمامها بالدين، وفي عصور الغرب المظلمة بسطت نفوذها، على الملوك، وكانت هناك جماعتان منفصلتان: رهبان الأديرة المنصرفين إلى الصلوات والمعتزلين الحياة والقسس الذين كانوا يشتغلون بالسياسة ، ولقد كان من الطبيعي أن تواجه الكنيسة رياح التغيير فتنقسم على نفسها وتعيد النظر في كثير من مفاهيمها ويصل الصراع الدموي بين البروتستانية والكاثوليكية إلى أشده.

الفصل الثاني

تمزق الوحدة الاوربية

دخل الغرب الأوربي مرحلة جديدة بوصول الإسلام إلى الأندلس وكان لمعركة بلاط الشهداء أثرها في صد التوسع الإسلامي من السير إلى غايته ولكن الوجود الإسلامي لم يتقلص من أوربا بل تمكن في مواضع كثيرة في فرنسا وإيطاليا، ومن الأندلس امتد الفكر الإسلامي إلى عالم الغرب وكانت حركة لوثر ومن بعده حركة كالفن من ثمار التأثير الإسلامي، بدأت هذه الحركة عام ١٥١٧ حيث احدثت تغييراً جزئياً في مفهوم المسيحية وإن ظلت الأصول العامة التي قدمها بولس قائمة لم تغيرها الحركة البروتستانتية، أنكر لوثر حق البابا في بيع صكوك الغفران بل وانكر عليه حق منح الغفران بأي وجه من الوجوه وحطم احتكار الكنيسة لقراءة الانجيل وتفسيره فترجمه إلى اللغة الألمانية وخول لكل مسيحي حق مطالعة الإنجيل ومن هنا تطلق الكنائس البروتستانية فكرة العشاء الرباني وعبادة الصور والتماثيل وأنكرت على الكنيسة غفران الذنوب وكان قد سبق لوثر كثير من المصلحين أمثال: «وكليف» في انجلترا و «هوس» في بوهيميا، فلما ظهر «لوثر» في القرن السادس عشر جمع كل ما قيل قبله من مسائل الإصلاح الديني وقام بالدعوة إليه وجاهر بالعداء للكنيسة فتبعه خلق كثير وانتشر مذهبه في كل جهة من ألمانيا ومن ثم وقع الخلاف والحرب بين الكاثوليك والبروتستانت وقد منحت البروتستانية القسس حق الزواج ولم يعد هناك رهبانية واستبدلت جميع الكنائس البروتستانية اللغة اللاتينية باللغات المحلية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية. ودعت البروتستانية إلى التخلي عن الاعتراف الإجباري وما يتبعه من غفران يتحقق على يد الاكليروس لذنوب المعترف وخطاياه، وكذلك التخلي عن فكرة الاعتراف وعن عبادة القديسين وعبادة مريم العذراء وأعلن البروتستانت أنهم لم يعودوا يطلبوا وساطتها من

السماء، وأعلنوا أن المصدر الوحيد الحقيقي للعقيدة المسيحية هو الكتاب المقدس كما أنكروا استحالة مادة القربان إلى فم المسيح ودمه وأعلن لوثر أن كل شخص باستطاعته أن يقرأ الإنجيل وهو حر في تفسيره حسب فهمه له وإدراكه إياه، ورجا أن يبحثوا عن الحقيقة المسيحية في الإنجيل نفسه، ورفض القول بأن طبقة الاكليروس تمتاز عن العامة وانب الكرادلة على حياة البذخ والرفاه التي يحبونها كما دعا إلى إنهاء الرهبنة ودعا إلى عدم إنشاء أديرة جديدة وإلغاء الحج إلى روما. وقد كان لظهور مذهب لوثر أثره في الكنيسة الكاثوليكية التي أجرت كثيراً في محاولات الإصلاح وقد شقت حركة لوثر «البروتستانية» طريقاً وعراً من المصاعب والأخطار والدسائس وعقدت عديداً من المناقشات السياسية بين حكام المقاطعات وسرعان ما اكتسحت جميع ألمانيا وانتشرت في إنجلترا وامتدت إلى الدانمرك والسويد وفي سويسرا ظهر كلفن ١٥٢٦ واتخذ من البروتستانية مذهباً رسميا لجنيف وانعقدت الكفتية مع اللوثرية من حيث الاعتماد على الكتاب المقدس وحده في جميع المسائل الدينية وفي خلال عشرين سنة كان نصف العالم المسيحي في أوربا الغربية قد خرج على كنيسة روما ونبذ ولاءه للبابا وقد كانت البابوية هي صرح المسيحية الشامخ في أوربا وهو القوة الوحيدة في غرب اوربا التي استطاعت حماية التراث الروماني بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، وهي القوة التي اثارت الحروب الصليبية وحرضت أوربا على تلك الموجات المتلاحقة نحو عالم الاسلام منذ القرن الحادي عشر وعلى مدى قرنين كاملين، أصبحت في القرن السادس عشر تزكى روح الانقضاض الصليبي بين شعوب غرب أوربا إزاء الوجود العثماني في البلقان وقد كان من جراء ظهور البروتستانية اندلاع الحروب الدينية في أوربا، في الصراع بينها وبين الكاثوليكية، وقد استمرت هذه الحروب من أواسط القرن السادس عشر إلى العقد الثالث من القرن السابع عشر وقد أصبحت البروتستانية عام ١٥٣٥ حركة منظمة ذات عقيدة وبرنامج واضحين وقد أمكن للوثر بعد أن أطلع على ما كتبه عن نبي الإسلام محمد وما قرأه من كتابات ابن رشد وابن سينا والفارابي أن يقول عن المسلمين « إن نشاطهم الديني مثل يحتذى وكذلك حكومتهم الرشيدة وقوانينهم وصدق أخلاقهم وهم يتركون الناس يعتنقون الدين الذي يميلون

إليه » ويشير المؤرخون إلى أن مظالم الكنيسة وتعاونها مع الأمراء والإقطاع هو الذي مكن لمارتن لوثر في دعوته فقد إنعقد أمل الناس عن طريقها في التحرر من نير المظالم التي فرضتها الكنيسة ولذلك سرعان ما التف الناس حول لوثر وكالفن.

غير أن الكنيسة الكاثوليكية لم تلبث أن شنت حربا شديدة على معتنقي البروتستانية: «[1] وأشعلت الحروب الدينية هادرة كاسحة جارفة ومضت بأصحابها في ضراوة بالغة وفي لدد من الخصومة واستطالت هذه الحرب أحقابا متعاقبة ونشرت الخراب والدمار في كثير من الأقاليم الأوربية وأصبح الجو العام في أوربا (من نهاية القرن ١٥ إلى منتصف القرن ١٧) وعلى وجه التحديد عام ١٦٨٤: هو الجو الديني المحموم التزمت شعاره المغالات في التعصب الديني والمذهبي ووسائله المشروعة وغير المشروعة ومضت الحروب الدينية تخضب أرض أوربا بالدماء وأفراح الموت تقام علنا في الميادين حيث يحرق أحياء المتهمون بمخالفة المذهب الديني الرسمي للدولة تنفيذاً لأحكام صارمة عن محاكم التفتيش، والقوائم تنشر على الملاء متضمنة أسماء الكتب وسائر المطبوعات المحظور تداولها أو قراءتها، أو إقتناءها والهيئات الدينية القديمة يعاد تنظيمها ومنظمات دينية جديدة تؤسس ومجمع ترانت المسكوني يعقد وتطول اجتماعاته على مدى ثمانية عشر عاما (١٥٤٥-١٥٦٣) واخلاف دينية عسكرية تتكون وكان يطلق على كل منها «العصبة المقدسة» .

(٢)

وتعد موقعة «سان برتلمي» من أبرز هذه المعارك الدموية الخطيرة التي وقعت عام ١٥٧٢ من الكاثوليك ضد البروتستانت الفرنسيين، وكان من نتائجها فقدان فرنسا لزهرة رجالها من أهل العلم والصناعة، وسبب هذه المجزرة كما يصورها مؤرخ معروف : هو الحقد الديني في أقسى أشكاله، ذلك أنه لما ظهر المذهب البروتستانتي في ألمانيا وامتد إلى سائر ممالك أوربا أصاب فرنسا منه قسط وتبع طريقه كل من كان ناقما على سلوك الكنيسة الكاثوليكية إذ ذاك

(١) اوربا في مطلع العصور الحديثة.

وكان من أكبر ما أثر على الناس فيه ذلك القرن الذي ظهر فيه فجر العلم من أفق البشرية هو حرية البحث فلم يرق في عين الملكة كاترين دومدشي أم ملك فرنسا شارل السابع أن تنتشر البروتستانتية في بلادها فعزمت على إحداث مقتلة عامة تكون سبباً في إفناء البروتستان الفرنسيين وتقطع دابرهم جميعا وكانت يد الكنيسة الكاثوليكية في تدبير هذه المكيدة الفظيعة أقوى عامل فيها ودافع إليها ، في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ وهو عيد أحد حواريي عيسى عليه السلام أمروا الكنائس فدقت أجراسها وكان ذلك إشارة للجنود والمتطوعين من الأهالي والمتحمسين الذين باتوا ليلهم ينتظرون تلك الإشارة أمرا صريحا في البدء في الفتك بالبروتستان فدهموا بيوتهم وفي أيديهم المشاعل تضيء عليهم الطريق في الليل الدامس مقودين بأمراء البيت الملكي وكبراء العائلات الفرنسية وأخذوا يفتكون بأولئك الأبرياء مرتكبين من القسوة والوحشية ما يندر مثله في تاريخ البشر ، وكانوا يبقرون بطون الحوامل ويخرجون الأجنة ثم يلقونها للكلاب والخنازير ، وكانوا يعطون الأطفال الذين في المهد للصغار الذين في سن العشرين من أولاد الكاثوليك ويأمرونهم بقتلهم جرا من أعناقهم في أسواق باريس، ولم يزالوا كذلك حتى سالت شوارع المدينة بالدماء وعجت الأصوات إلى السماء ولبس نهر السين حلة أرجوانية وحدث ذلك في كثير من مدائن فرنسا ، ثم حدث أن دقت أجراس الكنيسة مرة أخرى فظن اتباع الحقد الديني بأن ذلك أمر ثان باستئناف القتال فأنحوا على اخوانهم قتلا ونهبا وتمثيلا بأشد مما فعلوا بالأمس واستمرت المجزرة إلى يوم الثلاثاء وما بعده واستحالت إلى مذابح فردية طوال شهر سبتمبر وأكتوبر وأحصوا عدد المقتولين فبلغوا ٢٥ ألفا . وكان من نتيجة المقتلة أن تذمرت النفوس الطيبة من فعل الكنيسة وكثر ضدها الهجو والقول والهجر ومال الناس إلى تقرير قاعدتي حرية الضمير وحرية البحث وهما قاعدة المذهب البروتستانتي فكان أنصار الكاثوليكية بسوء سلوكهم في تأييد مذهبهم أبر مؤيدي مذهب أضدادهم في بلادهم » وجاءت من بعد ذلك حرب الثلاثين عام بسبب الخلاف الديني في بوهميا واتسعت إلى أن دخلتها معظم الدول الأوربية بدرجات متفاوتة وكانت ألمانيا هي المسرح الأصيل لهذه المأساة.

ويعد البابا كوبلوري التاسع - ١٢٤١ المسؤول عن ايجاد محاكم التفتيش التي ملأت قلوب الناس رعبا في العصر الوسيط، وقد اعتمدت البابوية في محاكم التفتيش على الدومنيكان الذين شبهوا أنفسهم بكلاب الله في اصطياد الهراطقة للمحافظة على الكنيسة، وقد اعتمدت محاكم التفتيش على التعذيب لإجبار المتهمين على الاعتراف وتذرعت بالقوانين اليونانية وظلت محاكم التفتيش تعمل ثلاثة قرون وكانت مصدرا لانفراط عقد الوحدة المسيحية الغربية، ونقل ديوان التحقيق في اسبانيا وحدها على قول (رباخ) نحو مائة ألف إنسان. وقد حملت الكنيسة مسؤولية فظائع سانت بارتلمى ومذبحة «الاليجواه» وهي طائفة دينية انتشرت في القرن الحادي عشر بجنوب فرنسا وقد أمر البابا انيوسان الثالث بإبادتها عن آخرها فأبيدت وقتل في حرب الكاثوليك مع البروتستانت (١٦٠ ألفا) وقتل كمادا الدومنيكي الإسباني وحده ستة آلاف إنسان بالنار ومن ثم واجهت اوربا صراعا عنيفاً أثمر طويلا عن اختلاف المذاهب ثم اختلاف القوميات منها حرب المائة عام وحرب الثلاثين عاماً، والحرب بين فرنسا وانجلترا وبين فرنسا وألمانيا وقامت سلسلة من الثورات ابتداء بالثورة الفرنسية والثورة الشيوعية من بعد.

(٥)

تمزقت وحدة اوربا بظهور البروتستانتية وكان ذلك مقدمة لتحولها عن المسيحية كلية وعودتها مرة اخرى إلى الوثنية اليونانية والعبودية الرومانية وكان عصر النهضة علامة هذا التحول فقد كانت النهضة الأوربية في الواقع ثورة على الكنيسة حيث لم ينجح الإصلاح الديني الذي قام به لوثر إذا ظلت المسيحية في الكنيستين متمسكة بالصليب والتثليث والفداء، وكان من أخطر تحولاتها الآثار العميقة التي أحدثتها اليهودية فيها وهي تتمثل في قبولها تبرير الربا إرضاءاً لليهود الذين يعملون فيه ويقول ايف كونجار: إن اضطهاد المسيحيين والتنكيل بالشهداء في العصور الأولى كان يرجع إلى وشايات يهودية في عالم كانت اليهودية فيه صاحبة الهيل والهيلمان تبسط أجنحتها وتنعم بالسطوة والنفوذ كما اوضح ذلك مارسيل سيمون في كتابه (إسرائيل الجرثومة)

إذ ذكر أن نزعة مناهضة السامية في اسفار الكهنة المسيحيين القدامى كانت تقابل تعليم العداء للمسيحية في التلمود وقد أشار الباحثون والمؤرخون المنصفون أن تعاليم الماسونية كان لها أثرها في تحول الغرب المسيحي عن الدين وأن اليهود كان لهم دورهم في الحروب الصليبية وكانت الماسونية التي اقامها اليهود في الغرب واحتضنتها البروتستانية أساساً هي محاولة عميقة بعيدة المدى لتعويض الكنيسة والدين وقد فشلت المسيحية بظهور البروتستانية والتحدي اليهودي في اعتبار الكنيسة وحدة عالمية تضم جميع المسيحيين، ولم تصبح الكنيسة هيئة عالمية جامعة بين رجال الدين والعلميين على السواء وفشل ما نادت به في العصور الوسطى بأنها تفسير العالم، وظهر جيدا كيف أمكن إحتواء الفكر المسيحي وكان لموقف الكنيسة من الحرب مع البروتستانية من ناحية ومع العالم الإسلامي من ناحية ، اكبر الأثر في افولها ثم جاء تنازلها عن أصول الدين في تبرير الربا من أكبر ما عرض لها من أخطار.

(٤)

ويصور ول ديوارنت كيف انحرفت المسيحية في تبريرها للربا فيقول : كانت العقيدة الدينية المسيحية في الربا أكبر العقبات في نمو النظام المصرفي وتقدمه ومصادرها في معارضة الربا: طعن أرسطو على الربا وقوله إنه عمل غير طبيعي إذ هو توليد المال للمال، وطعن المسيح على الربا ومعارضة آباء الكنيسة للأعمال التجارية والربا في روما، أما القانون الروماني فقد شرع الربا وكان بروتس وغيره يقارضون ربا فاحشاً على أموالهم ، وكان أمبروز قد عارض النظرية القائلة بأن من حق الإنسان أن يفعل بماله ما يشاء. ولما عاد القانون الروماني إلى الوجود في القرن الثاني عشر شجعت عودته (أريرموس) والشراح في بولونيا على الدفاع عن الربا وقد أيدوا حججهم بما جاء في قانون جستنيان ولكن مجلس لاتران الثالث ١١٧٩ جدد هذا التحريم وظل هذا قانون الكنيسة حتى ١٩١٧ وكانت ثروة الكنيسة في الارض لا في التجارة وظلت قرونا طويلة ولما كان جميع المرابين يهود، فقد تبين أن حاجات التجارة أقوى أثراً من خشية السجن أو الجحيم ذلك أن اتساع نطاق التجارة والصناعة تطلب استخدام المال

المتعطل واضطرت الكنيسة على كره منها أن تكيف نفسها فتقدم القديس توماس أكويناس حوالي عام ١٢٥٠ بجرأة عظيمة بمبدأ كهنوتي جديد عن الربا قال فيه أن من يستثمر ماله في مشروع تجاري يحق له شرعاً ان ينال نصيباً من ربحه إذا شارك فعلا في التعرض للخسارة وفسرت الخسارة بأنها تشمل التأخر عن أداء الدين عند تاريخ معين بشروط ثم جرى التوسع في هذا الاتجاه من بعد فقالوا بشرعية أداء عوض للدائن نظير ما يصيبه من الخسارة لعدم انتفاعه برأس ماله. وأقر بعض المشرعين من رجال الدين حق الدول في إصدار سندات ذات فائدة وبعد عام ١٤٠٠ ألغت معظم الدول الأوربية ما وضعته من قوانين لتحريم الربا ولم يكن تحريم الكنيسة إلا كلاما مهملا يتفق الناس جميعا على إغفاله » .

الفصل الثالث

الفكر الغربي المسيحي

لم يخلف السيد المسيح أي نص مكتوب ولا أي نص محفوظ، والأناجيل الموجودة كتبت بعد المسيح بسنوات طويلة وتشكلت على نحو مختلف إختلافا واسعاً عن مفهوم المسيحية المنزلة، فشتان بين عقيدة المسيح وعقيدة الكنيسة. ومنذ دخل اليونانيون أصبحوا هم حملة العلم في الدين المسيحي وبدخولهم فيه دخلت الفلسفة اليونانية في التعاليم المسيحية ومن ثم احتدم الجدل بين الفلاسفة والنصارى وبين النصارى أنفسهم، وكان الخلاف الأكبر حول طبيعة المسيح وتركيبه من لاهوت وناسوت، وتغلبت الفلسفة اليونانية على «تفسيرات» المسيحية وكان أهم خلاف ذلك الذي قاده (أريوس) وكان يقول إن للأب والابن جوهرين متميزين وأن الثاني خليفة الأول وليس هو بإله ودعا قسطنطين إلى مجمع مؤلف من أساقفة النصرانية لحسم الخلاف وكان على رأي الوهية المسيح وبذلك استعمل نفوذه في إقرار هذا الإتجاه في مجمع نيقية عام ٣٢٥ ولكن الخلاف استمر طويلا حتى حسمه الملك تيودسيوس الذي أمر بأن يتبع النصارى كلهم مذهب البابا (أمسيوس) القائل بألوهية المسيح ومن يخالف أمره يعد هرطقيا.

يقول العلامة أبو الحسن الندوي: إن المسيحية امتحنت في عهدها الباكر (منتصف القرن الأول المسيحي) بتحريف لا يوجد له نظير في تاريخ الديانات في عهدها الأول فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من افكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس (١٠-٦٥) وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح الى روح ومن وضع الى

وضع، ومن نظام الى نظام لا يشارك الثاني الأول إلا في الأسم وبعض الطقوس[1]

ويتحدث عن ذلك عالم مسيحي هو (أرنست دى ينسين) في كتابه:

ISLAM OR TRUE CHRISTAINTY

إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء به الإنجيل ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله، وإن مرد النزاع القائم بين المسيحيين واليهود وبين اليهود والمسيحيين ليس إلى المسيح بل الى دهاء بولس، ذلك المارق اليهودي والمسيحي وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (ESSENIE) والتمثيل وملئه هذه الصحف بالنبوءات والأمثلة.

إن بولس في تقليده لاسطفانوس داعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية، إنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الانجيل اليوم، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلا، ليس المسيح بل بولس، والذي جاءوا بعده من الأحبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني والذين تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرنا،

وبقيت المسيحية قرونا طوالا ولا تزال تحمل روح بولس وتحافظ على تراثه، ولم يظهر في العالم المسيحي في هذه المدة الطويلة من يثور على هذا الوضع الطارىء الدخيل على المسيحية ويحاول نقلها إلى وضعها الأول الذي تركها عليه سيدنا المسيح ومضت أجيال اثر أجيال ولم يظهر الرجل المنتظر لتجديد المسيحية وتجريدها من الاجزاء الأجنبية حتى كان القرن الخامس عشر المسيحي فظهر مارتن لوثر في ألمانيا وقام باصلاح محدود قاصر ينحصر في مسائل جزئية وعارض بعض عقائد ألحت عليها الكنيسة النصرانية ولم يكن إصلاحا جوهريا شاملا ولا ثورة ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل، ثم لم يخلفه رجل في العالم المسيحي يرفع صوته ضد الخرافات الكنيسية وإعتداءاتها

(١) ماذا خسر العالم

ويقوم بمثل الدور الذي قام به لوثر على ضعفه، وظلت الكنيسة تمشي في الدرب الذي اختارته أو بالأصح فرض عليها وضعف تأثير الكنيسة وانحل سلطانها في العهد الأخير وقامت دولة المادية في أوربا وأصبحت الديانة الحقيقية التي خلقت المسيحية وخلقت كل ديانة في هذا العالم الغربي فلم يظهر في الأوساط المسيحية من يحارب هذه المادية ويعيد المسيحية إلى مركزها في الحياة ، او يوجد الثقة بين المسيحيين بديانتهم، وينشىء فيهم القوة الروحية الخلقية التي يقاومون بها اغراءات المادية القاهرة ويتظاهرون بحياة فاضلة تقوم على العلم والأخلاق والعقائد المسيحية ويواجهون معضلات العصر وأزماته ويحاولون حلها في ضوء الدين، وبالعكس من ذلك نرى المفكرين والمؤلفين المسيحيين في أوربا يائسون من مستقبل المسيحية ومصابون بمركب النقص أمام المادية اللادينية. اهـ.

وهكذا نجد أن الفكر الغربي أخذ يتشكل بصورة جديدة فيها كثير من ميراث اليونان والرومان وفيها من المسيحية الوافدة على الغرب بتفسيراتها التي قدمها بولس، ثم كانت آثار الفكر الإسلامي وقد بدأت في الأندلس وجامعاته وأخذت تنتقل رويدا رويدا إلى قلب أوربا وكان لها أثرها الواضح في دعوة لوثر. وبذلك اجتمع للفكر الغربي عناصر مختلفة وربما متضاربة هي حصيلة الفكر الفلسفي القديم وميراث اليهودية، وآثار مدرسة أثينا ومدرسة الاسكندرية، وما جاء به الإسلام ولكن الفكر الغربي سرعان ما شكل نفسه مستمداً من الفكر اليوناني مفاهيمه الاجتماعية في الإعجاب باللذات والأجساد العارية وفلسفة الإباحية المسرفة ،وأخذ من الإسلام المنهج التجريبي الذي بنى عليه عصر النهضة وعصر العلم، وقام الصراع بهذا التشكيل الجديد مع المسيحية والفكر المسيحي والكنسي الذي كان قائما على الرهبنة وإنكار لذات الحياة والمرأة، والذي كان في نفس الوقت معارضا لما حاول العلم أن يقدم من مفاهيم وأساليب ، تتعارض وما تحمله في طواياها الكتب القديمة، ومن هنا بدأ ذلك الصراع العنيف الذي دفع الفكر الغربي دفعا قويا إلى معارضة الفكر المسيحي، بل والفكر الديني عامة.

وكان لموقف الكنيسة في تأييدها للامراء الظالمين والإقطاع ، ثم معارضتها

للعلوم أثر بعيد في ذلك التحول الخطير ، فقد واجه العلم أموراً كثيرة ، وأراد أن يفهمها عن طريق العقل فعجز عن ذلك كالأسرار الدينية السبعة وما يتصل باللاهوت والناسوت. وكان للفكر اليهودي القديم اثر بعيد في هذه المعركة ، فقد أحكمت السيطرة على هذا الفكر لإخراجه من إطار الدين بصفة عامة ، وذلك حين اندفعت مجموعات من رجال المحافل الماسونية الى تصدر الفكر الغربي والدعوة الى الإلحاد ومعارضة الوحي والدين وإنكار الخالق تبارك وتعالى وكان هذا هو التمهيد للمحاولة اليهودية التي تحققت بالثورة الفرنسية.

والمعروف أن اليهودية هي التي نشرت المذاهب الفلسفية في العالم لزعزعة أساس القواعد الدينية في صور المفكرين والعامة على السواء ، ومن أجل ذلك عمد اليهود على إقامة أدلة فلسفية تتأول النصوص الصريحة ، وخاصة فيا يتعلق بالألوهية والبعث والجزاء. وهذا ما استطاعت الفلسفة إغراق الفكر المسيحي الغربي فيه ثم نقله توا إلى الفكر المثالي البديل عن الدين المسيحي فالفكر المادي المعارض لكل ما يتصل بالألوهية أو البنوة أو الرسالات الساوية.

وقد شكلت أوروبا والغرب منطلقها الفكري على أساس أن الدين «لاهوت» أو عبادة أو علاقة بين الله والبشر فقط ، أما ما يتعلق بالنظام الاجتاعي فانه لا صلة له بالدين ، وقد جاء ذلك نتيجة أن الدين المسيحي عندما دخل أوروبا كان هناك النظام الاجتاعي الروماني قائماً والقانون الروماني نافذاً ولم تكن المسيحية نفسها ديناً له شريعة وإنما كانت مجموعة من الوصايا ترتبط أساساً بالدين الذي أنزل على موسى والذي يضم الشريعة غير أن محاولة فصل المسيحية عن الدين الموسوي ، واستقلالها ، وإدعاء إنها دين عالمي ، كل ذلك أوجد الخلاف بينها وبين دين الله الحق الجامع بين العقيدة والشريعة والاخلاق ولقد كان لذلك الصراع الشديد بين الكنيسة والمجتمع الدوري أثره البعيد في تعميق هذا الاتجاه وكان لليهود أثرهم الواضح في تنحية الدين المسيحي عن نطاق المجتمع والسياسة حتى يفسحوا لأنفسهم مكاناً في المجتمع الغربي تحت اسم الوطنية والقومية.

يقول محمد هاشم الهاشمي: إن أوروبا فصلت الدين عن الدولة نتيجة لتاريخ

طويل من تجبر الكنيسة التي فرضت الظلم والتخلف باسم الدين فألجأتها إلى الأيدلوجيات فاستبدلت أوربا بالدين فكرا وقيما، ولقد أسلمت الشعوب المسيحية قيادها إلى الأيدوجيات لأن الدين المسيحي لم يستطع ان يمدها بالبناء الفكري الكامل الذي يستطيع أن يفسر الأوضاع الاجتماعية في المجتمع وأن يمنحها الأمل والمثل الأعلى في مستقبلها ولكن في الإسلام «الأمر غير ذلك» .

ويقول توينبي: إن المسيحية اهتمت بالإنسان نفسه مفصولا عن المجتمع.

(٢)

بين حركة لوثر التي يطلق عليها اسم «الإصلاح الديني» وبين الثورة الفرنسية أقل من قرنين ونصف القرن (١٥٤٦-١٧٨٩) تحول فيها الفكر الغربي تحولا واسعا وعميقا، فقد انتقل الغرب من الرهبانية إلى الكشف والعلم، وتحرر من قيود الكنيسة والدين، وعاد الى الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية يجددها ويوجه حياته وفقا لها ويرى أن المسيحية عامل دخيل وافد قدم الى الغرب فطبعها بطابع النسك والزهادة. وجاءت الثورة الفرنسية لتضع الغرب كله على طريق جديد، كان النصر فيه لليهود أنفسهم الذين حررتهم الثورة من القيود التي وضعتها المسيحية أمامهم والتي جعلتهم من درجة أقل وحظرت عليهم المناصب الرئيسية في الدولة والتعامل والزواج. وقد أشارت بروتوكولات صهيون إلى الغاية من الثورة الفرنسية وما تلاها في ثورات في أوروبا، وكان هدفها الانتقام من النظام الاجتماعي والسياسي الذي جمع أوربا تحت لواء الكنيسة، ولم تكد الثورة الفرنسية أن تعلن حتى سيطر عليها جماعة من اليهود حازوا شهرة فائقة في سفك الدماء وحفظ التاريخ أسماء (كرتون-دينوكراشة-فوشيه-كلودبرادبوا) وغيرهم ممن عرفوا بالوحشية والغلظة، وقد استطاعت هذه القوة أن تحقق الهدف الخفي وراء الثورة:

١- إعدام الشخصيات المرموقة في المجتمع الفرنسي.
٢- احتلال الكنائس والمعابد وسلب ما تذخر به من تحف وأموال.
٣- تعليق الرؤوس على أبواب الكنائس ومداخل الميادين.
٤- قتل النساء وبقر بطون الحبالى.

وفي ظل هذه المجازر المتصلة التي كانت تتحدى روما ولا تتوقف تمكن اليهود من السيطرة على مقدرات فرنسا المالية والفكرية والإجتماعية وبالرغم من إستكشاف دورهم في التحريض على الثورة والقيام بها فإن فرنسا ما زالت تحتفل بها كل عام وقد أطلق على الثورة الفرنسية نفس الشعار الذي عرفت به الماسونية (حرية - إخاء - مساواة) وتعد هذه الثورة هي الثمرة الاولى والكبرى للنظام الماسوني كله، وقد تبعها بعد ذلك ما أطلق عليه حركة التنوير وهي علامة على عصر المادية والإلحاد ومعارضة الدين بعامة وخير ما يقول أنصار الثورة الفرنسية أنها قررت الحرية الدينية، وقضت على الامتيازات الطبقية وهو ما قصد اليهود إلى تحقيقه في مواجهة المجتمع المسيحي وكذلك كان لها أثرها البعيد في القضاء على الوحدة الأوربية التي قامت على أساس الدين وتحولت أوربا من بعد إلى صراع عنيف باسم القوميات العنصرية والعصبيات اللغوية وتحت اسم النظم الديمقراطية بما يحقق لليهودية العالمية تغلغلا أكبر وسيطرة أوسع وكان ذلك مقدمة للاستعمار، الذي رافق حركة الانقلاب الصناعي. ولا ريب أن الثورة الفرنسية في هدفها الخفي، قد استغلت التعاليم الإسلامية، في تحرير الفرد من العبودية، والدعوة إلى المساواة، وحرية العقيدة والشورى والعدل، ولكنها استغلت كل هذه المفاهيم لغايات بعيدة استطاع اليهود منها السيطرة على الاحزاب والأنظمة والبرلمانات وكانت سيطرتهم الواسعة على الفن والآداب والفكر والصحافة وكان معنى تحرير الإنسان في الثورة الفرنسية هو تحرير اليهود، وكان معنى القضاء على الاستبداد هو تقليص نفوذ الكنيسة والمسيحية، وبالثورة الفرنسية والثورات التي تمت بعدها في أوربا كلها استطاع اليهود السيطرة على مقدرات أوربا الاقتصادية وتوجيهها الوجهة التي يهدفون إليها وكان نابليون ثمرة من ثمار الثورة الفرنسية، وقد وقع في براثن اليهود وسخر الدستوز الفرنسي لمآربهم وصدق على جميع القوانين التي قدموها اليه، ولما جاء نابليون إلى المشرق دعا اليهود في العالم كله الى الحضور لتحضير هذه المناطق واستغلال ثرواتها، وكان عصر نابليون مقدمة لإثراء روتشيلد وبلجراد ولوب وباروخ ولازار وفار بورج وسلكمان وهم ملوك الذهب فيما بعد الذين سيطروا على معظم مناجم أوربا

واستطاعوا تحريك المواد الخام في العالم أجمع، وقد ملكوا زمام الثورات وجعلوا ببراعة نار الحروب منذ عهد نابليون الى اليوم، ويقول القس جوزف لومان في كتابه (نابليون الأول واليهود): «إن القوانين التي أصدرها نابليون صهرت المصالح الفرنسية في المصلحة اليهودية وألبست الثورة والمصير الفرنسي القفطان السام الذي التصق بالجسم الفرنسي ولم يعد في الإمكان نزعه إلا اذا نزع منه الجلد واللحم الفرنسي فأصبح ما تملكه المؤسسات اليهودية في فرنسا ٩٢٪ من الصناعة المعدنية الثقيلة، و٩٨٪ من أموال البورصة و٩٥ في المائة من مصانع اجهزة الصناعة و٩٠٪ من التحف الأثرية و٧٥٪ من مؤسسات الترانزيت والوساطة، والمؤسسات التجارية التابعة لهم في باريس وحدها تسيطر على ١٥ ألف وكالة منتشرة في جميع انحاء فرنسا، وفي إبان الحرب العالمية الأولى كانوا يملكون نحواً من ٢٣٨ مصنعا للأسلحة يمولها يهودي واحد هو (باروخ) وقد جنى اليهود ارباحا مذهلة خلال الحربين العالميتين تزيد على ٤٠٠ مليار فرنك من الذهب في فرنسا وحدها هربوها الى أمريكا وهذا استطراد يكشف عن الدور اليهودي في حياة الغرب فيما بعد نتيجة سيطرتهم على الفكر والمجتمع الاوربي الذي هو مدين في عصره الحديث لرجال نشأوا في المحافل الماسونية ومعهم هدف واضح هو وضع الفكر الغربي المسيحي كله في قبضة اليهودية التلمودية واحتوائه، وكان رواد هذا الاتجاه: فولتير وديدرو وروسو، وجاء من بعدهم بوك ونيشة ولبنتز وليسنج وكنت ورينان وكلهم خدام للهدف الأساسي، الذي يوجه النقد للدين عامة وللمسيحية خاصة، ويدعو الى العلمانية والمادية والإباحية والفكر الحر القائم على الإلحاد. والتحرر الكامل من الأخلاق والقيم الدينية، وهذا هو ما أطلق عليه (عصر التنوير) وبذلك بعدت أوربا وبعد الفكر الغربي عن الأسس التي قامت بها حياتها الأساسية وتحررت تماما من كل قيم الرحمة والسماحة والآخاء التي جاءت بها المسيحية وسيطرت عليها مفاهيم التلمود القاسية العنيفة التي سيطرت على أوربا خلال عصر الاستعمار في مواجهة البشرية كلها والى هذا الاتجاه يشير المؤرخ أرنولد توينبي يشير الى تحول المسيحية الى فكرة الاله الغيور، ويحاول أن يبحث. يقول: ما هو السبب في تقبل المسيحية مرة اخرى الفكرة العميقة

اليهودية الأصل عن الإله االغيور، يقول: إن هذه الردة قد كبدن المسيحية خسارة روحية جسيمة منذ ذلك الحين، كان الثمن الذي دفعته المسيحية في كفاحها المرير: كفاح الحياة أو الموت مع عبادة قيصر. تقبلت فكرة إله اليهود الذي من سماته الغضب والقسوة والبطش وعدم التسامح ويقول: إن المسيحية الجديدة قد وائمت بين فكرتين متناقضتين: الأولى فكرة البطش وعدم التسامح والثانية: فكرة المحبة والتسامح التي تقوم عليها دعائم المسيحية الأصلية » اهـ.

وقد جاء هذا الإستسلام نتيجة صراع طويل سيطر فيه اليهود التلموديين على الفكر الغربي: السياسي والاجتماعي وأقاموا العلمانية أساسا للتعليم والثقافة والجامعات وأعلوا شأن أمثال نيتشه الذي قال أن المسيحية ما هي إلا أكذوبة كبرى من أكاذيب اليهود التي اختلقوها في عهد عبوديتهم وذلهم ليقلبوا بها الحقائق ويسبغوا على أنفسهم وعلى من كان في مثل حالهم من العبيد المضطهدين نعوتا طبعوها بطابع الإنسانية وما هي في الحقيقة غير تمويه على التاريخ » ولقد هاجم نيتشه الأخلاق المسيحية التي تدعو الى الرحمة والإنسانية واعتبرها أخطر ما دخل إلى أوربا مما يتعارض مع طبيعتها التي لا تعرف إلا العنف والقسوة.

وقد كشفت أوربا فعلا عن هذا الغشاء المسيحي ورجعت الى طبيعتها عندما اتصلت بالشعوب في مجال الغزو والاستعمار فارتكبت أشد ألوان الاضطهاد والاذلال للأمم ولم تنظر نظرة إنسانية إلا الى الجنس الأبيض الأوربي وحده أما ماسواه فقد اعتبرته مما لا يستحق الكرامة الإنسانية وعادت الى مفاهيم اليونان والرومان التي قضى عليها الإسلام بعد ان بشرت بها المسيحية.

الفصل الرابع

اثر الاسلام في الغرب

لا ريب كان تأثير الإسلام في المسيحية عميقا ، وفي الفكر الأوربي خطيراً ، فهو الذي قدم التحول الحقيقي للفكر والحياة والمجتمع والحضارة. والحق أنه لا علاقة مطلقاً بين حضارة أوربا الحديثة وبين المسيحية لأنها جاءت بعدها بألف عام وبعد قرون من ظلمات العصر الوسيط وإنما هو الإسلام الذي أعطى أوربا مفاتيح الحضارة بالعلم التجريبي الذي ورثته أوربا في الأندلس من طليطلة إلى قرطبة خلال أكثر من ثلاثة قرون ويزيد وصدق القائل : إن المسيحية أدخلت أهل اوربا الأديرة وأخرجهم الإسلام منها بل أن التقدير الحقيقي للموقف يؤكد أن الإسلام هو الذي نقل البشرية كلها إلى العصر الحديث وليس صحيحا ما ذهب إليه المؤرخون الأوروبيون الذين يخضعون لعنصريتهم على اعتبار حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية حداً فاصلا بين العصور القديمة والعصور المتوسطة ومن عجب أن تنساق مدارسنا الإسلامية وراءهم في هذا الخطأ التاريخي الفادح واستمرار مؤلفي الكتب التاريخية العرب في إتخاذ هذا الحادث حدا فاصلا في تاريخ الانسانية متابعة وجريا وراء الغرب، وإذا كان الغربيون قد عجزوا بتعصبهم القومي والحلي أن يعترفوا بأن ظهور الإسلام هو الحادث الإنساني العظيم الذي غير مجرى التاريخ، وأنه هو الحد الفاصل ، فإن هنري بيرين مؤلف كتاب (محمد وشارلمان) قد أعلن ذلك في صراحة ووضوح حين قال: إن الاسلام هو القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوروبي وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة ثمرتان من ثمار الإسلام ويقول هنري بيرين إن القول بأن سقوط الامبراطورية الرومانية هي القوة التي أدت إلى هذا التحول في التاريخ الأوربي هو محض خطأ فإن الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة الى

درجة تجعلها تنظر الى الرومان نظرة العبيد إلى السادة فما كان يخطر لها بل ما كنت ترغب أبداً في أن تناوىء روما وتقضي عليها، أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان في جميع أساليب الحياة ولا سيما من الناحية الدينية التي كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم. لقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الوندال حدودها واستقروا في نواحيها وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسي من روما إلى بيزنطة وأصاب حياتها العقلية والمادية شيء من الركود والكساد ولكن لم تكد تهب ثورة الإسلام وتسير ركائبه إلى أراضي الرومان حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار، وقامت دولة جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوربا من الجنوب، فاضطرت ملوكها أن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالي من أوربا حيث قامت المعارك التي كيفت تاريخ أوربا في العصر الوسيط وإبان العصر الحديث. أما الجزء الجنوبي من أوربا فلم تقع فيه في تلك العهود إلا موقعة (بواتيه) التي انتصر فيهـا شارل مارتـل عـلى جيش الأندلس، فلولا ظهور الإسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق ولظل البحر الأبيض بحراً رومانيا ولما قامت الثورات القومية التي خلقت أوربا الحديثة ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عنها الحضارة الراهنة » اهـ.

وذلك الذي يقرره هنري بيرين في كتابه (محمد وشارلمان) هو الحقيقة التي أصبحت اليوم على كل لسان وكل قلم، يقول ايريك بيتان في بحثه: اثر الاسلام في المسيحية: لقد احتذت الأندلس ومدارسها في أسبانيا والبرتغال ومؤلفاتها ومكتباتها العالم المسيحي فكان من درسوا في مدرسة طليطلة كثيرون، ظل كتاب (الرازي): (الحاوي) المؤلف من عشرين مجلدا المرجع الوحيد المعترف به في جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر، أعظم تقدم علمي حققه المسلمون كان في علم البصريات.

وعندما اكتشف المسيحيون أن الإسلام شيء أخر غير مجرد إلحاد مسيحي أخذوا في مقاومته بطريقتين:

الاولى: تشديد الهجوم المضاد على الدين الإسلامي.

الثانية: الحملات الفعلية لمحاربة الشعوب الإسلامية.

ولقد أحدث الفكر الإسلامي حين اقتحم أوربا ثورة ضد الكنيسة وتعاليمها التقليدية، وكانت أكبر الآثار هي معارضة ما كانت الكنيسة تنادي به من أنها الصلة الوحيدة بين الله والإنسان وبأنه لا يصل إلى الله دعاء أو صلاة أو استغفار إلا عن طريق الكنيسة ورجالها، ومن ثم امتد القول بأنه لا وساطة بين الله سبحانه وبين الانسان.

يقول أحمد عطية الله: هذه التعاليم التي كانت غريبة عن طبيعة التقليد الأوربي حتى ذلك العصر والتي اقترن ظهورها بما سبقها من حوادث واضطهاد المسلمين في أسبانيا وتشتيت البقية من سلالاتهم ومن اليهود الإسبانيين الذين نزحوا جميعا من الأندلس يحملون معهم ما يحفظون من تراث الثقافة الإسلامية قاصدين به فرنسا وهولندا وسويسرا وألمانيا. ويرى كلميدس وب: أن أثر الإسلام في المسيحية كان في الأغلب في ناحيتين متعارضتين.

الاولى: تقوية روح الاتحاد بين الشعوب المسيحية بعد أن ظلت ردحا طويلا من الزمن على خلاف فقد وحدت جهودها واتحدت كلمتها مئات من السنين بعد أن احست أنها تواجه قضية مشتركة في الوقوف ضد الإسلام.

الثانية: عن طريق الآراء والافكار التي اقتبستها مدارس أوربا المسيحية في القرن ١٢ إلى القرن ١٦ من علماء المسلمين من أمثال ابن سينا والغزالي وابن رشد ولولا تأثير هذه الأفكار الإسلامية لاتخذت تطورات الفلسفة واللاهوت في العالم المسيحي طريقاً آخر ».

ويصور هذا التاريخ أثر الإسلام في المسيحية الأوربية عميقاً بعيد الأثر في تحرير الإنسان من قيد اللاهوت العنيف فقد نقل الفكر الاوربي مسؤولية الإنسان أمام الله بصفة مباشرة، كذلك حريته في تفسير الكتاب المقدس على ضوء ما يمليه عليه ضميره، وقد كان لهذا التحول آثارة البعيدة السياسية منها أنه خلع على الأفراد حقوق السيادة في المسائل الدينية التي كانت تعيد أسمى الشؤون وأقدسها «واذا كان الإنسان قد حصل على سيادة نفسه في الدين فلا أقل من أن يطلب هذه السيادة في الشؤون الزمنية واعتبر كل فرد نفسه مكلفا

وتطرق الإنسان من ذلك إلى بحث أصول السيادة بجميع مظاهرها مما ترتب عليه أن امتنع الأفراد عن دفع الضرائب التي فرضتها عليهم الكنيسة وبرزت فكرة المساواة الطبيعية والحرية الطبيعية إلى الظهور مرتكزة على دعائم علمية وقانونية؛ ومن ثم بدأت فكرة الدولة تحل محل فكرة الكنيسة المقدسة وكان ذلك مقدمة للفكرة القومية.

والحق أن عطاء الحضارة الإسلامية لم يكن في العلم بقدر ما كان في القيم الإنسانية : «القيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية» فقد قدم الإسلام للغرب منهجا رائعا في بناء المجتمع على اساس العدل والرحمة والإخاء الانساني.

ولكن الغرب لم يتقبل مفهوم الاسلام تقبلا كاملا فقد كانت تغله وتقيده طبيعته الخاصة وفكره الوثني اليوناني الروماني المعروف الذي لم يلبث أن تجدد وانبعث وهو ليس فكرا مسيحيا رحيما أو عادلا بالضرورة ، بل فكر تلمودي عميق الجذور في الغرب منذ أن امتزجت الفلسفة اليونانية بالفكر اليهودي التلمودي في مفاهيمه الحاقدة على الانسانية الراغبة في امتصاصها بالربا وقتلها بالسيطرة، واستغلال مقدراتها وتركها تموت جوعاً، هذه هي الروح التي سيطرت على الغرب بعد عصر النهضة، فقد استطاعت أن تأخذ الخيط من المجتمع الاسلامي وتحمل لواء العلم التجريبي ولكنها وجهته وجهة أخرى سيكون لها آثارها البعيدة المدى في تطور الحضارة والمجتمع لقد ادخلت تفسيرات المسيحية اهل أوربا الأديرة وأخرجهم الاسلام منها إلى آفاق من الكشف والاختراع، فقد ظلت الأرض ثابتة بين يدي الإله أطلس مدة أربع عشر قرناً إلى أن اتى كوبر نيكوس (تلميذ المسلمين في الأندلس) في أواخر القرن الخامس عشر وحركها بين يديه، ذلك لأن الاعتقاد بدوران الأرض حول الشمس وهو ما قدمه المسلمون للبشرية كان أسهل من الاعتقاد بأن الكون يدور حول ذرة صغيرة في الفضاء وكانت اعتقادات اليونان التي انتقلت إلى أوربا المسيحية هي أن الآله أطلس هو الذي يحمل الأرض بين يديه كذلك حرر الاسلام أوربا من العنف الذي عرفته في نشر المسيحية فقد قابل الغرب بالتسامح وأجاز له أن يقبل الاسلام أو يحتفظ بعقائده، وسمح لها

أن ينفع بالعلم والمعرفة دون شرط أو قيد، ويذكر في هذا ما حدث في جنوب فرنسا على يد البارون (سيمون دى مونفور) الذي توجه بإذن البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسية ومعهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة لانج رول لاستئصال الديانة المجوسية فيها فأغرقوا الاقليم كله في أنهار الدم والنار حتى أهلكوا من كان فيه من المجوس، وباسم الاصلاح الديني قامت الحرب في شمال ألمانيا عنيفة دامية ثلاثين عاما وكان الملوك الأوربيون يسوقون أمام فتوحهم الرهبان لنقل الناس بالقوة إلى مذهبهم.

هكذا قارن علماء الغرب بين الاسلام حين جاء بالسماحة والرحمة والإخاء الإنساني فوقف في وجه كل هذه المحاولات وعلم الغرب الارتفاع فوقها.

(٢)

وقد أكد المؤرخون الغربيون المنصفون أن دخول الإسلام أوربا هو بداية العصور المتوسطة ونهاية العصور القديمة وليس حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية.

وقد أشار إلى هذا المعنى (هنري بيرين) المؤرخ الفرنسي المعاصر في كتابه باللغة الإنجليزية (محمد وشارلمان) بعد أن منع الأوربيين تعصبهم القومي والمحلي في صدر نهضتهم عن أن يعترفوا بأن ظهور الإسلام هو الحادث الإنساني العظيم الذي غير مجرى التاريخ، وكان حقاً أن يعتبر الحد الفاصل بين القرون الأولى والقرون المتوسطة[١].

(ومن عجب أن كتبنا التاريخية المدرسية ما زالت منساقة وراء فكرة التغريب في أن حادثة الشعوب الجرمانية هي بداية العصر الوسيط وليس الإسلام).

وقد أشار هنري بيرين في إنصاف ونزاهة، إلى أن الإسلام كان هو القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوربي، إلى الحد الذي يمكن أن يقال معه بأن العصر الوسيط والنهضة هما ثمرتان من ثمرات ظهور الإسلام وحين يرى أغلب المؤرخين أن الشعوب الجرمانية التي كانت تعيش على تخوم

(١) السيد محب الدين الخطيب - مجلة الفتح.

الإمبراطورية الشمالية هي التي اجتاحت حدود الرومان وقضت على دولتهم، يقول هنري بيرين أن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة إلى درجة تجعلها تنظر الى الرومان نظرة العبد الى السادة فما كان يخطر لها بل ما كانت ترغب أبداً في أن تناوىء روما وتقضي عليها أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان في جميع أسباب الحياة، ولا سيما في الناحية الدينية التي كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقبضوا على سطوتهم وسيادتهم وهذا هو الفارق بين الشعوب الإسلامية والشعوب الجرمانية، فأولئك كان يعدون انفسهم عيالاً على الدولة الرومانية وهؤلاء كانوا يرون أنفسهم أحق بسيادة العالم من الرومان الذين ضعفوا وشاخوا ولقد كان امراء الجرمان يفخرون بما يمنحه إياهم أباطرة الرومان من الأوسمة والألقاب أما رجال الاسلام فكانوا يأنفون من هذا الرشى، لأنها تقدم ممن هم أدنى منهم دينا وخلقا وأصلا، وكانت القبائل الجرمانية ترى نفسها سليبة من أسباب الحضارة : من العقيدة الدينية الراقية فكانت تتخذ حضارة الرومان ودينهم تشبهاً وتقليداً أما الشعوب الإسلامية فكانت ترى نفسها جديرة بأن تمنح الرومانية ديناً جديداً يرشدهم إلى مدنية أخرى.

ولهذا فقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها واستقروا في نواحيها، وكل ما حدث أن انتقل مركزها من روما إلى بيزنطة وأصاب حياتها المادية والعقلية شيء من الركود والفساد. ولكن لم تكد تهب ريح الإسلام وتسير كتائبه إلى أراضي الرومان حتى تلاشى كل ما كان لهم من المعالم والآثار، وكأنها كانت رماداً ذرته الرياح وقامت دولة جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوربا من الشرق والجنوب فاضطرت ملوكها لأن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالي من أوربا حيث قامت المعارك وحدثت الوقائع التي كيفت تاريخ أوربا في العصر الوسيط.

أما الجزء الجنوبي من أوربا فلم تقع فيه في تلك العهد سوى موقعة (بواتيه) التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس فلولا ظهور الاسلام لظلت

الإمبراطورية الرومانية قائمة ، وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق ولظل البحر الأبيض بحرا رومانيا ولما قامت الثورات القومية التي خلقت دول أوربا الجنوبية ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عنها الحضارة الراهنة » .

وهكذا نجد أن الاسلام هو الذي اخرج أوربا من الظلمات بعد دخول المسيحية إليها بأكثر من سبعة قرون أو بعد أن اعتنقت الاسلام رسميا بست قرون ، وأن المسيحية حين دخلت أوربا عملت على تحرير الغرب من الوثنية منتقلة به الى الايمان بالآله الواحد ، غير أن تفسيراتها المضطربة عجزت عن أن تحقق ذلك ، فلما جاءها العلم وجدت نفسها في موقف المعارضة ، والخصومة ، فلما جاء الاسلام أعطى الغرب العلم والعقل وتحرير الفرد من قيود الاكليروس ، وهزيمة الرهبانية والاندفاع إلى العمل غير أن الغرب لم يستطع أن يحرر نفسه من الوثنية فاستعارها ، فشكل مجتمعا ماديا يتقدم من ناحية العلم التجريبي الذي أورثه إياه المسلمون ويدمر نفسه لأنه عارض التوحيد والعدل والأخلاق .

ولقد عاشت المسيحية في أوربا خمسة عشر قرناً قبل أن تقوم النهضة التي كانت من أثر العلوم والإنسانيات الإسلامية .

ولم تلبث أن صرعتها القوميات والأيدلوجيات والعنصرية والوثنية ، في مختلف صورها الحديثة ، وعلت فكرة تقديس الدولة وتمجيدها ، والنظر إلى الإنسان على أنه حيوان حيث حاولت أن تطبق عليه المناهج المادية ، مع أنه نفس وجسم ومادة وروح ، وليس مادة خالصة .

وحين حاولت أوربا أن تقضي على التفسيرات التي جاء بها بولس للمسيحية ، اندفعت إلى نهاية الشوط فقاومت الدين بصفة عامة واستعلت بالعلم وحاولت أن تجعله لها عقيدة ودينا مع أنه يعجز عن أن يعطي الاجابات إلا في مجاله المحدود ولو أن الغرب اتجه إلى الاسلام لوجد فيه سعادة المجتمع وسلامة النفس وسلامة الترابط بين قيم الروح والنفس وحسن التوازن بين المعنويات مع الماديات .

ولكن القوى اليهودية التلمودية الصهيونية دفعت الغرب إلى طريق

الوثنية المادية، واستطاعت بسيطرتها على الفكر الغربي أن تحوله عن المسار الطبيعي وأن تحتويه وأن تفرض عليه مناهج التلمود مصاغة في أيدلوجيات ومذاهب ونظريات منها التفسير المادي للتاريخ والتحليل الفرويدي والنظرية المادية الوجودية وغيرها من نظريات هدمت المجتمع الغربي والنفسي وأثارت أزمة الانسان الحديث بعد حربين أججتها الصهيونية فأكلت أكثر من مائتي مليون غربي وفتحت الأبواب للفزع والتدمير لتتمكن من السير إلى الطريق المرسوم الذي رسمته بروتوكولات صهيون بتدمير العالم واحتوائه قبل السيطرة عليه.

ولقد كشف كثير من الباحثين الغربيين: ذلك الإصرار الغربي الشديد على مدافعة الاسلام والحيلولة دون اعتناقه، والدعوة إلى إيقاف الاسلام عند البواغير دون أن يقتحم أوربا ورده عن طريق الأندلس ثم رده عن طريق البلقان مرة أخرى ومناهضة فكره حتى لا يدخل أوربا ولا يقنع أهل الغرب وإثارة الحملة عليه بالكلمة والاستعمار والاستغلال والسيطرة حتى يظل عاجزاً عن الحياة أو عن القدرة على القيام بجولة جديدة في افق الغرب.

يقول الكونت كاتياني: المستشرق الايطالي في كتابه (تاريخ الاسلام الكبير):

ان الديانة الإسلامية هي أقوى دين في العالم بعد المسيحية، والمسلمون يعملون بقوة إيمانهم على صد تيار المسيحية فوقع من جراء ذلك تشاد بين هاتين الديانتين، وما زالت اثارة باقية الى عصرنا الحاضر وستبقى كذلك قروناً ما دامت أوربا المسيحية تعجز عن نشر ثقافتها بين المسلمين رغم الوسائل التي تمتلكها.

ومن المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين أن الامر بعكس ذلك، فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جلى للمسيحية إذ لم لو تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامعة التي يعتنقها الأروام والروس والتي لم يقم أي دليل على نهوضها - أن تبقى مهيمنة منذ ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدنية العرب

والعجم فماذا يكون مصير غربي آسيا وأوربا في القرون الوسطى المظلمة، أو لم تحل النهضة البروتستانية التي ظهرت على الاثر دون تدهور الأرثوذكسية في هوة الانحطاط بيد أن هذه الخدمات التي قام بها الاسلام نحو المسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين أتباع هاتي الديانتين فحجب وجه الحقيقة وورث الأبناء والأحفاد الحقد الشديد » ويقول كاتياني: إن الوثائق الحقيقية التي بين أيدينا عن مؤسس هذا الدين: (الاسلام) ندر أن نجد أمثالها في الديانات الأخرى، فتاريخ عيسى وما ورد بشأنه في الانجيل ناقص لا يشفي العليل، أما حياة محمد فإن لدينا منها قسما مهما حقيقيا بحيث يحمل المؤرخين المعاصرين على الاعتقاد بأن لمحمد شخصية بارزة في تاريخ البشرية وأنه مشرع كبير أحدث أعظم انقلاب في الأخلاق والسياسة بعد المسيحية ».

الفصل الخامس

الاستعمار

بدخول الغرب عصر العلم والصناعة بدأ عصر الاستعمار والسيطرة على مناطق الخامات والاسواق في آسيا وافريقيا، وقد كان هذا العصر في حقيقة مفهومه: إحكام للسيطرة على العالم الاسلامي للقضاء عليه وتحطيمه واحتوائه فكريا وعقائديا وقد جاء عصر الاستعمار بعد أن استولى الغرب على مصادر العلم الإسلامي في الأندلس بإخراج المسلمين منها كليا، واستهلاك حركة الغزو بمهاجمة الشواطىء الاسلامية في الجزائر والمغرب وتونس، والاتجاه نحو الدوران حول أفريقيا تحت اسم حركة الكشف الجغرافي التي كانت في صميم أمرها حركة صليبية تستهدف القضاء على النفوذ الإسلامي في مختلف موانىء افريقيا وآسيا.

وكان العمل الاستعماري كله يصدر عن خطة أطلق عليها تطويق عالم الاسلام وحصاره وقد بدأت الخطة منذ اوائل القرن السادس عشر واستمرت حتى أمكن السيطرة على العالم الاسلامي كله في نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨، أعني أن حركة التوسع الاستعماري امتدت أربعة قرون كاملة حتى أمكن السيطرة على عالم الاسلام هذه التي تعمقت بعد ذلك، وتحولت من الاستعمارين العسكري والسياسي إلى استعمار فكري واجتماعي وتربوي على النحو الذي أريد به «إحتواء» العالم الاسلامي كله وصهره في بوتقة الأممية العالمية للقضاء على الإسلام نفسه، وتعد حركة الاستعمار الحديث في تقدير الغرب مرحلة تالية للحروب الصليبية التي انتهت قبل ذلك بثمانمائة عام بالهزيمة الساحقة للغرب حتى إن اللورد اللَّنبي عندما دخل بيت المقدس لم يستطع أن يحبس شعوره وشعور الغرب كله حين قال: الآن: انتهت الحروب الصليبية.

بل إنه ليمكن القول أن الحروب الصليبية التي انتهت في جبهة المشرق عام ١٢٩١ استمرت ولم تتوقف في الجبهة المغربية فإنه بعد أن سقطت الأندلس في يد الغرب معركة استمرت ثلاثمائة عام بين الغرب وبين شواطىء الجزائر والمغرب، ومنها امتدت حركة الغزو الاستعماري (البرتغال واسبانيا) إلى سواحل أفريقيا، و (هولندا) إلى جزائر الملايو. ثم جاءت المرحلة الأشد خطورة بظهور فرنسا وبريطانيا واندفاعها الى السيطرة الأولى على الجزائر والأخرى على الهند، وقد امتدت هذه المرحلة حتى استطاع الغرب في الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) وضع يده بالكامل على أغلب مناطق العالم الاسلامي حيث سقطت القدس مرة أخرى في يد الاستعمار البريطاني الذي سلمها بعد ذلك إلى الصهيونية العالمية.

وهكذا نجد أن حركة الانقضاض الغربي على عالم الاسلام لم تتوقف منذ بزوغ فجر الاسلام وانها استمرت بصورة أو أخرى على جبهات بيزنطة، والشام والبحر المتوسط والأندلس، وغيرها، وإن كان الاسلام قد حقق توسعات ممتدة في الأندلس وجنوبي فرنسا وإيطاليا ثم في الاستيلاء على القسطنطينية والبلقان.

وكانت حركة الغرب كلها في حقيقتها محاولة مستميتة لوقف زحف الاسلام سواء إلى أوربا نفسها أو الى الاجزاء المختلفة من العالم، وكانت الى ذلك حريصة على أن تفسد رأي الغرب في الاسلام نفسه وذلك عن طريق إثارة الشبهات حوله، والحيلولة دون وصول مفهومه صحيحا إلى اهل الغرب، ولذلك عارضت التيار الذي ظهر بعد الحروب الصليبية والذي كشف للغرب سماحة الاسلام وسماحة أهله والذي كذب «الافتراء» الذي كان مصدر الحروب الصليبية كلها خلال مائتي عام وهو القول بأن المسلمين يضطهدون النصارى او أنهم يسيطرون على بيت المقدس ويحولون بين المسيحيين وبينه. ولقد حملت حركة الاستعمار الحديث لواءين في وقت واحد:

١ - لواء إثارة الشبهات حول حقائق الاسلام ومفاهيمه حتى لا تصل إلى الغرب.

٢ - لواء التبشير المسيحي في عالم الاسلام لتحويله عن الاسلام.

(٢)

بدأ التوسع الاستعماري منذ سقوط طنجة في قبضة البرتغاليين عام ١٧٤١ وغرناطة في قبضة الاسبان عام ١٤٩٢ وامتد باسم الكشوف الجغرافية، حين سيطر فاسكو دى جاما عل زنجبار عام ١٥٠٥ واحتلال البرتغال لمسقط عام ١٥٠٩ وسقوط مالقة بالملايو في قبضة البرتغاليين عام ١١٥١ واستراخان وجزيرة القرم عام ١٧٧٣ والقوقاز عام ١٨٥٩ واستيلاء بريطانيا على الهند ابتداء من عام ١٨٣٢ وسنغافورة عام ١٨٣٦ ثم كان احتلال البلاد العربية التي بدأت بالغزو الفرنسي لمصر عام ١٧٩٢ والسيطرة على الجزائر عام ١٨٣٢ وهكذا شاركت فيه اسبانيا والبرتغال فرنسا وإيطاليا وانجلترا وهولندا.

ولقد كان هذا الاستعمار باسم الصليبية الغربية التي لم تنس هزيمتها. يقول دكتور حسين مؤنس: إن أوربا لم تكف عن التفكير في الإسلام والاخذ بثأرها من الحروب الصليبية حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوبي، وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر (السابع والثامن الهجري) سعت إلى تنصير المغول حتى تحصر الاسلام بين دولتين مسيحيتين، وكيف اتصلت الأسباب بينها وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الإسلامية في مصر ثم كيف بدأت تتجه إلى الغرب للوصول إلى الهند وللوصول إلى بلاد الإسلام».

ويقول باركر: مؤرخ الحروب الصليبية: كانت البعثات التبشيرية التي أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الأبد، بيد أن هذا الحلم الخادع قد تهدم عن آخره. نعم تلاشى الحلم الخادع الذي كاد يرسم لأصحابه في الخيال صورة آسيا وأوربا المسيحية تحصران الإسلام بينهما فلا يصح بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن إسبانيا وفي جانب من شرق البحر الأبيض ذلك أن خانات فارس دخلوا الإسلام عام ١٣١٦م وأسلم أهل آسيا الوسطى في منتصف القرن الرابع عشر (الثامن الهجري) وتربعت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتي ١٣٦٨ - ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصين في وجه التجارة الأجنبية، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية وإتساعا بعيدا في رقعة الاسلام الذي أدرك شأنا بعيدا من الاتساع بظهور الأتراك

العثمانيين، ولكن أملا جديدا تراءى للغرب الذي لا ييأس، وكان هذا الامل الجديد سبباً في أكبر انقلاب عرفه التاريخ، وتسأل الاوربيون: إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوربا طريق البحر، لماذا لا تبحر إلى الشرق تهاجم الإسلام من الخلف وبذلك تستعيد بيت المقدس، كان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على ظهورهم واعتقدوا أنهم برحلتهم إلى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضي المقدسة».

وقد كان احتلال بريطانيا للهند وهولندا لجاوه وأرخبيل الملايو كان هو الخط الأول لتقويض عالم الإسلام وكان البريطانيون والهولنديون قد ابتدعوا فكرة استعمار عالم الإسلام بطريقة تأسيس الشركات التجارية فاسس البريطانيون شركة الهند الشرقية عام ١٦١٣ وأسسس الهولنديون الشركة الشرقية ١٦٠٠ والشركة الغربية عام ١٦٢١ وأمتلكوا غينيا وسوريتام وركارب وسيلان عام ١٦٥٣ وجزائر ملقه وفي عام ١٦٨٠ استولوا على جاوه وكان الحضارمة (أهل حضرموت) هاجروا قبل ذلك بأربعمائة عام ونشروا فيها الإسلام وبعد أن تمت حركة التطويق تحولت شركتي هولندا واجلترا إلى استعمار صريح، ولم يلبث الغرب أن ركز ثقله على تمزيق قاعدة الإسلام: «الدولة العثمانية» وقد ظل هذا العمل مستمرا من سنة ١٦٨٤ الى سنة ١٨١٨ خلال مائتين وأربعة وثلاثين عاما وتنافست في ذلك فرنسا وروسيا وبريطانيا واستهدفت في نفس الوقت القضاء على قوة جديدة واستطاعت بالضغط أن تفرض في الداخل نفوذها عن طريق الامتيازات الأجنبية وفي الخارج باقتطاع الوحدات الداخلة في نطاق الدولة العثمانية واحدة بعد أخرى حيث تقاسمت روسيا (حين عبرت القوقاز وبسطت سلطانها على أواسط آسيا) وبريطانيا وفرنسا وتتمثل في هذه الحركة الضخمة، «أزمة الإسلام الكبرى» المكملة للحروب الصليبية والوجه الجديد لها والتي لم تتجمد في جبهة المشرق اكثر من ثلاثة قرون يوم تضاءلت -ولا نقول توقفت- في أواخر القرن الثاني عشر (السادس الهجري) ثم أستأنفت عملها من جديد في منتصف القرن السادس عشر (العاشر الهجري).

وقد تمثلت في عدة خطوات:

١ – تطويق العالم الاسلامي.
٢ – السيطرة على الهند وأرخبيل والملايو.
٣ – تمزيق الدولة العثمانية من الداخل.
٤ – اقتطاع اجزاء من الدولة العثمانية.
٥ – تنازع السيطرة على فارس.

(٢)

ولم تكن حركة الكشوف الجغرافية إلا حركة استعمارية صليبية: ويؤكد هذا المعنى واحد من كبار هؤلاء المكتشفين (ولفنجستون) حين يقول في إحدى تقريراته: إن نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري» وهذه كلمة صريحة تكشف خلفية الحركة كلها عندما يقول: وهذه حقيقة كلية: إذ ان من المحال أن نكتشف أراضي جديدة دون أن تنبه شوق دعوة أهلها إلى الإنجيل »؟.

وتشير حركة الكشوف الجغرافية إلى الرحلات الاستطلاعية للاستعمار والتبشير التي قام بها: ماركو بولو، فاسكودي جاما، ولفنجستون، وصمويل بيكر، وغردون ومنهم من سافر إلى فارس وأفغانستان وبكين: (ماركو بولو – ١٢٢٤) ومنهم من ابحر حول افريقيا ومنها إلى الهند فاسكودي جاما – ١٤٩٧).

ومن العجب أن كتب التاريخ والجغرافيا المدرسية تصف هذه الحملات الاستعمارية بأنها من أعمال الكشف والبطولة. وأن أربابها أسسوا الدول ونشروا أنوار الحضارة وهو ما ليس صحيحا من الوجهة العلمية البحتة فإن هذه البلاد كلها كانت مكتشفة [١] من قبل وقد أوردها مؤرخو ورحالة المسلمين قبل أن يصل هؤلاء بمئات السنين. وذلك أنه منذ القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد) انتشر المسلمون في آسيا حتى بلاد الصين حيث حلوا في موانيها التجارية ومدنها الداخلية وقد عثر في بلاد أنام (الهند الصينية) على مخطوطات عربية ثبت أن جالية مسلمة كانت تعيش في تلك البلاد في القرن

(١) من بحث للدكتور بدر الدين القاسم.

العاشر للميلاد كذلك وصل العرب ما انقطع من الروابط بين الشرق والغرب بعد إندثار الدولة الرومانية وبقيت الطرق البحرية والبرية مفتوحة للتجارة بين البحر الأصفر والبحر الأبيض ومن الجدير بالذكر أن البرتغاليين لم يكتشفوا الهند فقد كانت هذه البلاد معروفة في أوربا منذ العصور الاسلامية، أصبح العرب هم همزة الوصل بين آسيا وأوربا فمن عجب أن تصور الكتب المدرسية التي يقرأها أبناؤنا أن هذه البلاد ظلت مجهولة حتى اكتشفها الأوربيون، وهو غير صحيح، كذلك من العجب أيضا أن تكال لهؤلاء البحارة أوصاف المجد والبطولة، بينا كانوا غاية في البطش والإعتداء والظلم للعرب والمسلمين، فضلا عن أنهم احتلوا هذه السواحل عنوة في أسلوب غاية في الشراسة والظلم وإذا كان لنا أن نقول الحق فإن هذه الحملات الاستعمارية التبشيرية هي بمثابة صفحات سوداء في تاريخ الغرب وحضارته، وأن هذه طلائع الاستعمار الذي لم يلبث أن سيطر على العالم الاسلامي كله ولم تكن هذه الرحلات علمية الطابع وإنما كانت استعمارية الهدف، بحثا عن الذهب والخامات والتوابل لإنتهابها من أصحابها الذين كانوا يمرون بمرحلة إغفاء قصيرة بعد نضال طويل.

وحين نستعرض أعمال الرواد نجد ان الصفة الجامعة بين هنري الملاح وفاسكودى‌جاما، والبوكرك، هو حقدهم على المسلمين والعرب.

أما هنري الملاح فقد حمل في ريعان شبابه على مدينة سبتة التي انطلق منها طارق بن زياد الى الاندلس، ثم تصدى لمدينة طنجة المسلمة فرد على أعقابه فأدرك حينئذ أن عليه أن يقابل الإسلام من خلف أفريقيا والشرق الأدنى فأسس مدرسة بحرية صليبية نذر أصحابها انفسهم لقتال المسلمين في حرب صليبية لا هوادة فيها وأعطاه البابا نيقولا الخامس حق الفتح والاستيلاء على جميع البلاد التي في طريقه الى الهند وقد رفع لواء النصرانية في البلاد النائية وأعاد الى حظيرة الكنيسة أعدائها الألداء كما جاء في خطاب البابا في تكريمه إياه ومع ذلك فهو يوصف في كتبنا المدرسية بالبطولة بينا هو واحد من خصوم أمتنا فقد كان ابتداء من عام ١٤١٩ يرسل كل عام بعثة جديدة إلى سواحل افريقيا الغربية تقاتل أصحاب البلاد وتسيطر عليها.

كذلك فقد اتصف فاسكودىجاما بكرهه للمسلمين كرهاً شديداً ومن مواقفه الإجرامية انه في رحلته الى آسيا وقبل وصوله الى شواطىء الهند أطلق مدافعه الثقيلة على مراكب تنقل الحجاج الى مكة فأحرقها بعد أن نقل اموالهم وأمتعتهم الى اسطوله وبعد أن حظر على رجاله إنقاذ الغرقى منهم وفيهم النساء والأطفال حتى هلكوا جميعاً إلا عشرين طفلا بعث بهم فاسكوديجاما الى البرتغال حيث حملوا على اعتناق النصرانية. بينما يفعل هذا نلقن أطفالنا أنه حمل لواء الكشف في أفريقيا وآسيا والحقيقة أن فاسكودى جاما لم يكتشف شيئاً لأن البرتغال بارتلمي دياز قد بلغ رأس الرجاء قبله بعشر سنين ولأن عبور المحيط الهندي من سواحل أفريقيا الشرقية إلى آسيا كان معروفا من البحارة العرب والهنود منذ قرون وفاسكودىجاما لم يصل الى مدينة كالكوتا كما تقول الكتب المدرسية المقررة ولكنه وصل الى مدينة أخرى تسمى (كاليكوت) وتبعد بأكثر من ألف ميل عن كالكوتا التي تقع على مصب نهر الكونج في الشمال الغربي من الهند.

أما البوكرك: فقد كتب إلى ملكه بفخر بأنه ذبح جميع مسلمي مدينة غوا وجعلهم أكداسا في المساجد ثم أحرقها، وفي عام ١٥١١ انتهى بغتة الى (ملاقا) التي كان يحكمها سلطان مسلم فأعمل النار في سفن المسلمين وخطب خطابه المعروف الذي يقول فيه:

«يجب علينا أن نقتلع الاسلام من جذوره ابتغاء مرضاة السيد المسيح وأن نستولي على تجارة ملاقا حتى يحل الدمار بمكة والقاهرة» هذا الرجل السفاح تذكره كتب التاريخ المدرسية بأنه فاتح مظفر، وكان البوكرك قد احتل جزيرة سقطرة على مدخل البحر الأحمر ومدينة هرمز على مدخل الخليج العربي واستولى على مدينة غوا في الهند التي اصبحت عاصمة النفوذ البرتغالي في آسيا واستولى على ملاقا وبذلك وضع يده على بحار الصين وأصبح المحيط الهندي كله بحيرة برتغالية واستولى على جزر الهند الشرقية ووصل الى كانتون على ساحل الصين، وقد استطاع أن يحقق ذلك لأن هذه المناطق كانت تمر بإغفائة طويلة وقد استيقظ الغرب وحمل نتاج العلم الاسلامي والمنهج التجريبي ليضرب به المسلمين في عقر دارهم أما ولفجستون الذي جاء ١٨٣٧

الى لندن ليحصل على درجة مبشر فقد رحل الى جنوب أفريقيا حيث بدأ عمله، وقد نسب إليه أنه قام بأول كشف جغرافي في هذه البقاع، وقد أعلن عن نفسه أنه إنما يشق طريقاً للدين المسيحي في هذه البلاد ليكون منطلقا للتجارة الأوربية ومن عجب ان يلقى مثل هذا المبشر تكريما من مثل الدكتور محمد كامل حسين الذي يقول عنه أنه شخصية فذة لانه قاد عدداً كبيراً من رجال الإرساليات في جنوب أفريقيا.

وقد وصف صمويل بيكر بأنه مكتشف منابع النيل الابيض وهذا من خداع الاستشراق، ذلك لأن منابع النيل الأبيض لم تكن مجهولة عام ١٨٦١ وأن الذين قادوه اليها هم رجال الحملة المصرية، كذلك ولفنجستون حين وصل الى بحيرة تنجانيقا كان ذلك بمساعدة السيد حامد بن محمد المعروف باسم (تيبوسيب) أشهر تاجر في تلك الأصقاع. وأنه لما انقطعت أخباره عن العالم المتمدن لم يتمكن (استانلي) من الوصول إليه إلا بمساعدة السيد حامد كذلك.

وحول هذا المعنى يقول الدكتور القاسم: الحقيقة أن هذه الرحلات التي قام بها المسيحيون الاوربيون في باطن أفريقيا وعدها أهل أوربا مآثر عبقرية ووضع أصحابها في صف أعاظم الدهر، كان العرب من سياح وتجار ودراويش قاموا بأضعاف أضعافها منذ قرون بدون فخر أو ضوضاء بل بكل بساطة لا يرى الواحد منهم في الذهاب الى بحيرة تشاد او الى الكونغو من الغرابة أكثر مما يرى في الذهاب من تونس الى (غدامس) ولما وصل الاوربيون الى تلك الأقطار ظنوا انها مجهولة عند كل العالم ولم يجدوا في مجاهلها مكانا إلا وفيه عرب او آثار للعرب واللغة العربية.

وجاءت البعثات التبشيرية البروتستانية بعد البعثات الكاثوليكية كما جاءت البعثات الألمانية وغيرها في شبه صراع عجيب للاستيلاء على الارض وكانت الفترة من ١٧٥٠ الى ١٩٠٦ بمثابة نهضة إسلامية كبرى في أفريقيا اتسع منها نطاق الدعوة الاسلامية على ايدي الدعاة المسلمين فلما جاءت حركة التبشير الكاثوليكي والبروتستانتي بدأ صراع شديد إنحسر فيه النفوذ الإسلامي عن كثير من المناطق وتوسع التبشير في بناء مراكز وقواعد عديدة

وكان للإستعمار أثره الكبير في دعم التبشير المسيحي وإيقاف الزحف الإسلامي.

(٣)

وتبعت هذه الحركة، حركة اخرى أشد عنفا، تلك هي حركة تهجير ملايين الأفريقيين إلى أمريكا في مأساة من أشد المآسي التي واجهت الإنسانية كلها وكان ضحيتها الأفريقيين هؤلاء.

يقول مونتسكيو: إن شعوب أوربا بعد ما أبادت سكان أمريكا الأصليين وهم الهنود الحمر لم تر بداً من استعباد شعوب أفريقيا لكي تستخدمها في إستغلال هذه الاقطار الشاسعة. ويقول المؤرخ كاثال: إن شعوب افريقيا السوداء هي التي دفعت ضريبة جنون حب المال عند الأوربيين. لقد أفنى المستعمرون الأوربيون شعب البلاد الأمريكية لاستملاك الأرض الزراعية ثم اقتلعوا الافريقيين من بلادهم ليصبحوا رقيقاً في زراعة الأرض. ويقول المؤرخ جوليان: إن البرتغاليين قد قاموا باكتشافاتهم بعد الحروب الصليبية بدافع انتقامي من التفوق الاسلامي وبدافع إستعماري إقتصادي لإيجاد المستعمرات التي هيئت لتكون مراكز للمواصلات لضرب التجارة العربية في افريقيا الشرقية والهند لهذا فهم أول من روج هذه التجارة في القرن السادس عشر، وقد احتكرها البرتغاليون مدة ليست بقصيرة ثم لحق بهم الإسبان والهولنديون في القرن ١٧ وجاء بعد ذلك الفرنسيون والإنجليز في القرن ١٨، لقد كانت مناطق تجارة الرقيق الأفريقي تمتد حذاء سواحل افريقيا الغربية من موريتانيا حتى الكونغو على ساحل يزيد طوله عن خمسة آلاف كيلومتر، وقد ساهمت معظم الدول الأوربية في غزو افريقيا والمتاجرة بشبابها المستعمرين في أمريكا وجدوا أن الأفريقيين يستطيعون أن يعملوا بدلا من الهنود الهالكين بسبب تشابه المناطق الاستوائية في أمريكا وفي أفريقيا السوداء وقد احتكر الغرب تجارة الرقيق على سواحل أفريقيا الغربية ١٥١٧م بمعدل ٤ آلاف عبد في كل عام وفي عام ١٦٩٠ اعتبرت بريطانيا تجارة الرقيق عملا شرعيا فنقل الانجليز الى أمريكا في القرن الثامن عشر نحوا من(٣٨ ألفا) أفريقي بينما نقل الفرنسيون (٢٠ ألفا) والبرتغاليون والهولنديون(١٤ ألفا) وعمل في نقل هذه

الكتل البشرية الهائلة أسطول ضخم مؤلف من ٨آلاف مركب. وقد دخل الى جزير هايتي أهم مراكز تجمع العبيد منذ عام ١٦٧٠ أكثر من ٨٠٠ ألف زنجي بينا لم يكن فيها عام ١٧٧٦ إلا نحو ٢٩٠ ألف وكان أغلبهم يموت خلال السنين الاولى من شدة العمل المرهق وقد أدخل الاسبان الرق الى الجزيرة لأول مرة عام ١٥٠٢ وفي القرون الأربعة التي تم فيها النقل (١٦-الى ١٩) قدرت بنحو ٢٩ مليونا يرفعها البعض الى ٨٠ مليونا والى ١٥٩ مليونا، وقد لقي عدد كبير من هؤلاء حتفه قبل وصوله الى أمريكا، بسبب الظروف السيئة التي تعرض لها النقل وقدر عدد المفقودين بنسبة أربعة أخماس المجموع، فقد كان يصل عبد واحد ويموت أربعة في الطريق وكانت مطاردة الشباب الأفريقي تستمر ستة أشهر يموت خلالها عدد كبير وإذا أصر الأب على اصطحاب طفله يقتله التاجر الأوربي إذا كان عمره أقل من ثلاث سنوات، وعندما يصعدون الى المركب يقيدون بالحديد لئلا يقذفوا أنفسهم في البحر، وبما أن الزنوج كانوا عراة فإنهم كانوا يهلكون من البرد عندما يتغير المناخ، ويتناول الرقيق جراية بسيطة من حساء الذرة البيضاء، وعندما تصل الباخرة الى مراكز التوزيع في جزر (الانتيل) يسجن الأفريقيون في أماكن ضيقة إنتظاراً لمن يدفع الثمن الأحسن وقد تدوم عملية السفر والانتظار أكثر من عام ويقدر عدد الذين يموتون في جزيرة هايتي سنوياً بثلاثين ألفاً يرهقون بالعمل القاسي ولا يبالي بهلاكهم تعبا إذا كانوا يحصلون منهم على ربح يعادل اثمانهم وقد سجلت صور قاسية من التصرفات الوحشية التي قام بها القراصنة الاجانب نحو النساء الأفريقيات بتنصر المسلم من الرقيق وقد أيدت الكنيسة هذه الإجراءات الظالمة » .

وهكذا نجد صورة الإستعمار قاتمة مظلمة بعيدة عن كل عوامل الحضارة او الرحمة او التمدن الحقيقي وقد جاء ذلك من مصدر أساسي اخذ يمتلك الفكر الغربي وهو الاستعلاء بالجنس واللون على جميع شعوب العالم الملونة.

(٤)

اندفع الغرب بعد أن حصل على الأصول العامة للمنهج العلمي التجريبي الإسلامي متفوقا على أصحاب المنهج نفسه، فكانت الانتصارات التي حققها

البرتغال والإسبان على المسلمين في جبهة الأندلس والمغرب، ومن بعد على المسلمين في جبهة البلقان وتركيا. ومنذ اليوم الأول لسقوط قرطبة بدأت الجولة الأخرى المضادة التي زحفت الى السواحل الاسلامية في أفريقيا حتى وصلت الى الهند، ومنذ ذلك اليوم بدأت مرحلة الإستعمار الاوربي في عالم الإسلام من أجل الإنتقام والسيطرة والاحتواء، مسبقة على الخامات والأسواق.

ولقد حاول الاستعمار الغربي أن يبرر حملته على عالم الإسلام باسم دور الرجل الابيض مما أطلق عليه حمل أمانة «تمدين» البشرية، وقد جاءت النتائج بعد ذلك لتكشف عن دور من أشد أدوار التاريخ ظلما وتجبرا وإذلالاً لبني البشر الذين لم يقبلوا بهذه المحاولة التي استهدفت احتواءهم، فكانت الثورات في كل مكان واستجاش عالم الاسلام من اعماقه بقوة مبادئه لمواجهة هذه الحملة الصليبية الجديدة المتخفية تحت اسم الاستعمار والاحتلال وقد ارتبط الاستعمار السياسي والعسكري والاستعمار الثقافي، بل ان الخطوات الاولى كانت باسم التبشير والإرساليات تمهيدا لخلق أجيال موالية لفكر الغرب تعد إعداداً دقيقاً لتولي قيادات البلاد الإسلامية في مختلف المجالات فتحفظ للإستعمار نفوذه الإجتماعي والثقافي حين ينسحب من الصورة العامة. وهذا هو ما عرف من بعد باسم التغريب والغزو الثقافي والذي خطط له لويس التاسع منذ وقت بعيد ابان الحملة الصليبية السابقة على المنصورة ولقد كان للإستعمار كتاب وفلاسفة (ولا يزال) يدافعون عنه ويشرحون أغراضه ومراميه وهم يحاولون وصفه بأنه رسالة عالمية مقدسة: رسالة المدنية والحضارة، لرفع مستوى الشعوب والأمم، وقد تكشفت وقائع التاريخ عن حرص الإستعمار على إدامة تفتيت الأمم بالإقليميات وجهلها وتبعيتها والحيلولة بينها وبين العلم الحقيقي أو اتخاذ طريقها الى الوحدة.

وقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك بأن الأوربي لم يفد الى الشرق كممدن بل كمستعمر، حرص اول ما حرص على نقل التراث الاسلامي وسرقته وحرمان أهله منه، وكانت تلك جولة واسعة حرص فيها رجاله على جمع اكبر قدر منه ونقله الى الغرب بالاضافة الى نقل الخامات والموارد المتعددة، كذلك عمد الإستعمار الى اسلوبين مختلفين في السيطرة، ففي مناطق الاستعمار الفرنسي عمد

الى الاستيطان: فاستقدم عدداً كبيراً من الفرنسيين وطنهم في الجزائر وتونس والمغرب ليسيطر بهم على الأراضي وانتاجها بعد ان طرد أصحابها الأصليين كذلك عمل الى بناء قلاع ومعاقل حربية للدفاع عن المرافق ومسلك البر والبحر وحراسة مخازن التجارة وعمد الى الحصول على الموارد الأولية والحاصلات الزراعية بأبخس الاثمان لأغراض الصناعة وإعادة بعضها لبيعه بأضعاف ثمنه. كذلك عمل على إنشاء مؤسسات إقتصادية ومصارف ربوية لتوظيف ذهب أوربا التي طفحت به خزائن بنوكها في اواخر القرن الماضي، او فتح الأسواق لبيع مصنوعاته الكمالية والتي تدر قناطير الذهب على الرأسمالية هناك، هذا بالإضافة الى الإستيلاء على الأراضي الوطنية ونزعها من أهلها الذين تعاملوا معه بنظام الربا، ثم عمد الى اقراض الامراء وحكوماتهم لتكبيلهم بالنفوذ الغربي والسعي للسيطرة بإقامة الامتيازات على مختلف الموارد الطبيعية كالمناجم والبترول وتسخير موارد البلاد لصالح المرابين مع الوقوف في وجه أي تصنيع حتى تظل البلاد أسواقاً مضمونة لتصريف منتجات لانكشير وليون وباريس ولندن[1] .

ولقد واجه العالم الإسلامي هذا الزحف بقوة المقاومة، التي استمدها من روح الإسلام، حيث وقفت الشعوب العزلاء من كل سلاح لتقاتل بالاجساد المتراصة، مما دفع الاستعمار الى تغيير جلده مرات ومرات في سبيل البقاء بالادعاء بأن الشعوب عاجزة عن أن تدير شؤونها بنفسها بينما كانت تدير شؤونها في كفاية تامة قبل وصوله بعشرات السنين.

لقد كان هدف الزحف الإستعماري الغربي، الذي هو بمثابة الحلقة التالية للحروب الصليبية العمل أساساً للقضاء على الدولة العثمانية التي كانت قد اصبحت بمثابة الصخرة العاتية في وجه السيطرة الغربية والصهيونية والتي تجمعت حولها الدول الإسلامية في وحدة جديدة تحت إسم الجامعة الإسلامية لمواجهة الزحف الغربي العنيف.

ولا ريب أن الدولة العثمانية هي القوة الإسلامية التي نشأت بعد الحروب الصليبية وحمت العالم الإسلامي من الغزو الغربي خمسة قرون كاملة.

(١) احمد سويلم العمري: النظم السياسية الحديثة.

البَابُ الثالِثُ

الدولة العثمانية وسبعة قرون من الدفاع عن الاسلام

أولا : العثمانيون حول اسوار ڤينا.
ثانياً : الدفاع في وجه الهجوم المضاد.
ثالثاً : محاذير الغزو الفكري.

الفصل الأول

العثمانيون حول اسوار فينا

انتزع المسلمون أخر معاقل الصليبيين في الشرق ٦٩١هـ ١٢٩١م بعد أن استمرت غزوة الغرب الصليبية على أفق المشرق الاسلامي قرابة قرنين كاملين وكانت قد بدأت ٤٩٠هـ- ١٠٩٦م ظلت تتدفق خلالها جماعات الغرب دون توقف على شواطىء الشام ومصر في محاولة السيطرة على رأس الحربة في بلاد المسلمين، وعلى مرمى المدافع من مكة والمدينة وقد أثارت الحملة الصليبية القوى الإسلامية ووحدتها وحررتها من ضعفها وانحرافها الفكري وردتها إلى أصالة الإسلام فالتمست مناهجه وأساليبه وأعلنت الجهاد المقدس، وعاشت مرحلة المرابطة والقتال والدفاع والمواجهة على مدى ذلك الزمن دون توقف، وقد انتهت الجولة الغربية بهزيمة ساحقة.

وكان رد الفعل الإسلامي قوياً وكاسحاً، فقد انبعثت من قلب عالم الإسلام قوة جديدة سرعان ما سيطرت على آسيا الصغرى سنة ١٢٩٩ أي بعد خروج الصليبيين من الشرق بثماني سنوات، تدفقت قواتها المسلمة إلى أوربا فعبرت الدردنيل عام ١٣٦١م وظلت تتوغل في قلب الغرب حتى حاصرت أسوار فينا ثلاث مرات في خلال مائة وخمسين عاما بعد ذلك، بقي نفوذ الدولة العثمانية في أوربا ستمائة سنة (١٢٩٩- ١٩١٧) أوقعت خلالها الرعب في عالم الغرب، وسيطرت على بلغراد والمجر والنمسا وبولونيا وجزائر رودس ومالطة وقبرص، وامتد ملك الإسلام باسم العثمانيين من بودابست على الطونة إلى اسوان على شلالات النيل ومن الفرات إلى بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) وكان ذلك كله يحكم باسم الله. ويعلي من كلمة الله. وكان في حوزة الأسطول العثماني ما يفوق أربعمائة مركب حربياً، وكان سليمان القانوني الذي دخل أبواب المجر وحاصر

فينا يقول: إن خيولنا ليلا ونهاراً مسروجة وسيوفنا مسلولة وكان يكتب تحت عنوان (بعناية الله وعزته وقدرته وبمعجزات سيدنا أمرة الأنبياء محمد) وقد دخلت ضمن المملكة الإسلامية العثمانية كل مدينة شهيرة في العالم القديم ما عدا رومه: (دخلت أثينا واسبارطة والأستانة وانطاكية وبابل، ونينوى وبغداد، وأرشليم، ودمشق ومكة، والمدينة والاسكندرية والقاهرة، وممفيس، وطيبة وقرطاجة)

وكانت فرنسا تلقب سليمان في مراسلاتها بالسيد الأعظم أو امبراطور العالم الكبير، وعجز (شارلكان) سيد الغرب إذ ذاك عن منافسة سليمان القانوني ولم يجد سبيلا إلى استرداد ما دخل في حوزة السلطان من بلاد المجر، ويعد فتح القسطنطينية هو قمة النصر الإسلامي العثماني ٨٥٧هـ- ١٤٥٣م وكان ذلك قمة الموقف بالنسبة للغرب فإنه لم يمض أكثر من أربعين عاماً حتى سقطت آخر معاقل الأندلس عام ٨٩٨م.

بدأ السلطان محمد الفاتح بمهاجمة الأسوار الغربية وكانت تمتد من القرن الذهبي إلى بحر مرمره، ثم رأى على ضخامة مدافعه أنه لا يستطيع التغلب عليها لمناعتها وعظم سمكها فعول على مهاجمة المدينة من أضعف جبهاتها وهي الجهة المشرفة على القرن الذهبي، وكان الروم قد احتاطوا لذلك ومدوا سلسلة عظيمة على مدخل القرن حتى لا تدخله سفن الأعداء لتهاجم الأسوار فلم يثن ذلك من عزم العثمانيين واحتالوا على نقل سفنهم إلى القرن الذهبي بطريقة صعبة لا تزال من أعجب ما حدث في التاريخ وذلك أنهم مهدوا طريقاً برياً بين البسفور والقرن يبلغ طوله نحو الفرسخين ووضعوا عليه عوارض ضخمة من الخشب الذهبي تتدحرج عليها اسطوانات طويلة من الخشب (بكر) وسيروا فوقها ثمانين سفينة صغيرة من اسطولهم الذي كان بالبسفور فجرت عليها السفن والريح تدفع في شراعها كأنها تجري على الماء حتى بلغت القرن الذهبي فنزلت فيه بلاعناء وكان السلطان محمد أثناء نقل هذا الأسطول يضلل حامية المدينة بالحاح على ضربها بالمدافع من باقي الجهات الأخرى. ودخل المسلمون القسطنطينية وسقطت دولة الروم الشرقية، وسار محمد الفاتح إلى كنيسة أيا صوفيا فصلى فيها ظهر ذلك اليوم باسم الله أكبر، صلاة الفتح في ثمان ركعات.

ماذا كان رد فعل فتح القسطنطينية: التي حاصرها المسلمون قبل ذلك مراراً ثم ارتدوا عنها؟ وماذا كان موقف الغرب؟ يقول البارون كارادفو في كتابه (مفكرو الإسلام):

إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقا ولا تيسر لمجرد ضعف الدولة البيزنطية بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ويستخدم كل ما كان في عصره من قوة العلم فقد كانت المدافع حديثة العهد فأعمل في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ. وانتدب مهندسا مجريا ركب مدفعا كان وزن الكرة التي يرمي بها ٣٠٠ كيلوجرام وكان مدى مرماه أكبر من ميل، وقيل إنه كان يلزم لهذا المدفع سبعمائة رجل ليتمكنوا من سحبه وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه، فلما زحف محمد لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ٣٠٠ ألف مقاتل وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر مكونا من ١٢٠ سفينة حربية، وقد سحب جانبا من الأسطول من البر إلى الخليج وانزلوه على الاخشاب المطلية بالشحم، سبعون سفينة انزلها البحر من جهة قاسم باشا «المهم هو الفكرة والإيمان بها والفرد القائم عليها».

(٢)

ومن نصر إلى نصر توالت خطوات الدولة العثمانية في قلب أوربا (١٤٥٣-١٦٨٣) خلال قرنين ونصف بعد ذلك لم يتوقف فيها الزحف والنصر يقول شكيب ارسلان: لقد بقي هؤلاء السلاطين مدة سبعمائة سنة كاملة يذبون عن الإسلام شرقاً وغرباً وجاء وقت كانت فيه أوربا باجمعها ترتعد فرقاً من صولة آل عثمان وكان خوفهم يصل بأهل أوربا إلى أنهم إذا جاء أسطول عثماني إلى طولون أو نيس ابطل الأهالي هناك قرع الأجراس في كنائسهم وكان أهالي فينا لا يبيتون ليلة إلا وهم معتقدون أنهم في اليوم التالي رعايا لإبن عثمان (بين محاصرة فينا الأولى عام ١٥٢٩ والثانية عام ١٦٨٣ مائة واربعة وسبعين سنة) وبقيت المجر ملكا لإبن عثمان مائة وخمسين سنة وبودابست عاصمة إسلامية. وجاء زمن كان الأسطول العثماني هو الأسطول السائد في البحر المتوسط، وكانت ريح الإسلام تقصف في البحر كما تقصف في البر ومن شاء أن يرى التاريخ

الجسم فليذهب ويشاهد جوامع القسطنطينية ومدارسها ويشاهد فخامة تلك الأبنية التي مضت عليها القرون بزلزالها ونوازلها وهي باقية كالاهرام ولم يحتفل آل عثمان بشيء من المباني احتفالهم بالمساجد الشريفة التي صيروها حلة الأستانة وبهائها ومفخرتها في اعين السياح الأجانب وهناك من المبرات لهذه العائلة في الاستانة وتركيا وفي بلاد العرب وفي الحرمين الشريفين نبع خاص لا تحصيه الأقلام ولا تحصيه الآرقام وقد بقي الإسلام مئات السنين في كفالة آل عثمان وكان الترك- والله لا يستحى من الحق- هم سيوفهم المسلولة.

ولم يقتصر فضل الترك على الجهاد بالسيف بل كان لهم من الجهاد بالقلم ومن شاء فليقرأ كتب التراجم ولا سيما (الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية) فيعلم كم خرج من هذه الأمة من فحول العلماء وأساطين الحكماء وكم لهم من موقف شريف إلى جانب الفقه والحكمة ».

وقد كان تشكيل الدولة العثمانية في جوهره « حربياً » كما يقول: كيرك في كتابه: موجز تاريخ الشرق الأوسط، وقد بلغت الدولة العثمانية أقصى اتساع لها عام ١٥١٧ حين ضمت إليها سوريا ومصر.

وكانت الدولة العثمانية دولة إسلامية بمعنى الكلمة في تقدير كل المؤرخين والباحثين، وكانوا يعبرون عن القومية بكلمة الملة وكانوا يقولون على الدوام أن الدين والملة شيء واحد، وكانت جيوش الدولة تخوض الحروب بحماسة دينية شديدة وكانت عبارتهم المشهورة: إما غازي وإما شهيد. وقد أشار شفيق غربال إلى هذا المعنى فقال: كان إمعان السلاطين في شن الحرب في البر والبحر في أوربا نصرة للإسلام ونشراً لبنوده في الأرض والذب عن بيضته، ولنصرة الإسلام نشأت أمارة عثمان ولأجلها حلق أرخان أداة النصر (العسكر الجديد) وفي سبيلها استشهد مراد في ساحة قوصوه وفتح محمد القسطنطينية وتطلع إلى كرسي المسيحية الآخر في رومه ولصون الإسلام سلك جيش مسلم أوعر المسالك في الجبال إلى تبريز والصحراء إلى القاهرة ولحفظ هذا التراث أنفق سليمان أحسن العمر في ميادين القتال، وحال دون امتداد النفوذ الأوربي إلى سواحل البحر المتوسط وجزره واعترض تقدم الاروبيين في اتجاه البحار العربية، وكانت نظم العثمانيين الأول وما أختطه سلاطينهم الأول لشؤن الحرب والسياسة على جانب

عظيم من المرونة والقدرة وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سبباً لطول بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الإسلامية، فقد كانت الدولة العثمانية أول دولة إسلامية غير عربية جمعت بين الخلافة والسلطنة ووافقها المسلمون عليه.

والعثمانيون لم ينتزعوا البلدان العربية من أيدي العرب أنفسهم بل من أيدي المماليك، وكان العرب يطمعون في وحدة تحفظهم من تجدد الغزو الغربي الذي بدأ وشيكا بعد انتهاء الحروب الصليبية على جبهة المشرق، وقد حمى الحكم العثماني الأقطار العربية والإسلامية من العدوان الخارجي أربعمائة سنة والعرب هم الذين وضعوا النظام القضائي الإسلامي على أساس الشريعة الإسلامية للامبراطورية العثمانية وكان لهم أثر بارز في الإدارة الداخلية فيها، وشيخ الإسلام كان يمثل السلطة التي يحق لها الفتوى الإسلامية، وكان الإسلام هو الجامع الأوحد بين العرب والترك في رابطة متينة استمرت أربعة قرون وكان العرب كمسلمين يعتبرون شركاء للترك وكانوا مثلهم في الحقوق والواجبات بدون تمييز عنصري وكانت الوظائف العليا سواء العسكرية أو المدنية مفتوحة للعرب، وكان للعرب ممثلون في مجلس المبعوثان وأصبح كثيرون منهم رؤساء وزارة ومنهم كان شيخ الإسلام.

يقول برنارد لويس: كانت الامبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تكرس قواها في سبيل تقدم شوكة الإسلام وحمايته ضد أي اعتداء خارجي وقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون في حرب مستمرة ضد الغرب المسيحي، أولا: لمحاولة فرض حكم إسلامي على جزء كبير من أوربا وهي محاولة رافقها النجاح. وثانيا لشن حرب دفاعية تقف في وجه الهجوم المعاكس الذي قام به الغرب وكانت الامبراطورية العثمانية في نظر الرجل العثماني بمثابة الإسلام ذاته.

(٣)

مضت عمليات الغزو في أوربا وأوغلت فيها في وقت كانت موجة الاسلام تنحسر من الاندلس بسقوط غرناطة في ايدي الاسبان عام ١٤٩٢م وقام الأتراك بتعويض الخسارة، وانهارت معاقل أوربا تحت مطارق العثمانيين الذين

انتقلوا من نصر إلى نصر، وتوغلوا في قلب القارة الأوربية وفتحوا جبهة بحرية في حوض المتوسط، حيث انتزعوا أهم جزره: رودس، قبرص، كبريت، الجزر الايونية، وكذلك القواعد العسكرية التي كانت قد اتخذتها اسبانيا والبرتغال على الشاطىء الشمالي لأفريقيا.

ثم نقل الأتراك جبهة القتال إلى الحوض الغربي للمتوسط حيث كان الاسبان قد اشعلوا حروبا صليبية بالغة العنف والضراوة ضد القوى الإسلامية في شمال أفريقيا وخاض الترك معارك بحرية ضد الأساطيل الأوربية المتحالفة. واستطاعت الدبلوماسية العثمانية أن تجتذب فرنسا إلى جانبها تتبادلان المعونة وقدمت فرنسا للعثمانيين ميناء طولون الحربي لتأوي إليه الوحدات البحرية العثمانية، وكان أبرز الصليبيين: شارل الخامس أو فيليب الثاني. وقد قام الأتراك بعمليات حربية ظافرة حتى وصلوا أسوار مدينة فينا عاصمة النمسا واعتنق الإسلام بفضل العثمانيين جماعات من السكان في أقاليم البلقان ووسط أوربا، وبفضل الأتراك العثمانيين لا تزال تعيش حتى اليوم اقليات إسلامية في بولندا وبلغاريا ويوغوسلافيا وألبانيا وما يؤخذ على العثمانيين أنهم لم يعمقوا الإسلام في نفوس أهل أوربا ولمْ يجلعوا منه محورا تتجمع حوله الشعوب التي دانت لهم عسكرياً وسياسياً.

ومن الحق أن يقال أن الدولة العثمانية هي بديل الأندلس، فإنه عندما اخذ نجم المسلمين يأفل في بلاد الغرب الأوربي كان نجمهم يشرق ويسطع في الجانب الآخر من القارة الأوربية (بلغاريا والمجر والغرب والبانيا والبندقية) هذه الدولة التي نمت في بلاد الأناضول ثم تدفقت سيلا إسلاميا عارما على الغرب خلال أكثر من قرن ونصف في مرحلة المد الأولى حتى توقفت عند اسوار فينا بعد أن حاصرتها أكثر من مرة.

ومنذ برزت دولة بني عثمان ٦٩٩هـ ١٣٠٠م فقد استطاعت أن ترفع راية الإسلام، بالرغم من الضربة العنيفة التي وجهت إليها من التتار فإنها سرعان ما استعادت قوتها وعادت إلى امتلاك إدارتها وقد كانت ضربة تيمورلنك عام ٨٠٤م باتفاق بين فرنسا والبابا يؤيد ذلك الكتاب الذي حمله إليه وقتئذ

الراهب (فرنسيفوس) من ملك فرنسا شارل السادس الذي كتب جوابه تيمور بعد أن قضى على آل عثمان وقد أرسل ملك اسبانيا يهنىء تيمور على إجهازه على آل عثمان، وقد دلت وثائق تاريخية كثيرة ظهرت في السنوات الأخيرة على أن الصليبيين اتصلوا بالفاتحين المغول وحرضوهم للحملة على المسلمين (وكانت أم هولاكو وزوجته مسيحيتان) وكانت الخطة هي وضع العالم الاسلامي في كسارة البندق بين الصليبيين والتتار ثم الإجهاز عليه، ومن ثم انطلقت البعثات من البلاطات الأوربية الدينية والسياسية تخطب ود التتار وتعمل بمكر شديد على تحويل أنظارهم عن أوربا إلى القضاء على عالم الإسلام، وكانت الحملة على بغداد باتفاق وتحالف كمقدمة للقيام بحملة مشتركة ضد الدولة السورية والمصرية (جان بورو- الإسلام في الغرب) ولكن المؤامرة بين المسيحية الغربية والوثنية المغولية فشلت ونجت دولة الإسلام لتقود معركة طويلة بعد ذلك ضد الغرب إمتدت أكثر من قرنين ونصف ولقد حاول هولاكو في نطاق هذه المؤامرة- أن يتجه إلى مصر ولكنه فشل بعد أن هزمت الحملات الصليبية.

نقول إنه بالرغم من هذه الضربة العنيفة فقد استيقظت الدولة العثمانية سريعاً واتجهت إلى أوربا فيا بين ١٣٠٠- ١٥١٦ ومن خلال حكم تسع سلاطين نشرت جناحيها فوق ربوع آسيا الشرقية. وكانت الفكرة الأساسية عند الدولة العثمانية خلال القرون الوسطى وما بعدها أن الإسلام كله في حالة حرب مستمرة مع المسيحية كلها لا يستثنى من ذلك إلا الأمم والدول الداخلة تحت الطاعة والتي تدفع الجزية وقد وجه العثمانيون جهدهم لفتح أوربا ونشر لواء الإسلام فوقها وتمكنوا خلال القرنين الأولين من دخول بلاد البلقان وبلاد المجر والكثير من بلاد النمسا وجنوب البلاد الروسية حول البحر الأسود ووقفوا أمام جدران مدينة فينا.

ولولا لطمة المغول وحربه وقهره للسلطان بايزيد عام ١٤٠٣ وما عقب ذلك من فترة خلل عطلت الفتوحات الإسلامية خمسين سنة لبلغت الدولة العثمانية مبلغاً عظيا قبل أن توحد أوربا جهودها وتستعد لمقاومة المسلمين ».

ويمكن القول أنه منذ عام ٩٠ هجرية والإسلام يقتحم أوربا من الغرب حتى إذا تداعت اركانه في اسبانيا اقتحم أوربا من الشرق، وفي الأولى استمر ثمانية

قرون وفي الأخرى ستة قرون هي عمر الإسلام نفسه (بل إن غرناطة لم تسقط إلا بعد أن استولى محمد الخامس على (اسلام بول): القسطنطينية العظمى عاصمة مملكة الروم الشرقية بأربعين سنة.

ولقد كانت خطوة الدولة العثمانية في الارتباط مع العرب خطوة هامة، فإن البلاد العربية كانت تعاني من محاولات غدر أوربية بعد أن انتهت الحروب الصليبية وكانت لما تزال مثخنة بجراح قرنين كاملين من المقاومة، ومن هنا كانت تنظر إلى الدولة العثمانية كنصير كبير ومظلة ضخمة يحتمي تحتها أهل لا إله إلا الله دون نظر إلى المفاهيم التي ظهرت من بعد مما يسمى قوميات أو استعمار.

والواقع أن العثمانيين لم يتعرضوا للبلاد العربية التي كانت تحت سلطان الأتراك المماليك إلا بعد أن ظهر تحالف السلطان قانصوه الغوري مع الشاه اسماعيل سلطان فارس، لمحاربة الدولة العثمانية، عندئذ اتجهت جيوش العثمانيين إلى الشام ومصر وبذلك أصبحت الامبراطورية العثمانية تمتد من مدينتي فينا وبودابست في قلب أوربا إلى طرابلس الغرب واحيطت أوربا بالخطر الأكبر واستعدت لمقاومة جيوش الإسلام المكتسحة، وهنا وقف العثمانيون وجها لوجه أمام دولة اسبانيا التي كانت مهيمنة على أوربا الجنوبية.

الفصل الثاني

مرحلة المقاومة الدفاعية في وجه الهجوم المضاد

انتهى المد الإسلامي عند أسوار فينا وبدأت مرحلة المقاومة منذ هزم العثمانيون في معركة ليبانت البحرية عندما تجمعت الدول الأوربية تحت اسم الإتحاد المسيحي للقضاء على الأسطول التركي وقد اشترك في هذه المعركة: اساطيل البابا واسبانيا والبندقية ومالطة والسافو المتحدة.

ويمكن القول أن مرحلة المقاومة بدأت منذ ذلك التاريخ ١٥٧١م وإن كان العثمانيون قد حققوا عديداً من الإنتصارات بعد ذلك حتى معاهدة كارلو فينز ١٦٩٩ التي توصف بأنها ختام مجد آل عثمان. هذه المرحلة التي تبدأ من هذا التاريخ وتستمر حتى الحرب العالمية الأولى يمكن وصفها بأنها «شن حرب دفاعية» للوقوف في وجه الهجوم المضاد الذي قام به الغرب، وقد انتهت في خلال عصر السلطان عبد الحميد إلى (حرب دفاعية سياسية) بعد أن تخلصت الدولة العثمانية من أجزائها الأوربية، فقد كان الموقف مشابهاً تماما للموقف الغربي من اسبانيا ومحاولة تطوق البلاد المغربية بعد استعادة الأوربيين لها، كذلك فإن الخطة كانت تستهدف بعد تحرير الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية: العمل على تقسيم الأمبراطورية وتمزيقها، وكانت هذه الخطط قديمة جدا ومتصلة حتى أن الوزير الإيطالي «جوفارا» أحصاها في مائة مشروع هي مائة مؤامرة على تمزيق الدولة العثمانية والقضاء عليها وقد بدأت هذه المؤامرة منذ وقت باكر واستمرت ستة قرون متتابعة، فمنذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية بدأ الغرب مؤامراته ضد الدولة العثمانية، ولقد استغل الغرب كل اساليب الحرية والتسامح الإسلامية في العمل على ضرب هذا الكيان والانتقام منه، ولقد واجه الغربيون المسلمين بالعدواة والتعصب بالرغم من تسامح المسلمين وإتاحة الفرصة لهم لإقامة شعائرهم وتعاملهم الحر. وقد شهد كثير من مؤرخي

أوربا المنصفين بذلك يقول: (لامنس ورامبوا) إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد ديني. وكانت حكومة الترك لا تعارض احداً في دينه وكان الأتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة، ليس هذا وحده شهد به المؤرخون الغربيون، بل لقد ذهبوا إلى ابعد من ذلك. إلى أن هزيمة الدولة العثمانية في الأخير كانت نتيجة تسامحهم مع النحل غير المسلمة: وإن هذا التسامح كان مدخل المؤامرة على الدولة العثمانية ولحمتها وسداها. يشير إلى هذا المعنى دوجوفاترا في كتابه (مائة مشروع) إن من اعظم اسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين، كانت تبث دعايتها القومية، وتتماسك وتنهض وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية» بل إنهم ذهبوا إلى أبعد مما أشار إليه دوجوفاترا، لقد عملوا إلى «تغريب تركيا» حتى تكتب من اليسار إلى اليمين حتى لا يكون الإسلام مجاوراً لأوربا، وتكون فاصلا من عالم الإسلام وبين أوربا ويرجح كثير من المؤرخين أن مؤمرات العودة إلى منطقة بيت المقدس والسيطرة على العالم الإسلامي بدأت بعد انتهاء الحروب الصليبية مباشرة ومنها الزحف على شمال أفريقيا ومعركة الثلاثمائة عام مع الجزائر بالإضافة إلى الحملات التي وجهت إلى مصر وسوريا، فضلا عن أولئك الذين طالبوا ملوكهم بالسيطرة على المنطقة الجامعه بين البحر الأحمر والبحر الابيض.

وكان الرهبان ومستشاري الملوك يقومون برحلات سرية إلى هذه المناطق ليحرضوا ملوك الغرب على معاودة الحرب، ولقد كان البابا جريجورس الثاني عشر قد أعلن فعلا الحرب الصليبية مرة أخرى على المسلمين في ٩ نوفمبر ١٤٠٧ الا أن هذه الخطة فشلت بعد أن استولى الاتراك على القسطنطينية وقبرص.

ويركز المؤرخون على معركة (ليبانت) التي هزم فيها العثمانيون لأول مرة ويرونها علامة على انتهاء مرحلة المد الاسلامي العثماني في الغرب وبدء مرحلة الهجوم المضاد.

ولقد كان السلطان سليمان القانوني- ١٥٦٦ أضخم اسم في أوزبا جاء بعد

فتح القسطنطينية: ذلك الحدث الفذ الذي اعتبره أغلب المؤرخين «مبدأ العصور الحديثة» فأتم هذا الفتح باقحام ولايات البلقان مما نعرفه اليوم بأسماء (رومانيا، بلغاريا، اليونان، يوغسلافيا، البانيا، بلاد المجر) وكان البحر الأسود كأنه بحيرة عثمانية واسطولها يجوب عباب البحر الأبيض متحديا اساطيل البندقية والبابا والامبراطور شارل الخامس (شارلكان) الذي كان اقوى ملوك أوربا: امبراطوراً للنمسا واسبانيا والأراضي المنخفضة، هذا التوسع لم تصحبه الدعوة إلى دخول هذه الأمم في الإسلام ولذلك فإنه سرعان ما انهار عندما ضعفت بيضة الأتراك الحربية وحين بلغت الدولة ذروتها العسكرية والحربية، لم تجد اسس التقدم العلمي والإجتماعي والفكري مساندة لبقائها، فقد استطاعت اسبانيا متحالفة مع البابا والبندقية أن تنزل بها هزيمة فادحة وتحطم اسطولها في موقعة (ليبانتو) عام ١٥٧١ التي يعتبرها الغرب من المواقع البحرية الحاسمة، ولكن هذه الموقعة لم تقض على الدولة العثمانية التي سرعان ما استعادت قوتها وحققت انتصارات جديدة وتوسعات كبرى وكان استيلاؤها على قبرص قطعا لأحد سواعد البندقية بل إنه بعد بضعة شهور من معركة ليبانت خرج من القسطنطينية ٢٥٠ مركباً حربيا كاملة العدد والعدة وشرعت تتحدى اساطيل العدو وألقى الأسطول الذعر في قلب البندقية فانسحبت من تحالفها وامضت الصلح مع آل عثمان ولم تمض أكثر من مائة عام حتى غزت فينا مرة ثانية عام ١٦٨٢ وكانت الأولى عام ١٦٢٩ وقد اخفقت المحاولة إخفاقاً ذريعاً وبددت شمل جيشها واجبرت على أن تجلو عن بلاد المجر جميعاً فقد تألبت أوربا على الدولة العثمانية وتجمعت قوى النمسا وبولونيا والبندقية ومالطة والبابا وروسيا وأطلقوا على تجمعهم الحلف المقدس وزحفوا عليها من كل صوب.

هذا ما أطلق عليه الحلف المقدس من الامبراطور وبولنده والبندقية واستمرت الحرب مشتعلة سنين عدة في البر والبحر، حتى قبلت الدولة العثمانية معاهدة عام ١٦٩٩ وهي معاهدة كان لها أثر كبير في تاريخها ففيها لأول مرة رضيت بالتنازل عن مناطق واسعة من أراضيها، لقد أخذ الغرب موقف المهاجم منذ ذلك التاريخ واخذت الدولة العثمانية موقف الدفاع.

وبدأ العثمانيون مرحلة المقاومة في صلابة وعناد وجاء محمد كوبريالي الالباني

الصدر الأعظم فاستطاع أن يوثق عرى الامبراطورية من جديد وتمكن ومن بعده خلفاؤه القيام بدور خضم هدد دول جنوب شرق أوربا وأنهك خطوط الدفاع في الغرب.

ولقد انحصرت معركة الدولة العثمانية مع الغرب في منطقة البلقان. بينا سار الغربيون في قوة للسيطرة على العالم الإسلامي وتطويقه. والسيطرة على المحيطات: إلى المناطق الإسلامية في الهند وأندونيسيا وأفريقية الاستوائية، على النحو الذي يصوره توينبي.

«كان الغربيون بقوة في السيطرة على المحيط وفي السيطرة بالتالي على العالم، وهكذا لم يكتفوا بسبق المسلمين إلى إكتشاف أمريكا واحتلالها بل توغلوا كذلك فيا كان تراث المسلمين الخاص: أندونيسيا والهند وأفريقية الاستوائية، وأخيراً بعد ما طوقوا العالم الإسلامي وألقوا عليه شباكهم انتقلوا إلى مهاجمة عدوهم القديم في عقر داره، وقد افتتح هذا الهجوم المركز الذي شنه الغرب الحديث على العالم الإسلامي النزاع الحالي بين المدنيتين».

ويمكن القول أن معركة المقاومة التركية والتي استمرت حتى أوائل الحرب العالمية الأولى كشفت عن ضعف الأتراك العثمانيين في مجال القوة المادية والتقدم العلمي الذي أحرزه الغرب والذي كان قد تدافع ليقاتل بأسلحة جديدة منها المراكب التجارية بينا كانت الدولة العثمانية لا تزال على أساليبها القديمة ومن ثم وقعت في هزائم ضخمة وتكبدت خسارة كبرى. وكانت المرحلة الأولى هي تخلص الأجزاء الأوربية من النفوذ العثماني وكانت المرحلة الثانية هي سيطرة الإستعمار الغربي على الأجزاء الإسلامية بدءاً بالجزائر ومصر والسودان وتونس حتى سقطت آخر هذه الأجزاء وهي الشام والعراق خلال الحرب العالمية الأولى، وفي هذه المرحلة الأخيرة برز دور السلطان عبد الحميد في مقاومة الإستعمار ورفع لواء الجامعة الإسلامية في وجه الإستعمار ومعارضة المؤامرة الصهيونية على أراضي فلسطين.

وقد كانت المقاومة في هذه المرحلة سياسية ولكنها لاتقل خطراً عن المرحلة العسكرية السابقة لها، فقد بذل السلطان جهدا وبراعة واقتداراً في السياسة وفي

ضرب دول الغرب بعضها ببعض مما أجل عملية السيطرة الكاملة على المنطقة سنوات طويلة.

(٢)

كانت الخطة التي وضعها الغرب على المائدة منذ استولى محمد الفاتح على القسطنطينية وتوغل سليمان القانوني إلى قلب أوربا مكونة من شقين هما:

أولا: رد الإسلام عن أوربا.

ثانياً: وقمعه في بلاده حتى لا تقوم له من بعد قائمة توسع نحو الغرب.

قال جود فرواكورت في كتاب عنوانه الصليب والهلال: إن الإسلام قد عمل ما لم يجرؤ أن يعمله دين آخر، ذلك بأن الصليب تغلب على كل شيء أمامه وجاء الإسلام أخيرا فتغلب عليه ومن هنا نشأت تلك الخطط التي أطلق عليها الوزير الروماني «مائة مشروع لتقسيم تركيا»:

يقول: إن المسلمين كانوا أرعبوا أوربا وضعفت لهم اسبانيا مع عظمتها وفي أواخر القرن الثاني عشر امتد سلطان العرب (وهم لا يقولون المسلمون تعصباً) من الهند إلى الأطلانطيك وصارت حضارة بغداد والبصرة أعلى وأرقى من حضارة أكس لاشابل وباريس وكان الفرنج تحت قيادة شارل مارتل هم الذين أوقفوا المسلمين في بواتيه وأنقذوا النصرانية فمن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون أوربا إلا تحت اسم بلاد الافرنج وقد بدأت الحروب الصليبية فاخرت فتح الأتراك للقسطنطينية مدة ثلاثمائة وخمسين سنة، ودخل الأتراك أوربا عام ١٣٥٦ فعبروا مضيق الدردنيل وفتحوا أدرنة عام ١٣٦٠وفي فترة ما بعد الحروب الأوربية ويحرضونهم على عمل مشترك يقومون به لدحر الإسلام ولا سيما في فلسطين وجاءت الدعوة إلى التوقف عن مقاتلة المسلمين بالسيف ومقاتلتهم بالتجارة بما يسمى حرب الإسلام بمشروع كارلوس الثاني ملك صقلية، وتوالت المشروعات بعد عودة عكا إلى المسلمين عام ١٢٩١ وكانت كل الخطط تستهدف توحيد الغرب في وجه الإسلام.

يقول (البابا ماكسيميليان) إن السلطة التركية قد تبسطت تبسطاً هائلا بسبب نذالتنا إلى حد أننا أصبحنا لا نقدر أن نقف في وجه أعدائنا إلا إذا

اجتمع ملوك المسيحيين بأسرهم لصد هذا العدو بمناصبته القتال براً وبحراً، ولما كنا على ثقة بأنه لا يوجد في المسيحيين ملك يقدر أن يقاوم سلطان الترك منفرداً بقوته كان لا مندوحة من أن ندعوهم جميعاً».

وتشكل الحلف المقدس تحت زعامة البابا لمقاتلة الأتراك: ٢٥ مايو عام ١٦٧١ وأطلق عليه الحلف المسيحي الثالث عشر: مكوناً من البابا بيوس الخامس وفيليب ملك اسبانية وجمهورية البندقية، هدفه إعلان الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لاسترداد جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس.

ولما هزم العثمانيون في ليبانت: أرسل البابا يثير المسلمين على تركيا وكتب إلى شاه العجم يقول إنه لن يجد فرصة أحسن من هذه الفرصة من أجل الهجوم على العثمانيين، ولكن هذه الرابطة لم تلبث أن انحلت وصالحت البندقية الباب العالي. ولكن خطط التآمر والانقضاض لم تتوقف، وفي ظل هذه الحملات الموجهة من الغرب إلى العثمانيين نشأت الأجيال المتوالية في أوربا، على هذا الحقد وهذه الكراهية وتجددت المشروعات التي ترمي إلى محو تركيا والإسلام بأسره، وكان نابليون قد درس تقسيم السلطنة العثمانية مع الروس وكان يرى أن يستولي على القسطنطينية وقدم تاليران إلى نابليون في ١٧ أكتوبر عام ١٨٠٥ مشروعاً بتقسيم السلطنة، وتعددت المطامع والخطط حتى قال فندال: أنه لم يكن في ذلك الدور رجل سياسة إلا وعنده برنامج بتقسيم للسلطنة العثمانية، محتفظ به لوقت الحاجة.

وتوالت منذ ذلك الحين الحروب على الدولة العثمانية في محاولة لاستخلاص الأجزاء الأروبية، وفي عام ١٨٣٠ بدأت الضربات توجه إلى الأجزاء العربية حيث احتلت فرنسا الجزائر وعمدت الروسيا إلى السيطرة على الأجزاء المجاورة لها فوصلت إلى أدرنة وأجبرت الباب العالي على قبول شروطها عام ١٨٧٨ هنالك عقد مؤتمر برلين: أخطر محاولة لتمزيق الدولة العثمانية أو «نهب» أملاكها كما صوّره كثير من المؤرخين.

يقول أرنولد توينبي: أنه بعد فشل الأتراك أمام فينا عام ١٨٦٣ كان يجب

أن يتم الهجوم المعاكس الغربي على العالم الإسلامي في يوم أو آخر ، وقد أجاب العالم الغربي على استيلاء الأتراك على البلاد المسيحية والأرثوذكسية الشرقية في القرنين الرابع والخامس عشر بتأمين سيادته على البحار لتطويق البلاد الإسلامية عوضاً عن مقاتلتها وجها لوجه وكانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين وتشدد عزائم المسلمين أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم إن وراثة أوربا عداوة الترك لأنهم كانوا آخر كتيبة من كتائب الإسلام منذ ثلاثة عشر قرنا صدمت جدار الحصن المنيع الذي اعتصمت به أوربا المسيحية منذ عادت أدراجها مهزومة في معركة صليبية ثم نفدت منه وتركت كلمة الله تعلو فوق شواهق جباله .

(٣)

كان مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ أول محاولة لغرس السكين في جسد الدولة العثمانية فإن بسمارك الذي كان سيد الغرب في هذا الوقت بعد أن هزم وضمها إلى بروسيا ، وبعد أن سلم نابليون الثالث سيفه لملك بروسيا وانهارت الامبراطورية الفرنسية الأوربية عام ١٨٧٠ وحيث اقتطعت الإلزاس وجزء من اللورين من فرنسا ، وتضعضعت قوة النمسا وانهزمت الامبراطورية ، النمسوية البحرية أمام قوة بروسيا ، انبعثت من جديد فكرة التحالف الأوربي المقدس ومحاولة اقتطاع أملاك الدولة العثمانية خاصة الأجزاء الأوربية منها في البلقان وآسيا الصغرى ولذلك فقد جمع بسمارك بين إرضاء مطامع الروسيا والنمسا بإعطاء الأولى الاشراف على شرقي البلقان والأخرى غربي البلقان على أن تذهب انجلترا إلى شرق البحر المتوسط وإلى مصر وأن تستعيض فرنسا عن الإلزاس واللورين سوريا أو تونس وكانت فكرة بسمارك تستهدف تقسيم أراضي الدولة العثمانية لإرضاء الدول الكبرى في أوربا محافظة على تفوق ألمانيا في القارة الأوربية ووجد في وضع هذا الحل للمسألة الشرقية وسيلة يسترضي بها الدول الكبرى ، وقد حضر المؤتمر الذي عقدته المانيا ، والنمسا ، والمجر ، وفرنسا ، والمملكة المتحدة وإيطاليا والروسيا وكانت أهم الشروط تحرير بلغاريا والبلقان والجبل الأسود والبوسنة والهرسك والصرب ورومانيا ، وأن يتنازل الباب العالي لروسيا في آسيا عن أراضي أردهان وفاروض وبالطوم وأن يعلن الباب العالي

رغبته في منح حرية الاعتقاد الديني ولا يجب أن يقف الاعتقاد الديني عقبة في سبيل الحقوق السياسية والدينية وتعترف بحق القناصل في حماية رعاياهم، وهكذا كان مؤتمر برلين أقوى ضربة وجهت للدولة العثمانية من حيث:

أولا: تقسيم ممتلكات الدولة في البلقان بين الدول الأوربية.

ثانياً: دعم نفوذ الامتيازات الأجنبية في الدول العثمانية، حيث وسعت نفوذ القناصل، ذلك النفوذ الذي سيعمل على قتل كل حركة إصلاح سياسي واجتماعي واقتصادي أو تشريعي في الدولة العثمانية وسيعمل على تدهورها النهائي.

ثالثاً: فرض حماية الدول الأوربية على شعوبها المسيحية المقيمة في الامبراطورية وتأليبها على الحكم العثماني (انجلترا البروتستانت، فرنسا الكاثوليك، روسيا: الأرثوذكس).

وهكذا كانت معاهدة برلين ١٨٧٨ هي الخطوة النهائية لتمزيق الامبراطورية العثمانية وهذه هي المرحلة التي بدأ فيها القتال بسلاح السياسة وهو السلاح الذي استعمله ببراعة السلطان عبد الحميد خلال الأربعين سنة من حكمه:

لقد ثارت الأجزاء الأوربية وعمدت إلى الإنفصال ولكن الخطر كان في تدافع روسيا وانجلترا للسيطرة على الأجزاء العربية في مصر والسودان والجزائر وتونس وتدافع روسيا للسيطرة على الأجزاء الإسلامية الاسيوية وهذه هي طبيعة المرحلة التي بدأت ١٨٧٨ واستمرت أربعين عاما حتى نهاية الحرب العالمية الأولى والتي انتهت بتصفية الأجزاء العربية الإسلامية من الدولة العثمانية والسيطرة الفعلية على العالم الإسلامي كله وقد ظهرت حركة الجامعة الإسلامية في محاولة من السلطان عبد الحميد لتجميع المسلمين كرد فعل لهذا المؤتمر وللأخطار التي نجمت منه وخاصة الحرب الروسية التركية واتساع أطماع فرنسا وانجلترا، فقد كانت الدعوة إلى اتحاد المسلمين خارج الدولة العثمانية معها تحت لواء الخلافة من الحركات القوية التي هزت عالم المسلمين تدافعاً إلى الوحدة والمقاومة، كما هز عالم الغرب وأثار مخاوف لاحدلها، مما دعا إلى العمل السريع

على إقصاء السلطان عبد الحميد وهدم محاولته وكان السلطان عبد الحميد قد اتخذ سلاح السياسة وتأليب الخلافات بين دول أوربا وسيلة للحيلولة دون تجمع الغرب على العالم الاسلامي وتركيا ومن ذلك عمله في كسب نفوذ ألمانيا بعد بسمارك، ووضع مشروع سكة حديد بغداد والعمل على ربط برلين باستامبول ببغداد لمقاومة نفوذ إنجلترا في الشرق الأدنى والأوسط، وقد كان لهذا الإتجاه اثره في مخططات إنجلترا ومطامعها، مما دعاها إلى العمل السريع للقضاء على الدولة العثمانية بانتزاع العرب وهم شطر الدولة إلى صفهم وخداعهم والقضاء بهم على الدولة العثمانية في الأجزاء العربية (الحجاز - الشام) وكانت الصهيونية من وراء هذا الإتجاه كله، باعتبارها صاحبة رؤس الأموال الربوية العامة في محل التجارة من حيث مطامعها في السيطرة على فلسطين التي حال السلطان عبد الحميد دون تحقيقها.

الفصل الثالث

محاذير الغزو الفكري

لا نستطيع أن نفهم مؤامرة الغرب على الدولة العثمانية دون أن نكشف عن ذلك الجانب الخطير الذي صوره كثير من المؤرخين بأنه كان عاملا هاما من عوامل هزيمة الدولة: ذلك هو استغلال الغرب سماحة الدولة العثمانية في إعطائها أهل الأديان الأخرى حرية العبادة وإفساح الطريق أمامهم في المساواة الاجتماعية وكان مصدر هذا ومنطلقه منح الامتيازات للدول الأجنبية، بمعنى السماح لكل مذهب بحرية ممارسة طقوسه وعبادته وإعلان حرمة الأديان وإعطاء كل طائفة الحق في إنشاء مدارس خاصة بها، فإن معنى ذلك، وخاصة بعد أن أعلنت كل دولة في مؤتمر برلين أنها تحمى رعايا مذهب من المذاهب المسيحية داخل الإمبراطورية، كان معناه كما صوره المؤرخون الغربيون أنفسهم، أنه عامل أدى إلى انهيار الجسور الأخيرة التي ضمت المملكة العثمانية فقد فتح الباب واسعا «إزاء الطوفان الثقافي الذي نبع من الغرب ودفع على هيئة تيارات قوية عبر المسالك التي فتحتها أوربا إلى الشرق».

ومن أهم من أشار إلى هذا المعنى وأولاه عناية كبرى (بول شمتر) مؤلف كتاب (الإسلام قوة الغد العالمية) حين قال: لقد بدأت حقيقة تاريخية تنساب فيها الموجات ذات الأثر الفعال الذي سيقرر مصير العالم الإسلامي بالنسبة لاستمرار التطور، فلأول مرة في تاريخ الإسلام، يسوى بين المسيحي والمسلم في قانون مدني في دولة إسلامية، لقد قصد الباب العالي بهذه التسوية عام ١٨٥٦ أن يلعب بها دوراً في الأرجوحة السياسية في عالم الصراع بين القوى الكبرى، غير أنها كلفته كثيراً، فقد انتقضت من سلطاته المطلقة وأضعفت هيبته داخل المملكة وفي أوساط المواطنين المسلمين، فتحت ضغط القوى الغربية اندفع فيضان التجديد إلى أبعد من هذا، ففي أواخر العقد الخامس فوجىء الشعب

باصلاحات في القضاء وفي الأجهزة المالية ولم يتوقف عند هذا الحد بل واصل تقدمه، فحصل لبنان على نظام جديد منح المسيحيين امتيازات جعلت كفتهم راجحة على كفة غيرهم».

وهكذا يرى شمتر أن اضطرار الدولة العثمانية تحت ضغط الدول الأوربية إلى السماح لكل الطوائف بحرية النشر وحرية التعليم لم يحقق اثراً إصلاحياً بين المواطنين بقدر ما فتح أبوابا اخرى أمام القوى الغربية للسيطرة وإن تجربة تركيا التي بدأها السلطان محمود بالاستعانة بالمناهج الغربية كانت وبالا عليها. ويقول إن: «العقل الأوربي الذي استعانت به تركيا ليساعدها في تنفيذ البرامج الإصلاحية كي تستطيع الدفاع عن نفسها وتتمكن من الوقوف ضد الهجوم عليها لا يستطيع أحد التخلص منه أبدا اعطى الامتيازات ونال من الغرض ما مكنه من تثبت اقدامه فوق هذه الأرض».

وقد ظل دعاة التغريب يخادعون المسلمين والعرب في كل مكان بهذه الفكرة المسمومة، وذلك قولهم: «إن الطريق الوحيد لمحاربة الغرب هي استعمال اسلحته» ولقد كانت تركيا قد أثبتت بتجربتها فساد هذه النظرية ومع ذلك فإن الدول الاسلامية والعربية لدغت من نفس الجحر مرات، دون أن تفيق إلا منذ سنوات قليلة وبعد هزيمتها الساحقة عام ١٩٦٧ بل إن خطة السلطان محمود في إصلاح الجيش طبقاً للنظام الأوربي عام ١٨٢١م هي التي فتحت الطريق أمام الشباب العثماني إلى أن يقع فريسة القوى التغريبية الأوربية تحت اسم حرية وإخاء ومساواة وما إليها من مبادىء الثورة الفرنسية وفلسفة «كانت» وغيره ذلك لأنهم ،ذهبوا إلى أوربا خواء من مفهومهم الإسلامي ومن أرضية فكرهم الأصيل فوجدوا الجو مهيئاً لغزوهم والسيطرة عليهم تحت أجنحة المحافل الماسونية التي كانت تترقبهم وتتلقفهم لتحطم بهم الدولة العثمانية والخلافة والجامعة الإسلامية وقد أتاحت هذه الفرصة الإنفتاح الثقافي الغربي، إلى قيام الجمعيات السرية والمحافل الماسونية تحت نفوذ الامتيازات وفي المناطق البعيدة عن الرقابة وأفرخت قوى التآمر على الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية في داخلها، وخاصة في سالونيك، ولما تنبه السلطان عبد الحميد إلى هذا المخطط الرهيب كان الوقت متأخراً، فان جماعة مدحت ممن سمّوا الأحرار كانوا قد نموا نفوذهم

في داخل الجيش، وكانت جماعات منهم قد تركزت في فرنسا وغيرها، وبدأت الحرب إزاء دعوة الخليفة إلى تجمع المسلمين في كل مكان تحت لواء الخلافة، هذا الخطر الذي هدد الغرب وافزعه فاسرع بالتآمر على السلطان وانتزاعة من مقعده، وكانت الصهيونية قد حاولت معه محاولتها الماكرة في الوصول إلى فلسطين ووقف في وجه المؤامرة صامداً وهو يعلم أنها ستطيح به.

يقول شميت: إن السلطان محمود آمن بأن أوربا لا يمكن أن تضرب وترد إلى ديارها إلا بسلاح أوربي، وهذا ما يقوله توينبي أيضاً ولكن: غاب عنها وغاب عن السلطان محمود، ومن يرى هذا الرأي من زعماء المسلمين أنه لا بد من بناء العقل والنفس الإسلامية المؤمنة وفق مفهوم الجهاد في الإسلام والدفاع عن عرينه، قبل أن تمسك بهذا السلاح الذي لا يستطيع أن يكون إلا سلاحاً إسلاميا، ولكن الذين ذهبوا للتدرب على الأسلحة الأوربية ذهبوا وقلوبهم خواء من ايمانهم بأمتهم، لقد ذهبوا وهم جاهلون مدى حقد الغرب عليهم وتآمره على دولتهم للقضاء عليها كمقدمة لضرب الإسلام نفسه.

وفي الوقت الذي عاشت فيه أوربا أكثر من مائة سنة تحي الروح الصليبي المتعصب أمام الإسلام ذهب العثمانيون التقدميون إلى الغرب وهم عزل من كل سلاح، ذلك بأنهم لم يكونوا قد آمنوا بأمتهم ولا عقيدتهم بالقدر الكافي الذي يحميهم من الاحتواء الغربي لحساب الصهيونية العالمية والاستعمار.

وقد نسوا أنهم كانوا يرهبون أوربا أكثر من أربعة قرون، وها هم قد جاءوها متسولين للسلاح الحديث والصناعة العسكرية، وكيف يمكن للغرب أن يعطيهم أسرارها وهو الذي سبقهم فيها ليضربهم بها، فهل للغرب أن يعطيهم إياها ليقفوا على أقدامهم مرة أخرى ويواجهوا الغرب، إن هذه هي النقطة الوحيدة الفاصلة بين هزيمة العثمانيين وانتصار الغرب اصبحت مدافع تركيا لا تصل إلى الغاية إلا إذا قذفت بألوف القذائف، أما الغرب فقد تمكن من أن يهزمهم بأقل من ذلك، لقد استطاع أن يطور اسلحته فتكون بعيدة المدى ويطور حاملاته فتكون قادرة على العمل السريع، ومع هذا التطور «عقيدة» هي مقاومة الغزو الإسلامي، أما الأتراك في هذه الفترة فكانوا قد استناموا إلى

الانتصارات الماضية والتاريخ القديم وأخذوا يدخلون مرحلة الضعف.

وهذه هي المفارقة: القوى الذي سقت الغرب كؤوس المذلة، تعود مستجدية، وتضعف حتى تسمح لأعدائها بادخال ثقافتهم لفتح الطريق لنفوذ خطيرة، تحت اسم سماحة الإسلام، كيف يمكن للسماحة الدينية في أمور الأقليات أن تكون وسيلة لضربها من الداخل.

إن الإتجاه إلى إقامة علاقات مع أوربا- كما يقول بوو شمتر في معالجته الخطيرة لهذه القضية- كان يحمل طياته محاولة الدفاع ضد التيار الغربي فقد كان الأمل بواسطة هذه المعاهدة أن تمسك الدولة العثمانية بزمام التأثير الغربي الذي يزداد كل يوم وأن تراقبه لتكون على علم بخطواته ومسالكه التي يتخذها منافذ للوصول إلى اغراضه وذلك حتى يمكن إبعاده عن النقطة التي يصبح فيها خطرا على وجود السلطة الحاكمة لتركيا القديمة.

يقول: «فهم الباب العالي كيف يلعب بهذه السياسة بين القوى الأوربية المختلفة ويوقع بينها على مدى عشرات السنين وتحت ظل هذه العداوة التي وقعت بين الدول الأوربية» ولكن ثبت خطأ هذه التجربة التي أرادها السلطان بنقل الحضارة الغربية إلى تركيا فلم يكن لدى البلاد مقومات استقبالها وعناصر التفاعل معها ودخل النفوذ الأجنبي من هذا المنفذ ولم يلبث أن اتسع وسيطر عن طريق الإرساليات التي أنشأتها هذه الجماعات الكاثولكية والبروتستانية والأرثوذكسية التي كانت في الواقع تمثل الغزو الفكري لفرنسا وانجلترا وروسيا فقد عمدت الدول الثلاث إلى إعلان حمايتها للعناصر الأجنبية ووضعت في موضع ممتاز يجعل لها القدرة على حرية الحركة دون رقابة من الدولة العثمانية وبذلك فتح طريق آمن للقناصل لضرب الدولة من الداخل.

كانت الخطة استقطاب الأقليات وهي بطبيعتها خصيمة للدولة الإسلامية تحت دعوة طامحة لإحلال العنصرية التركية مكان الوحدة الإسلامية وقد اختير لها اسم قديم هو «الطورانية» وحل في تركيا دعاة إلى إعادة بعث تاريخ الأتراك قبل الإسلام، هذا بالإضافة إلى الجماعات التي سافرت إلى فرنسا وصيغت في إطار الثورة الفرنسية، وكانت هناك المحافل الماسونية التي تنمو في

سلونيك القادرة على احتضان هذه الجماعات وخاصة جماعة الاتحاد والترقي التي افرخت حزب تركيا الفتاة.

وفي الطرف الأخر أثيرت الفتنة في لبنان، بين الدروز والموارنة على نحو دفع الدول الغربية إلى التدخل وإقامة كيان مستقل باشرافها تفصل فيه لبنان عن الدولة العثمانية انفصالا يمكن القوى الأجنبية من إعدادها لرسالة التبشير والغزو الثقافي حيث سيطرت عليها قوتين: قوة فرنسية وقوة أمريكية، بدأتا العمل فور خروج القوات المصرية من الشام، وكانت الإرساليات الأمريكية قد زحفت نحو استانبول ونحو القاهرة وأقامت قواعدها في ظل الامتيازات وباسم تعليم الاقليات التابعة لها، هذه الخطة التي نمت وأصبحت في عهد السلطان عبد الحميد عام ١٨٦٠ تشكل خطراً معقداً، قوامه:

(١) اليهود الدونمة في سالونيك ومحافلهم الماسونية.
(٢) الإرساليات التبشيرية في فروعها المختلفة وما تحتويه من شباب المسلمين والعرب.
(٣) جمعية الاتحاد والترقي وإحتواء المحافل الماسونية لها.
(٤) الأقليات الأجنبية وتعاونها الداخلي والخارجي.

البَابُ الرّابع

مخطط المؤامرة

أولا : الطوارنية وتعميق خلاف القوميات.
ثانياً : الفصل بين العرب والترك.
ثالثاً : تحقيق حلم الصهيونية بالوصول إلى القدس.
رابعاً : إسقاط الخلافة.
خامساً : وصول روسيا إلى قلب العالم الإسلامي.

(مدخل)

مخطط المؤامرة

كانت المؤامرة استعمارية صهيونية شيوعية، أو صليبية يهودية ماركسية، تجمعت فيها كل القوى المعارضة للإسلام والراغبة إلى تمزيق العالم الإسلام واحتوائه. ففي الوقت الذي كانت دول الغرب (الحلفاء) تضرب المسلمين الأتراك بالمسلمين العرب، كان الكسب للغرب لا للعرب ولا للمسلمين، ولم يتنبه العرب الذين ضربوا اخوتهم المسلمين لذلك إلا متأخراً جداً، كان الهدف إفساح المجال لتقدم الصهيونية في فلسطين، وعندما دخلت القوات العربية القدس حلفاً للاتراك كان اللورد اللنبي اسبق منهم إلى القول بأن الحروب الصليبية قد انتهت، وأن عهداً جديداً، ليس هو الدولة العربية الموعودة وإنما هو الإحتلال والانتداب والوصاية، والتقسيم، كانت كل خطوات هرتزل قد امتدت في حركات لورنس، الذي كان يخدع العرب ويلبس لباسهم ويتكلم لغتهم، والذي كان يخدم الإستعمار الغربي ظاهرا ولكنه كان في أعماقه يعمل للصهيونية، لذلك فإن المؤرخة الصهيونية التي هللت يوم دخل الإنجليز القدس عام ١٩١٧ كانت تعرف ما هو متفق عليه بين الإستعمار والصهيونية وهو أن القدس ستسلم إلى أيدي اليهود بعد قليل، وإن كانت قد سلمت رسميا بعد خمسين عاما، عام ١٩٦٧ ولقد كان النجاح في إسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها إنما يعني «إسقاط الدولة الإسلامية القائمة على الشريعة الإسلامية وإقامة القوميات التي ينتظمها القانون الوضعي والعلمانية ومناهج التعليم التي اعدتها الإرساليات مسبقا، وحين دخل الاستعمار البريطاني مصر والسودان، ودخل الإستعمار الفرنسي الجزائر وتونس، فقد انطوت صفحة النظام الإسلامي بها جميعاً لأول مرة منذ ظهور الإسلام وحل بها القانون الوضعي والمصرف الربوي والديمقراطية الغربية بمفاهيمها ومناهج التعليم العلمانية.

ولذلك فقد كان إسقاط الدولة العثمانية حلماً من أحلام الغرب: الغرب بمختلف قواه استعمارية وصليبية، وماركسية ويهودية وصهيونية، وهو حلم تحقق على مراحل ثلاث:

(١) إسقاط السلطان عبد الحميد.

(٢) تمزيق الدولة العثمانية بعد الحرب الأولى.

(٣) إسقاط الخلافة الإسلامية، على مرتين: الأولى بفصل السلطنة عن الخلافة ثم إسقاط الخلافة جملة.

وكان ذلك يعني «تدمير» ذلك العقد الذي يربط الأمم الإسلامية ويزيل تلك القيادة، فتصبح هذه الأمة بدداً و «تمكين» الإستعمار من إلتهامها جزءاً جزءاً، ولقد كان تكالب الغرب على الغنيمة واضحاً، وكانت الدعوة التي بثها التغريب في تركيا لبعث العرق الطوراني، مقدمة لمثيلها على الجبهة العربية لإزاحة الإسلام وإحياء العنصرية باسم العروبة الجاهلية أو العروبة العلمانية، وكان الهدف من هذا كله هو تدمير القوة الباقية باسم الإسلام والجامعة للمسلمين تحت لواء الخلافة، والقضاء على النظام الاسلامي كمنهج مجتمع وإثارة العصبيات والقوميات والاقليميات في مختلف انحاء العالم الاسلامي.

وقد أمكن تحقيق مخطط كبير في أبعادٍ خمسة شملت العالم الاسلامي كله تمثلت في:

أولا: تحويل الدولة العثمانية والمسلمة الحاكمة بكتاب الله والجامعة للعرب والترك المسلمين إلى دولة عنصرية وذلك بإثارة الدعوة الطورانية التي كانت ثمرتها جماعة الاتحاد والترقي التي اسقطت بالاشتراك مع الماسونية والدونمة الخليفة عبد الحميد وأعدت الدولة للدخول في مرحلتها الجديدة التي برزت في صورتها الكاملة بعد الحرب بقيادة اتاتورك وبذلك انتقلت دولة الخلافة إلى دولة علمانية تحكم بالقانون السويسري.

ثانياً: أوقعت الخلاف بين عنصري الدولة الإسلامية: العرب والترك ودفعت الاتحاديين إلى التسلط على العرب والعمل على تتريكهم ودفعها دفعاً للتخلص من رابطة الوحدة الاسلامية مع الترك وإقامة المشانق لهم لتعميق

الخلاف والخصومة وكان قائد هذه المعركة (لورنس) لحساب الاستعمار الغربي ظاهراً ولحساب الصهيونية اساسا.

ثالثاً: مكنت الصهيونية من أن تحقق حلمها في الوصول إلى القدس بعد ثمانية عشر قرناً وبعد أن أخرجها الرومان عام ٨٠ ميلادية وهدم الهيكل. استطاعت جماعة الدونمة المقيمة في سالونيك إعداد خطة طويلة المدى بالدخول في الاسلام والعمل على احتوائه من الداخل وإقامة المحافل الماسونية لتدبير الخطط السرية لضرب الخلافة والدولة الاسلامية والسيطرة على كل الحركات الوطنية والقومية واحتوائها حتى تمكنت هذه القوة من عزل الخليفة وفتح الطريق إلى القدس بواسطة أوليائهم الاتحاديين.

رابعاً: تحقيق الغاية الكبرى بإدخال الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى دون أن يكون لها أي مصلحة أساسية في صف الألمان وهزيمتها وتمزيقها وإعدادها لإسقاط الخلافة وإقامة نظام ديمقراطي غربي يستأصل الإسلام، ولقد كان القضاء على الوحدة الإسلامية في كل صورها وأشكالها هدفاً أساسيا للإستعمار والصهيونية والروس قبل إعلان البلشفية وبعدها.

خامساً: تحقق للدولة الروسية تنفيذ وصية بطرس الأكبر بالسيطرة على أجزاء واسعة من العالم الاسلامي والزحف في اتجاه المياه الدافئة والوصول إلى قلب العالم الإسلامي.

الفصل الأول

أولا: الطورانية وتعميق خلاف القوميات

تحويل الدولة العثمانية المسلمة الحاكمة بكتاب الله والجامعة للعرب والترك المسلمين إلى دولة عنصرية، وذلك باثارة الدعوة إلى الطورانية، التي كان ثمرتها جماعة الاتحاد والترقي التي اسقطت بالاشتراك مع الماسونية والدونمة الخليفة عبد الحميد وأعدت الدولة للدخول في مرحلتها الجديدة التي برزت في صورتها الكاملة بعد الحرب بقيادة أتاتورك وبذلك انتقلت دولة الخلافة إلى دولة علمانية تحكم بالقانون السويسري.

ولقد استخدم الغرب في احداث هذا الإنقلاب الفكري الخطير: رابطة العنصرية وأثار حولها الإعجاب الشديد لتحل في النفس التركية بديلا من رابطة الإسلام واستخدم في سبيل ذلك كل وسائل الإغراء والكذب والإدعاء واصطنع لها حثالة من الروس والدولة العثمانية مليئة إذا ذاك بالعناصر، فاستخدم يوسف اقجوره، وأحمد أغاييف، وضياء ألب ولقد كانت سياسة روسيا العنصرية التي اعلنها بطرس الأكبر والتي تستهدف استعمار الولايات الأسيوية، وطرد المسلمين من أوربا وسحق الدولة العثمانية وقد ولدت هذا النفر من الحاقدين الذين استغلتهم هذه الحركة التي ادارها الاستعمار والصهيونية من وراء ستار المحافل الماسونية. فانفجرت في الدولة العثمانية حرب العنصريات القومية، وجرى إعلاؤها على رابطة الإسلام وحرضهم هؤلاء على العودة إلى التاريخ القديم البائد السابق للإسلام: تاريخ طوران فجدده هؤلاء وبعثوه ونشروه أمام العثمانيين فاستجاب لهم بعض المخدوعين وقد اتصل هؤلاء بالقوى الغربية تحت اسم العلوم العصرية والثورة الفرنسية واسماء حرية وأخاء ومساواة، وعلت صيحة الجنس والدم علوا شديداً حتى يقول ضياء ألب: إن الشعور الذي يجري في دمي هو صدى ماضي، وأن أعمال أسلافي المجيدة أتحسس

آثارها في الدم الذي يجري في عروقي وفي قلب أتيلا وجنكيزخان وهما معجزة جنسي ومظهر عظمة مساوية لعظمة الإسكندر وقيصر ».

كانت هذه الخطة هي نقطة البدء في الفصل بين الإسلام وبين الجنسيات والقوميات ثم كانت مع تركيز شديد من عوامل الفصل بين العرب والترك وبين العروبة والاسلام وإعلاء الأجناس والعروق والدماء على رابطة العقيدة والفكر والثقافة الجامعة للعرب والترك تحت لواء الإسلام وحضارته.

إن القوى الأجنبية لم تستطع أن تسقط الدولة العثمانية عن طريق التآمر وأساليب التهديد قروناً طويلة كما عجزت عن مواجهتها بالحرب وكان في تقديرهم أن حرباً صليبية عسكرية قد لا تنجح، ولقد كان السلطان عبد الحميد قد حسب لهذه الخطوات حسابا دقيقاً، ولذلك فقد كان الغزو الثقافي عن طريق إعلاء العنصرية والدماء والتفريق بينها، هو الأسلوب الذي حقق لهم غاياتهم، ولقد أوتيت الدولة العثمانية من وراء قوى لم تحسب حسابها ولم توضع في ميزان التقدير الصحيح فقد كانت سالونيك وكانت المحافل الماسونية غير خاضعة للدولة، وفيها باضت وأفرخت هذه المؤامرات والدعوات، كان السلاح الذي استغل استغلالا كبيرا هو سلاح العصر: سلاح القوميات في الوقت الذي كانت أوربا كلها تغلي بالنعرات القومية، وفي البلقان عندما اثارت الدول الأوربية النعرة القومية ونجحت، وجدت أنها تستطيع أن تتخذها اسلوبا لضرب وحدة الترك والعرب الإسلامية، وكانت سالونيك تضرب الدولة في مركز قيادتها، وفي بيروت كانت تضرب الجبهة العربية كلها، ولما تولى الاتحاديون الحكم عمقوا المؤامرة فأعلنوا تتريك العناصر، وتتريك العرب فكان لذلك أثره العميق عند العرب الذين حاولوا أن يرفعوا راية العروبة في مواجهة هذا الخطر وبذلك استطاع الاستعمار والتغريب أن يدخل القوتين في نطاق الصراع العنصري: صراع الدم والعرق.

وتدافع المستشرقون يؤلفون ويكتبون عن تاريخ طوران: وما للقبائل التركية القديمة من تاريخ ولغة وخصائص وحياة اجتماعية ومن أبرز هؤلاء الذين تصدوا للعمل: غولاوسكي وقره جون وماونان هارتان

وكان هدف الداعين لبعث العنصرية الطورانية: هو تدمير الوحدة العثمانية ولذلك فإنه بعد إعلان الدستور مباشرة عام ١٩٠٨ كتب حسين جاهد في صحيفة طنين: إن الأمة التركية كانت وستظل الأمة الحاكمة في السلطنة العثمانية فلا مجال للإعتراف بحقوق مساوية للعناصر العرقية الأخرى: أي العرب وهذا ما دفع العرب إلى الارتماء في أحضان الاستعمار الغربي وقد جاء هذا بعد سياسة عبد الحميد الحكيمة التي كانت تعمل على تقريب العنصر العربي.

ولا ريب كانت حركة الوحدة الإسلامية هي الخطر الأكبر الذي أريد القضاء عليه، فقد كانت الحاجز الأكبر في وجه تمزيق الدولة العثمانية وتنفيذ الاستعمار لمخططاته «وتقسيم التركة» ومن ثم كان التركيز على البلاد العربية وفصلها عن الدولة العثمانية مقدمة لتوزيعها.

وفي سبيل إعلاء شأن الطورانية، أخذت هذه القوى الغازية تبحث وتنقب عن آثار الحيثيين والمغول وجعلوا يتبرؤن من كل أثر عربي أو غريب عن دمائهم ولغتهم، ويعلنون أنهم كالمصريين والإغريق والرومان والقدماء العرب: شعب ذو حضارة قديمة وآثار خالدة مفاخرين بأنهم ينتسبون إلى جنكيز خان وتيمورلنك وهولاكو.

ومضت حركة العنصرية في طريقها فعمد الاتحاديون الطورانيون الجدد إلى تطهير اللغة التركية من كل ما هو عربي وإلى محو الجنسية العربية وإدماجها في الجنسيات الأخرى وجعل الجنسية التركية مستقلة عن الإسلام.

ويشير أحد الباحثين: «إلى أن ايدلوجية النزعة الطورانية هي من صنع المستشرق المجري (فامبري) بين (١٨٦٨- ١٨٧٤) وتبناها الانجليز فعملوا على تكوين كتلة عنصرية من الأتراك العثمانيين وأتراك الشرق ليحطموا بها النفوذ الروسي المتزايد في أسيا الوسطى ثم غير الانجليز سياستهم وايدوا سيطرة الروس على اتراك آسيا.

وكتب (هنري نورمان) اثناء الحرب الكبرى عام ١٩١٨ أن اتحاد الترك، إذا تم تحت إشراف الألمان فإن أتراك ايران وهم أهل قتال مع اتراك قفقاسيا فإذا وثقوا علاقتهم بالعثمانيين فان ذلك يكون خطراً على مركز الانجليز في الهند.

يقول الباحث «وقد كانت فكرة الجامعة الطورانية وافدة من الخارج وصعبة التحقيق لانعدام الوحدة الجغرافية والاجتماعية في موطن الترك كانت الطورانية التي دافع عنها بعض الترك وخاصة ضياء كوك ألب أجنبية النشأة فإن جماعة من المجريين ارادوا التوقف في وجه التيارين القوميين اللذان يحدثان بها وهما تيار الجامعة الألمانية وتيار الجامعة الصقلية ابتدعوا لذلك فكرة التورانية (الترك والمغول) بينما الشرائط الجغرافية والاجتماعية لا تساعد على إتمام الاتحاد بين هذه العناصر، وكانت المحاولة في إقامة امبراطورية تركية متجانسة يعتمد الحكم فيها على النظام المركزي ويقوم مقام الامبراطورية العثمانية الفيدرالية كان تحقيق هذا الحكم يقتضي تتريك الشعوب الخاضعة له ولذلك عملوا على تمثل هذه الشعوب اصطدم الاتحاديون بالعرب وفي سوريا تعرض العرب بدورهم لسياسة التتريك فلما قاوموها اذاهم يسامون صنوف العذاب والتنكيل على يد الاتحادي المتعصب: أحمد جمال باشا الذي أعدم العرب وعمل على تشويه بطولاتهم في كتابه «حقيقة المسألة السورية» فقد زعم أن المسألة ليست مسألة القومية العربية ولكنها تهمة الخيانة العظمى».

ويرد الباحثين هذا التيار الذي حرض الاتحاديون على السير فيه إلى ما قام به المجلس العلمي الفرنسي سنة ١٩١٦ في التنويه بكتاب ظهر عام ١٨٩٦ عن تاريخ الترك والمغول في آسيا ابتداء من نشأتهم إلى عام ١٤٠٥ لتوني كاهون (وهو يهودي) وكانت هذه التحية من المجلس العلمي الفرنسي إشارة توجيه إلى الاتحاديين الذين أولوا اهتماما كبيرا بالكتاب واتخذوه دستوراً لخطتهم الطورانية، وقد كان ظاهر الدعوة أن الأتراك يريدون إحياء الروح التركي القومي مستقلا عن الإسلام وهم يعتمدون على عبارة مضللة للمستشرق فمبري اليهودي المجري الذي قال: لا وطن في الإسلام.

ولقد كان الهدف خطيرا وبعيد المدى تمزيق وحدة الفكرة الإسلامية القائمة على جماع القوميات تحت لواء الإيمان بالله وتحت جامعة لا إله إلا الله التي هي أعلى من كل رباط قومي أو جنسي، وكان الهدف أن ينفصل الدين عن الدولة، وكان الهدف أن ينفصل الترك عن العرب، وأن تقوم دعوات لكل جنس تحت لواء الجامعة الإسلامية للمطالبة بكيان خاص، وعلى الإستعمار أن يثير هذه

الأجناس ويحرضها لتضرب بعضها بعضا ولقد استعلى هذا الإتجاه من بعد ووصل الغاية ومكن لقومية دخيلة هي القومية اليهودية وكان ذلك تمزيقا لوحدة الأمة وتفرقة لكلمتها وتوزيعها لاجرائها بين اليهود والفرنسيين والإنجليز. وقد كان لهذه الحركة اثرها في إحياء التاريخ القديم السابق على الإسلام، ليس تاريخ الطورانية وحدها ولكن الفرعونية والبابلية والفينيقية والأشورية وغيرها، بعد أن مات هذا التاريخ ووقع الانقطاع الحضاري أكثر من أربعة عشر قرناً، ولقد كان من أثرها أن اتجه العرب إلى الدعوة معارضة لمفهوم العروبة المرتبط بالإسلام وإعلاء شأن القوميات والإقليميات في العالم الإسلامي كله، أي أنه بهذه الحركة دخل العالم الإسلامي مرحلة الصراع بين الوحدة الإسلامية والعنصرية والقوميات والإقليميات. وبذلك انفصلت دولة الخلافة الإسلامية وتاج الإسلام عن اللغة العربية وعن أمجاد الإسلام بحثاً عن أمجاد قديمة بالية تتصل بطوران وجينكيزخان وغيره من المخربين، ويقول باحث إنجليزي أن الحركة ترمي إلى جعل روح التركي القومية مستقلة عن الإسلام وذلك بناء على القاعدة التي وضعها فمبري- اليهودي المجري المعروف وهي أنه لا وطن في الإسلام وحجتهم أن كان من حال الإسلام تحت تأثير العوامل والتقاليد العربية الفارسية واليونانية والبيزنطية جعل الترك أمة شرقية لها عمران خاص، وهكذا علت نعرة تعيد تفسير التاريخ القديم كله تفسيراً جديداً ويجدد الحديث عن الديانات والوثنية التي كانت القبائل التركية تعتنقها في بلاد آسيا إلى حدود نهر جيحون، ولقد ظلت الدعوة تتردد بين يهوديين: أحدهما (ليون كاهون) مؤلف كتاب الترك، والمغول في آسيا حتى ١٤٠٥ وبين نظرية فمبري، وكان فمبري قد زار القسطنطينية مراراً واتصل بالسلطان عبد الحميد. وكتب ممجداً إياه فلما خلع عبد الحميد بدأ يردد هذه الآراء المسمومة. فاستمع لها المثقفون هناك لأنه منذ ١٨٩٠ وهو موضع ثقة الدولة والصحف ولقد بث الاتحاديون في هذه الآراء روح العداء للإسلام ونفخوا فيها وأخذ كتابهم يحرضون العرب على الخلاف أمثال جلال فوزي وأحمد شريف وغيرهم وعلت الدعوة إلى إتحاد بلاد العرب كمستعمرات في نظام التتريك الجديد في ظلال الدعوة الطورانية كما دعت إلى أن يتكلم العرب بلغة الأمة التي تحكمهم، ومضى

هذا التحريض الذي كان من ورائه الاستعمار والصهيونية حتى يقع الخلاف ويعمق، وقد كان ذلك فعلا ما حدث بعد حين علق جمال باشا السفاح زعماء من العرب على المشانق فأصبح هناك بين العرب والترك الاسلاميين، خلاف عميق مصدره الدماء والأجناس والقوميات العنصرية، ومما اضطر العرب من بعد إلى الارتماء في أحضان الاستعمار البريطاني.

وقد أشار الباحث الانجليزي (أغسطس ١٩١٦) إلى أن فمبري أمضى ثلاثين سنة، يخير تركيا إما أن تتغرب (أي تصير غربية) أو إما أن تهلك. ولما كانت لا تستطيع الثانية فلا مناص من الأولى ثم يقول: إن أحرار الترك اقتبسوا بعض الشيء من الغرب ولكن أخذوه من النظام البروسي (الألماني) المقضى عليه بالفناء وقد انتهى سلطانهم ودنت آخرة ملكهم يوم رفضوا ضمان الحلفاء لأملاكهم ».

والمعروف أن الاتحاديين هم الذين زجوا بالدولة العثمانية في آتون الحرب العالمية دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل، وكانوا مصرين على أن تقف في صف المانيا حتى تكون خصيمة للغرب (فرنسا وانجلترا) التي تحقق لها النصر من بعد حتى يتم الاجهاز على الدولة العثمانية جملة وإعلان وعد بلفور لليهود عام ١٩١٧ قبل نهاية الحرب العالمية.

وغاية ما فعل الاتحاديون أنهم ذوبوا العالم الاسلامي في أتون الصراع القومي والعنصري على نحو ما زال ممتدا من ذلك الوقت ١٩١٩ إلى اليوم وما تزال عقابيله وآثاره واضحة في الخطط التي اتخذها ساطع الحصري وميشيل عفلق وغيرهم.

وأنهم أيضاً فتحوا الباب واسعاً للصهيونية العالمية لتسيطر في فلسطين وبيت المقدس وهذا ما لا تزال تبعته قائمة وممتدة حتى اليوم.

(٢)

حقق الاتحاديون الشطر الاكبر من آمال الغرب في هدم الدولة العثمانية، ثم تجمعوا مرة أخرى بعد الحرب باسم الكماليين لاسقاط الخلافة. لقد كانت مهمة الاتحاديين التي صاغتها روسيا القيصرية وانجلترا وفرنسا والصهيونية العالمية

الأولى هي تقويض دعائم الأمة الإسلامية بإثارة الثغرات العنصرية داخلها وتفتيتها إلى قوميات حتى تستطيع أن تقتسم تركة الرجل المريض وقد نجحت هذه المجموعة: جاويد وطلعت وجمال ليقوموا بعملية التتريك والمناداة بالقومية الطورانية وجاء رد الفعل من الجانب الآخر فقام خريجو معاهد الارساليات وأغلبهم من المارون الذين رباهم التغريب فحملوا اللواء نفسه ودعوا إلى القومية العربية وبقى قوم من المؤمنين برباط الأمة الاسلامية ووحدتها والذين يرون أنه لا سبيل إلا سبيل الاسلام نفسه معزولون عن الحركة محجوبون عن القيام بدور ومنهم (شكيب ارسلان ورشيد رضا) وفي نفس الوقت كان سايكس وبيكو (الفرنسي والبريطاني) يجتمعون لوضع خطط تقسيم تركة الرجل المريض، وكانت الصهيونية تسعى للحصول على وعد بلفور وقد تحقق ذلك كله في نفس الوقت الذي كان العرب ينتزعون أنفسهم من الوحدة العثمانية ليتشكلوا خلف فيصل ولورنس لضرب القوى العثمانية حيث استطاع الاستعمار أن يوقع بين عنصري الاسلام فما أن لاحت بوادر النصر بدماء العرب المنتصرين والترك المنهزمين حتى سارع اللورد اللنبي فدخل «القدس» وأعلن سيطرة بريطانيا عليها وأعلن أن ذلك هو نهاية الحروب الصليبية. وكانت مؤامرة ضخمة بالغة الخطورة، كان قد حذر منها ذلك الفريق الذي عزل عن ركب الأحداث.

كانت اليهودية تعرف أنها لن تحصل على شيء ذي بال إلا بعد أن تكسر طوق الوحدة الإسلامية وهو التعبير الذي عبر به (حاييم وايزمان) في مذكراته حين قال: أنه هو الذي حال دون أن تجنى المؤسسات الصهيونية لنفسها أي ثمار إيجابية من وراء طول سعيها ولذلك فقد استفرغ اليهود كل ما لديهم من جهد وعروض وتهديد وأرسل الثري اليهودي (قره صو) برقية من إيطاليا لا تزال بعض كتب التركية تحتفظ بالصورة الأصلية لها: «أنت رفضت عرضنا ولكن هذا العرض سيكلفك أنت شخصياً وسيكلف مملكتك كثيرا» عندما اتجه السعي إلى (كسر طوق الخلافة) على حد تعبير حاييم وايزمان واعترافه، حتى إذا تحطم ومزق الشمل تحققت الغاية اليهودية من أيسر سبيل.

أما أخطر ما حدث فهو (سحق الدولة العثمانية) على النحو المثير الذي

سجلته معاهدة (سيفر) فإن نصوصها تكشف ذلك الحقد الأسود وتلك المخالب الدموية.

أولا : تنخفض الدولة العثمانية من ٦١٣٥٠٠ ميل مربع و٢٠ مليون نسمة في سنة ١٩١٤ إلى ١٧٥ ألف ميل و٨ مليون من السكان.

ثانياً : ألا يبقى للترك في أوربا غير القسطنطينية مع شقة رقيقة لحمايتها.

ثالث : السماح لليونان بالإستيلاء على الجبهة الأوربية من الدردنيل وإدارتها.

رابعاً : السماح لليونان بالإستيلاء على: أزمير إلى أن يقرر مجلس عصبة الأمم ضمها إلى اليونان نهائياً.

خامساً : منح الأرمن: استقلالهم وتأليف دولة في الأناضول منهم.

سادساً : ألا يكون لتركيا اسطول بحري أو جوي وأن تخفض جيشها إلى شرطة فقط.

سابعاً : أن تعود الامتيازات الأجنبية إلى سالف عهدها بعد إلغائها في أوائل الحرب.

ثامنا : أن تؤدي تركيا غرامة باسم تعويضات وغيرها من الأعباء المالية والاقتصادية.

ثم وقعت انكلترا وفرنسا وايطاليا اتفاقا لحماية مصالحهم الخاصة قسمين فيه ما بقي من تركيا إلى مناطق نفوذ وتمت الموافقة على معاهدة سيفر (١٠ أغسطس ١٩٢٠) ووضعت اسسها موضع التنفيذ منذ شغل اليونانيون في تلك السنة خط (مورخه- عشاق) على نهر المندريس حيث ساعدهم الايطاليون بجيوشهم عند الجناح الأيمن. ثم سقطت (درنة) وانزل الاسطول البريطاني قوة بحرية معها جيش يوناني في رودستو وفي تراقيا وباندومه في آسيا الصغرى ثم استولى اليونان بمعاونة انكلترا على أفيون قره حصار وكوتاهية وواصلوا زحفهم إلى نهر صقارية وكوك وهكذا بدت روح الانتقام والغدر الغربي في أقسى صورها، ولم تستطع تركيا من بعد أن تتخلص من هذه القيود وتستعيد وجودها كدولة محددة إلا بعد أن دفعت الثمن غاليا في تلك المعاهدة السرية التي وقعها خلفاء الاتحاديين: مصطفى كمال، وعصمت اينونو، وهو «التنازل عن الإسلام ديناً

ولغة وقانونا ونظاما اجتماعياً ... الخ.

وكان أبرز ما تمثله هذه المرحلة هو: تحول الولاء عن الإسلام إلى القومية والوطن ولقد فرح الغرب وأعلن شماتته بالدولة العثمانية عندما سقطت حتى قال كبير الانجليز (لون جورج) نوفمبر عام ١٩١٤: إني لمغتبط إذ حلت الفرصة لدعوة الأتراك لتأديتهم حسابا أخيراً بعد سلسلة المخازي الطويلة التي إقترفوها ضد الاسبان.

وقال ولسون: إنه قد تم طرد الأمبراطورية العثمانية من أوربا لأنها غريبة تماما عن المدنية، وهذا كله مشابه ومساو لما قاله اللورد اللنبي في القدس.

الفصل الثاني

الفصل بين العرب والترك

ثانياً: أوقعت الخلاف بين عنصري الدولة الإسلامية: العرب والترك، وتحريض الاتحاديين على التسلط على العرب والعمل على تتريكهم ودفعها دفعاً للتخلص من رابطة الوحدة الإسلامية مع الترك. وإقامة المشانق لهم لتعميق الخصومة والخلاف.

وكان قائد هذه المعركة لورنس لحساب الاستعمار الغربي ظاهراً ولحساب الصهيونية اساساً وكان كسر الوحدة بين العرب والترك بمثابة آخر حلقات مطامع الإستعمار والصهيونية والروس لابتلاع العالم الإسلامي وكان التركيز على العرب بالذات هاما بوصفهم أصحاب الرسالة الأولى، وقلب العالم الإسلامي وقوته الفكرية والروحية وفيها بيت الله الحرام معقل الدعوة الإسلامية. وكانت المحاولة بالنسبة لفصل العرب عن الترك وفصل المصريين عن العرب قديمة منذ حملة نابليون الأولى.

فقد كانت الحملة الفرنسية هي أول تجربة من الغرب لاقتحام عالم الإسلام في المشرق بعد الحروب الصليبية والادعاء بأنها الحركة التي ايقظت العرب والمسلمين في العصر الحديث مع أنها جاءت بعد حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب اكثر من خمسين عاما.

وقد ادعت الحملة الفرنسية أنها حملة تمدين ورسالة حضارة، ولكنها كانت في الحقيقة «غزوة استعمارية» تكشف عن صراع المطامع بين فرنسا وبريطانيا ايها يسبق إلى هذه المنطقة، وكان عنصر التعصب والحقد على الإسلام فيها قائما وواضحا بالرغم من محاولة إخفائه التي ادعى نابليون فيها الإسلام، وأن دخول الخيل الأزهر لتصم دعوى نابليون وتكشف هواه. فقد حول نابليون القاهرة إلى بارات لجنوده السكارى، والعاهرين، واصطنع طبقة من الخونة أمثال المعلم

يعقوب وأحدث الفرقة بين المسلمين والمسيحيين وأعلى النعرة الدينية لدى القبط.

ولكنه وجد معارضة تامة عنيفة قاسية أزعجت لياليه وايامه كلها حتى عاد مهزوما فقد قاومت مصر بثورتين متتاليتين وعشرات المحاولات في القضاء على الجنود الفرنسيين وإذلالهم وسد الطريق أمامهم من الإسكندرية إلى القاهرة وحرمانهم من الماء والزاد وتقدم مسلم عربي غير مصري ليقتل القائد العام بعد نابليون باسم الدفاع عن وطن الإسلام، وقبل بتنفيذ حكم الإعدام فيه رافع الرأس لأنه آمن بما فعل، ولقد عامله الفرنسيون أسوأ معاملة ونفذوا حكم الإعدام فيه عن طريق الخازوق، وبذلك كشفوا عن همجية وتعصب وحقد بعيد عن كل ما يدعون من هدف حضاري، ولقد فتحت الحملة الفرنسية الطريق إلى الاقتباس الغربي على غير اسس صحيحة، فكان لذلك آثاره من بعد في الاحتواء التغريبي الذي أوقعه الغرب بالمسلمين والعرب والمصريين، لقد قبل المسلمون تسول الحضارة، وكانوا يستطيعون أن ينقلوها في إطار فكرهم وعقيدتهم، ولكن كان لتولي محمد علي الحكم في هذه الفترة وهو ممن لا يعرفون تيارات التغريب أو من لا يأبهون لأثرها في الإسلام ولا لأثرها في مصر، اسوأ الأثر في الطريق الذي اختطته مصر، حين غلبت المطامع الشخصية على الغاية الكبرى، وبذا كان محمد علي يريد أن يدمر الدولة العثمانية لحساب الغرب، فلما لم يستطع قضى على الحركة الإسلامية الوليدة في شبه الجزيرة، ولو تعاون معها في إطار الدولة العثمانية لتغير موقف عالم الاسلام ولكن الاستعمار كان يقظا لضرب القوى الصاعدة بعضها ببعض، فإنه أوهم العثمانيين بأن الحركة الإسلامية الوهابية تعارضه، وحرض محمد علي باسم الدولة العثمانية للادالة منها وبذلك وقعت المعسكرات الثلاث في الصراع الذي قضى عليها جميعاً ولو أنها تعاونت- وهي المسلمة- في طريق واحد لتغير الموقف.

لقد استطاع محمد علي أن يحرز بعض أدوات التقدم العلمي ولكنه لم يلبث أن تجمعت الدول الأوربية في نفارين لسحقه، حتى لا تكون قوته حائلا دون تنفيذ خطة الغرب في تمزيق الدولة العثمانية، أو ترك قوة إسلامية عربية جديدة لتنمو، ولقد أحصى على محمد علي أنه عمل لحساب فرنسا في أكثر من موضع وموقف.

كانت الدولة التي كونها محمد علي تمتد من كريد إلى الخليج الفارسي ومن جبال طوروس إلى أعالي النيل الأبيض ولكن خطة محمد علي لم تكن واضحة في شأن إعادة مجد الاسلام، وإنما كانت مطامعه الخاصة هي ابرز وجهاته ولذلك فقد تهدم سلطانه رويداً، حتى فقد كل شيء في سنوات قليلة لا تزيد عن عشر سنوات، صحيح أنه لم يطمع في السيطرة على الدولة العثمانية ولكنه لم يصنع شيئاً بقدراته في سبيل تعزيز هذه الدولة وحمايتها من المؤامرة التي- يجري تنفيذها من أجل تمزيقها. كان- كما يقول المؤرخ رفعت كان الغرض الذي كان يعمل له هو تثبيت اقدام اسرته من بعده في حكم مصر، ولقد كان ميله إلى فرنسا عاملا هاما في تأليب بريطانيا وإذا كان محمد علي لم يقدم على دخول القسطنطينية وخلع الخليفة فإنه كان يعلم مما جرت مناقشته بين الدول الأوربية ابان عام ١٨٣٣، وما اتفق عليه من رأى في المحافظة على كيان الدولة العثمانية وخاصة في أوربا ضمانا للسلام والصفاء بين الدول. وقد كتب الكونت تسلر رئيس حكومة روسيا إلى المندوب الروسي في القسطنطينية: «يجب أن لا يصل محمد علي القسطنطينية ويقلب نظام الحكم فيها فإن هذا لا تتفق مع مصالح حكومة القيصر واغراضها فإن محمد علي إذا وحد ملكه في الأستانة كان قد حصَّن منبع وحدة لا يستهان بها أمام روسيا بدلا من جار ضعيف منهزم».

وهكذا نجد أن الغرب كان يعمل على الحد من مطامع محمد علي والحيلولة دون تحقيق أمل كبير يحمي الدولة الإسلامية أو يؤدي إلى أن ينبعث العالم الإسلامي من جديد، ولقد تضامنت بريطانيا مع فرنسا في حمل السلطان على إيقاف محمد علي وقصره في مصر ونزع نفوذه من كل الأجزاء الحجازية والشامية التي كانت معه وكانت تلك نهاية محاولة طامعة لم تكن تستهدف عملا يرمي إلى اعادة مجد الإسلام، وذلك بخلاف ما وقع بالنسبة للحركة التي قادها الامام محمد ابن عبد الوهاب والتي نمت واتسعت، وحققت نتائج هامة فكانت ابرز القوى عام ١٩٢٤ بعد إسقاط الخلافة.

أما محمد علي فقد فتح أبواب مصر أمام النفوذ الغربي والفرنسي بالذات على نحو شديد الخطر والأثر، عندما جاء اسماعيل ففتح باب الاستدانة وعشش المرابون اليهود في أرض الكنانة وتسلطوا عليها.

(٢)

كانت الحملة الفرنسية على مصر هي الطرقة الأولى على الجدار العربي للدولة العثمانية، حيث فتح الباب للنفوذ الغربي في مصر وأخطر ما فيه كان حفر قناة السويس وما اتصل بها من مؤامرة اليهود المرابين في السيطرة على مقدارات، مصر يقول دكتور محمود صالح رحمه الله وأجزل مثوبته: «إذا رجعنا إلى تاريخ مصر المالي نجد أن اليهودهم المسؤلون عن القروض المشؤمة التي سببت بؤس المصريين وفقر الأهالي واستغلالهم فقد استغلوا اضطراب الحال الداخلة في مصر بعد حروب محمد علي فاستولوا على اقتصاديات البلاد وقد بلغت ربويات القروض إلى ٣٦٪ وإلى ٤٨ في المائة كما يذكر مؤلف تاريخ مصر المالي وهذا أفحش ما سمع عن الفوائد الربوية وقد اضطر تآمر اسماعيل على رهن إيرادات السكة الحديد والجمارك والضرائب الشخصية وفي عام ١٨٧٥ اتفق دزرائيلي اليهودي رئيس وزراء بريطانيا مع روتشيلد الرأسمالي اليهودي، على شراء اسهم قناة السويس الذي كلفت مصر ٢٠ مليون بمبلغ ٤ ملايين والأموال التي اقرضها اليهود لإسماعيل وقد بلغت ٥٤ مليونا حسبت على مصر ٩٦ مليونا، قال جابريل شارم: إن اسماعيل قد أقترض في ٢٨ عاماً التي تولي فيها الحكم ٣ مليارات من الفرنكات أي ١٢٠ مليون جنيه ولكن نصف هذا المبلغ بقي في يد المرابين وأصحاب البنوك المضاربين».

وهكذا انقض الغرب على الدولة العثمانية من جدارها العربي في مصر فأعدت للاستعمار البريطاني سنوات، وفي خلال ذلك كانت فرنسا تضرب الجزائر، والجزائر تقاوم ثمان سنوات حتى استولت عليها (١٨٣٠ - ١٨٣٨) وتدفقت ايطاليا على طرابلس الغرب وفرنسا على تونس، وتوالت الارهاصات لاحكام السيطرة على الدولة العثمانية، في خطة مزدوجة: إعطاء فلسطين لليهودية العالمية وتقسيم العراق والشام بين فرنسا وبريطانيا، هنالك كان لابد من إقامة الاقتتال بين المسلمين: العرب والترك في المناطق التي كانت الدولة العثمانية تسيطر عليها من أرض الجزيرة العربية إلى الشام والعراق، وتلك كانت مؤامرة ضخمة خدع فيها العرب وقتلوا إخوانهم المسلمين الأتراك ثم سلموا القدس بعد ذلك إلى اللورد اللنبي الذي قال بعد النصر: إن الحروب الصليبية

قد انتهت وقال: أن بيت المقدس قد عاد إليهم في كفالة الاستعمار البريطاني.

كان الهدف هو فصل العرب عن الترك وإحلال نفوذ حاكم الحرمين مكان الخليفة، وحاكم الحرمين هو شريف مكة ولذلك فقد تركزت المحاولات على أن تقوم بريطانيا بمساعدة العرب بإخراج العثمانيين من الجزيرة العربية ومن الشام والعراق. وقد استطاع الانجليز إقرار الإتفاق مع الشريف ووعدوه بدولة عربية عند انتهاء الحرب على أن يعلن الانفصال عن الدولة العثمانية. وكان لورنس هو الموجه الحقيقي لهذه الخطوات بخلفياته الاستعمارية والصهيونية وخداعه العجيب في اصطناع لباس البدو ولهجتهم، وقد جمع فيصل بن الشريف حسين بين ٧، ٨ آلاف من الرجال البدو وقدمت لهم بريطانيا أسلحة وأطعمة ومئات من الليرات وبدأت حملة إخراج القوات التركية من الجزيرة العربية، بمساعدة لورنس والمراكب الانجليزية، وقد ظلت هذه القوات تتقدم حتى دخلت بيت المقدس ودمشق، دخلت القوات العربية دمشق بقيادة اللورد اللنبي ودخل الحلفاء القدس، ووقف اللنبي على أبواب درعاً في ١٦ أيلول ١٩١٨ وقد انهزم الجيش التركي السابع والثامن ودخل الحلفاء دمشق قبل أن يصل فيصل إليها وأداروا شؤنها واعتبر الحلفاء أنهم محرروها الحقيقيون، وقد استمرت هذه المعركة عامين تقريباً.

ثم تبين أن الشام والعراق قد قسمت بمقتضى معاهدة سايكس- بيكو بين فرنسا وبريطانيا وأن وعد بلفور قد أعطى بريطانيا الحق في أن تسمح لليهود بالإقامة والهجرة إلى فلسطين وإن وعد بريطانيا للعرب باقامة حكومة عربية كان وعدا باطلا وزائفاً وكان خداعاً. وقد اكتفت بأن ولت أبناء الشريف حسين حكومات سوريا والعراق وشرق الأردن وخدع لورنس العرب وانكشفت بعد خطته الإجرامية لحساب الاستعمار ولحساب الصهيونية في وقت معا حتى وصف بأنه العميل المزدوج.

يقول البروفسور هوجارث الأستاذ بجامعة أكسفود وأعظم خبير بريطاني في شؤن الشعوب الآسيوية والعربية: لم يعد مراء أن لورنس كان مكلفاً بتنفيذ خطة مرسومة بكل دقائقها وبكل تفصيلاتها، خطة تستهدف تحريض العرب على

الثورة ضد الحكم التركي وللإسهام بالتالي في تقويض الامبراطورية العثمانية. وهي خطوة ضرورية لفرض السيطرة البريطانية على فلسطين وانفتاح الباب على مصراعيه لإقامة دولة إسرائيل.

وبالنسبة للعميل المزدوج، فإنه كان على علم بابعاد دوره وكان يعرف منذ اللحظة الأولى أن الجيش العربي بقيادة فيصل سوف يشارك بالقسط الأوفر في فتح فلسطين وقد دخلها بالفعل قبل جيش اللنبي لكي تسلم فيا بعد غنيمة باردة للصهيونية العالمية.

« وكان لورنس يعلم أن السياسة البريطانية وقد شارك في وضعها تتعارض تعارضا مباشراً وكاملا مع مفهوم العرب للحرية ومع طراز الدولة التي وعدوا بها وحاربوا من أجلها ولقد كانت التقارير السرية منذ بداية الثورة تكشف عن أوضاع العرب للسيطرة البريطانية والعمل على تعميق انقسامهم وتباغضهم، ففي تقرير (١٥ يناير عام ١٩١٦) أن نشاط حسين يبدأ مفيداً لنا لأنه يتفق مع غاياتنا العاجلة وهي تحطيم (الكتلة) الإسلامية وهزيمة الامبراطورية العثمانية وتقويض بنيانها ولأن الدولة التي سوف يقيمها حسين خلفاً للأتراك تكون طيعة لنا مثل ما كانت تركيا قبل أن تصبح حليفة للألمان، وإذا عوملت هذه الدولة بالأسلوب الصحيح فإنها ستبقى في حالة تخبط سياسي » ومما سجله لورنس في وثائقه وكتبه: « إذا انتصرت بريطانيا في الحرب فسيكون وعودها للعرب كالورقة الميتة، ولو أنني كنت ناصحاً شريفاً لسرحت رجالي ولمنعتهم من المخاطرة بأرواحهم لمثل هذا، ومع ذلك فإن الأماني العربية كانت أداتنا السياسية لكسب الحرب في الجبهة الشرقية ».

ويقول: « لقد غامرت بالتضليل لإيماني بأن عون العرب كان لازماً لإحراز نصر رخيص وسريع في الشرق، وخير لنا أن ننتصر وأن نخلف وعودنا من أن نمنى بالهزيمة » وكان في تقدير لورنس أنه « إذا وافق حسين الشريف نسل الرسول على المساندة البريطانية والثورة ضد الأتراك لكان ذلك رداً على مناداة سلطان تركيا بالجهاد ضد الحلفاء وهي دعوة خليقة بإشعال ثورة ملايين المسلمين من رعايا الممتلكات البريطانية والفرنسية والروسية » ويقول في تقرير آخر ١٩١٦:

«لا بد من القضاء نهائياً على سيادة السلطان التركي، ذلك أن قدرة بريطانيا على أن تنصب خليفة جديداً لا تعدو قدرة اليابانيين على الكنيسة الكاثوليكية، وحتى سلطان مصر لا يستطيع أن ينصب نفسه للخلافة لأن فعلته ستكون مثاراً للريبة بسبب علاقاته معنا، إن أكثر المطالبين بالخلافة رجحانا بعد السلطان هو شريف مكة».

وقد فصل لورنس القول فيما قرره من اختيار فيصل دون آل شريف مكة جميعاً فقال: عبدالله ذكي وزيد بارد ووجدت في فيصل القائد ذا الحمية المطلوبة، أما حسين فإنه إذا قرر أمراً فمن العبث أن يحاول المرء اقناعه بالعدول عنه.

ويقول: (هوجارت) إن فيصل كان يعتقد أنه قادر على استغلال لورنس لتحقيق الاستقلال العربي، بينما كان لورنس موقن من قدرته على استغلال فيصل لاحداث الانقسام في الكتلة الإسلامية ولتدعيم نفوذ بريطانيا في الشرق الأوسط، وبذلك تكاملت عناصر المأساة وكان من الضروري أن تنجلي كارثة.
ويقول: إن الوقائع قاطعة في أن لورنس كان يحتقر العرب والوثائق كلها تثبت أنه لم يعرف سوى المقت الأسود للأمة العربية، فهو يرتدي ثياب العرب ويتحدث لغتهم ويسلك سلوكهم لا لشيء إلا ليكون أقدر على التغلغل في الوسط العربي.

يقول لورنس: (إذا كنا نريد أن نكون في سلام بجنوب سوريا وأن نستولي على جنوب العراق وأن نسيطر على المدن المقدسة فلا مندوحة من أن نحكم نحن دمشق أو تحكمها دولة أخرى غير إسلامية تكون صديقة لنا) ويحاول لورنس أن يرسم خطة ما بعد إيقاع الفرقة بين العرب والترك:

إن حسين شريف مكة يفكر في أن يأخذ لنفسه ذات يوم مكان الحكومة التركية في الحجاز، وإذا كنا نستطيع أن نرقب الأمور بحيث يكون هذا التغير مصطبغاً بالعنف، فاننا نكون قد محونا خطر الإسلام إذ سوف ينقسم المسلمون على أنفسهم وفي قلب الإسلام وسيكون خليفة تركي وخليفة في الجزيرة العربية وسيعود الإسلام ضئيل القدر شأن البابوية أيام كان البابوات يعيشون في

(أفينون) ويقول: لقد كان لورنس ماضياً في خديعة العرب بينا بريطانيا وفرنسا كانتا توقعان معاهدة (سايكس- بيكو) وهي وثيقة مروعة وثمرة الجشع في ابشع صورة وهي تستنقذ فلسطين من عملية التقسيم «ليكون لها نظام دولي خاص بها ولإقناع الصهيونيين بأن الفرصة قد أتيحت لتحقيق حلمهم في إقامة وطن قومي لليهود) وقد عملت فرنسا وبريطانيا على إخفاء الاتفاقية حتى سقط النظام القيصري في روسيا في نوفمبر ١٩١٧ وأذاع البلاشفة الاتفاقيات ولما علم الشريف حسين بأخبار الاتفاقية قال: إن الوعد البريطاني كالذهب مها جلوته بشدة فانه يسطع دائماً ويقول هوجارت: ولسوف يأتي يوم قريب يدخل فيه فيصل على رأس قواته إلى القدس ثم إلى دمشق، ويهتز وجدانه لتحرير العاصمة العربية بعد اربعة قرون من الاحتلال التركي، وعندما يعلم أن وعود بريطانيا لم تكن ذهبا وأن سوريا ستكون فرنسية طبقاً للاتفاقية.

ويقول: لقد مهدت الدماء العربية طريق اللورد اللنبي إلى القدس ودمشق وفقد الجيش العربي عشرين ألف رجل ويشير إلى المراسلات التي أجراها الشريف مع مكماهون عام ١٩١٥- ١٩١٦ ثم تبين أن لا قيمة لها ما لم تنص على دخول فلسطين في المنطقة العربية وقد نشر مؤلف كتاب (الحياة السرية للورنس الجزيرة العربية) وثيقة بريطانية بقيت سراً مدة ما يقرب من خمسين عاماً هي محضر اجتماع عقدته لجنة مجلس الوزراء للحرب الشرقية في لندن (١٩١٨/١١/٢٨) برئاسة اللورد كرزون: قال كرزون إن وضع فلسطين هو كما يلي:

«إذا كان لنا أن ننجز إلتزاماتنا فهناك الوعد العام لحسين في أكتوبر عام ١٩١٥ وبموجبه تدخل فلسطين ضمن المناطق التي ألزمت بريطانيا نفسها بأن تكون عربية ومستقلة في المستقبل.

ويقول المعلقون: إن الوثيقة لا يمكن أن تكون أكثر قطعاً فقد كانت بريطانيا تعلم يقينا إنما وعدت العرب أولا بفلسطين كجزء من منطقة عربية مستقلة».

أما لورنس فقد كان يعمل في إتجاه آخر يقول هوجارت: فمنذ أن صدر وعد بلفور عام ١٩١٧ فهو يسعى ملحا في تبديد مخاوف العرب من الأماني

الصهيونية وكان على رأس الحملة القائمة لإقناع العرب بتقبل الموقف. وقد عبر في تقاريره عن ثقته في التأثير على فيصل. «سأتحدث مع فيصل لصالح اليهود وسيكون موقف العرب مشوبا بالعطف خلال الحرب على الأقل» أما الشريف حسين فإنه لم يقبل إقامة دولة يهودية في فلسطين.

ثم نقضت بريطانيا وعودها للعرب: لن تكون فلسطين عربية ولا مستقلة ستكون منحة بريطانيا للحركة الصهيونية لإقامة دولة إسرائيل. ويوصي هوجارت حكومته باستعمال القوة ضد العرب ولم تجف بعد دماؤهم المراقة في سبيل الحلفاء، وقد تقرر أخيراً بأنه لامناص من أن تفرض بريطانيا تعهدها للصهيونية بواسطة القوة. كذلك فقد سعى لورنس لتدبير لقاء بين فيصل ووايزمان زعيم الحركة الصهيونية في فندق كارلتون في لندن، وكان لورنس قد تقابل مع وايزمان للمرة الأولى في فلسطين عقب سقوط القدس في ايدي الحلفاء وأعجب به إعجاباً فائقاً.

ويقول هو جارت: إن مباحثات كارلتون بين فيصل ووايزمان، كانت حلقة الختام لمحادثات سابقة بين فيصل والصهيونية بدأت قبل انتهاء الحرب. ففي ٤ يونية عام ١٩١٨ قصد وايزمان إلى العقبة ليقابل فيصل ويقول له:

«إذا كنت تريد أن تشيد مملكة عربية قوية وغنية فإننا نحن اليهود، قادرون على معاونتكم ونحن وحدنا، وسنكون جيرانك، ولن نشكل خطراً عليك لأننا لسنا دولة قوية ولن نكون».

وكانت المفاوضات مع فيصل كالمحادثات مع السلطان عبد الحميد والإتحاديين من بعد تستغل الحاجة إلى المال وفي اجتماع كارلتون (فيصل- وايزمان- لورنس المترجم) تحدث وايزمان عن وجود اتفاق يرمي إلى إرضاء الأطراف الثلاثة:

(١) بريطانيا: تحصل على الوصاية.

(٢) الصهيونية: تحصل على حق الدخول والتوطن.

(٣) فيصل: الحصول على أموال يهودية للتنمية ومساعدة في مؤتمر السلام؛ ثم ثارت عقبات وحاول وايزمان أن يضمن الوثيقة عبارتي: الدولة

والحكومة اليهودية وأصر فيصل على استبدال العبارتين بفلسطين وحكومة فلسطين كما أصر على إضافة تحفظ باللغة العربية في أسفل الصفحة الأخيرة من الاتفاق: هذا نصه:

« إذا استتب الأمر للعرب حسب طلبي في مذكرتي بتاريخ ٤ يناير إلى وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية فسوف أنفذ ما جاء بهذه الاتفاقية وإذا طرأت تغييرات فلن أكون مسؤلا عن عدم تنفيذها.

وبدأ تباين في ترجمة عبارة: (شريطة أن يحصل العرب على الاستقلال) بين صيغة فيصل وصيغة لورنس ويضيف النص العربي تحفظاً أكثر: (فلن أكون عندئذ مقيداً بكلمة واحدة مما جاء في هذه الاتفاقية التي تعتبر لاغية وبلا أثر أو مفعول).

وقد أشار المؤلف إلى أن لورنس أضاف جريمة التزوير إلى قائمة جرائمه وغايته أن يحصل على توقيع فيصل بأي ثمن. والمهم أن تقدم بريطانيا وثيقة اتفاق بين العرب والصهيونية إلى مؤتمر السلام وما دامت بريطانيا تحكم فلسطين والطريق مفتوح أمام الهجرة الصهيونية فإن مهمة لورنس تكون قد تمت اهـ.

هذا موجز المؤامرة بقلم كاتب غربي، ومشارك في الاحداث نفسها، تكشف عن مدى الخطورة التي استهدفتها محاولة تمزيق وحدة المسلمين: العرب والترك وإيقاع الخلاف بينهم والتمكين للصهيونية في فلسطين وللاستعمار في الأجزاء الأخرى والتمهيد للقضاء على الخلافة الإسلامية بعد القضاء على الدولة العثمانية الإسلامية.

ويكشف لورانس في مذكراته المعبرة القوية التي يجب أن تكون موضع تقدير المسلمين والعرب: عن طابع الاحتقار الذي يضفيه على الأحداث لأن العرب قبلوا التبعية للغرب:

« إن العرب اقترفوا الكثير من الأخطاء الفظيعة بسبب قبولهم نصائح اوربية لم يكن في مستطاعهم أن يدركوها. كان على المستشارين أن يعلموا أن العرب إذا ما ركبوا متن عقيدة وسلموا زمام أمرهم إلى نبي مدجج بالسلاح وأوكلوا إليه توجيه جهودهم غير المحدودة فإن في استطاعة الأيدي الماهرة أن

تصل بهم ليس إلى دمشق فحسب بل إلى القسطنطينية ايضاً ».

ولم يكن لورنس هو وحده الذي يعمل للاستعمار والصهيونية في البلاد العربية، في سبيل تعميق الخلاف بين العرب والمسلمين: وإنما كان هناك وفيلبي وكلايتون وغيرهم.

وقد استطاع الباحثون الكشف عن مخططات الاستعمار والصهيونية في وثائق كثيرة سرية تسربت في السنوات الأخيرة: قوامها القضاء على الإسلام وتمزيقه وتدمير الدولة العثمانية بأيدي العرب أنفسهم الذين حملوا لواء دعوة العنصر والدم إزاء اخوتهم في رابطة لا إله إلا الله فقاتلوهم، لقد حاول هؤلاء أن يقنعوا العرب بأن انتقاضهم على الدولة العثمانية يفتح الباب واسعاً أمام الإستقلال ولكن الذي حدث هو العكس تماماً، وضاع الدهاء العربي في آتون المؤامرة وبعد أن تمزقت الوحدة العربية التركية تمزقت الوحدة العربية إلى إقليميات تتصارع.

وقد اشار زهدى الفاتح إلى النتائج الخطيرة: التي تتمثل في أن لورانس مشى على خطأ هرتزل. لقد قال هرتزل: إن أهدافنا الرئيسية: تفتيت الوحدة الإسلامية ودحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها.

ولقد كانت القوى الاستعمارية الصهيونية قد أعدت خططاً سابقة للحرب العالمية الأولى لدراسة هذه المناطق العربية التركية، والاستعداد للحرب فيها، تدل على ذلك وقائع متعددة عن جواسيس أمثال لورنس وردوا هذه المنطقة تحت اسم التنقيب عن الآثار، وقد جاء لورنس نفسه إلى سوريا ١٩١٠ فيما أطلق عليه رحلة علمية للبحث عن الآثار في قرقميش (جرابلس) بآسيا الصغرى[١] «وقد ظلت مهمة هذه البعثة سراً دفينا إلا أن أفرادها كانوا يعملون في مناطق مهمة للغاية عسكريا واستراتيجيا، هذه البعثات لم تقف عند هذه المناطق بل تعدتها إلى أرض الحرم المكي أيضاً حيث ادعى واحد من هؤلاء أنه مسلم وأمضى هناك سنوات للبحث وتقييد الأماكن، وقد قام بهذا الدور العسكري

---

(١) زهدى الفاتح: لورنس العرب على خطى هرتزل.

الذي يوصف بأنه بحث عن الآثار: فيلبي الذي أمضى في الجزيرة العربية سنوات طويلة.

ولقد كانت معاهد الإرساليات في لبنان هي بمثابة: الركائز الحقيقة للاستعمار والصهيونية تستقبل هذه البعثات وتساعدها، وقد توجه لورنس وهوجارت إلى البحر لزيارة الكرمل وقرى اليرموك ومن درعا استقلا قطار خط الحجاز إلى الشام فحمص وحلب، حتى وصلا إلى قرقميش وقد ارتاب الأتراك، في أمر لورنس وهكذا عندما عاد لورنس ١٩١٦ كان يعرف كل شيء دون حاجة إلى دليل، فقد ارتاد المنطقة قبلا واحتفظ بدلائل وافية لها.

ولعل أهم دراسة قام بها لورنس وهوجارت وغيرهما هي ما حرص اليهود على دراسته وما زالوا يوالونه حتى اليوم وهو: تجربة الحروب الصليبية وكيف هزمها المسلمون لتفادي الوقوع فيا وقعوا فيه، ولذلك فإن لورنس كان يعمل على إعداد أطروحة عن الحروب الصليبية يحاول أن يكذب فيها حقائق التاريخ مما عرف للمسلمين من أثر في علوم الهندسة الحربية في الغرب بعد الحروب الصليبية والادعاء بعكس ذلك، وقد كتب فعلا أطروحة تحت عنوان (قلاع الصليبيين) مشيداً فيها مما أسماه فروسية العصر الصليبي. «راح يتخيل فيها نفسه فارساً صليبياً ولكن لحساب الصهيونية.

ولقد كانت رؤيا لورنس واسعة: وكانت أبعاد الموقف الإستعماري والصهيوني واضحة أمامه، وكان قادراً على معرفة الأبعاد بين:

(١) الدولة العثمانية التي مزقت.

(٢) العرب الذين خدعوا ولن تقوم دولتهم.

(٣) القضاء على الخلافة.

(٤) معارضة القوة الإسلامية الحديثة في شبه الجزيرة «الوهابية».

ذلك في حدود عباراته التي جمعها زهدى الفاتح وحللها: وأخطرها هذه الوثيقة: «أهدافنا الرئيسية: تفتيت الوحدة الإسلامية، ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب وهم الأقل وعيا للاستقرار من الأتراك فسيبقون في دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة

حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك، إلا أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد أية قوة خارجية ».

هذه الوثيقة تحت عنوان « سياسات مكة » يناير عام ١٩١٦ تكشفت الأفق الذي يراد بعالم الإسلام كله. الهدف » « تطويع العرب الذين خدعوا بالفكرة القوميـة لخدمة الأهداف الغربية (البريطانية) وكان ماكس نوردو الزعيم الصهيوني (خليفة هرتزل) قد أعلن في أوائل القرن إلى إمكـان استغلال (القومية) كسلاح لضرب العرب أنفسهم بحطام الامبراطورية العثمانية والقضاء على الإثنين معا في فلسطين خاصة، فيدخل اليهود هذه الأخيرة فارغة من السكان » كان (ماكس نوردو) يهدف إلى استغلال حركة القومية لتفريغ فلسطين من المسلمين: يقول « إن الحركة التي استحوذت على قسم كبير من الشعب العربي يمكنها أن تتخذ بسهولة وجهة سير تطال فلسطين أيضاً، وهكذا تصبح أرض أبنائنا من جديد ».

وهكذا نجد أن القوى الاستعمارية والصهيونية قد فرضت العنصرية باسم القومية في أرض العثمانيين وأشعلتها تحت اسم الطورانية حتى ضرب الاتحاديون العرب وعملوا على تتريكهم مما دفع العرب إلى التماس نفس السلاح فلما أصبحت القومية بديلا للوحدة الإسلامية أصبحت قوة تمكن الاستعمار والصهيونية من تحقيق أهدافها.

وإذا كان الاستعمار قد قضى على القوة الجديدة في مصر وقضى على الدولة العثمانية، وفتح الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين فإنه كان حريصاً على أن يدعم مطامع الصهيونية والاستعمار في مكة والجزيرة العربية ولذلك فقد أثيرت الدعوة إلى خلافة عربية وإلى جعل الخلافة الإسلامية وقفا على شخص ينحدر من الرسول العربي الكريم وتحويل مكة إلى كرسي بابوي على غرار روما، وكان الشريف حسين هو البديل للخليفة العثماني. ولقد سعى هرتزل نحو هذه الغاية غاية إسترجاع الخلافة من ايدي الأتراك، وتحويل مكة إلى كرسي بابوي إسلامي، وأن يربط بين هذا وبين حركة القوميين الذين يقودهم فكريا نجيب عازوري، الهدف، كما يقول زهدي الفاتح هو « القضاء على أية محاولة لإحياء

الكيان الإسلامي » وإبدال الكيان القائم ببديل ضعيف مهين، ولقد كان لورنس ممثلا للصهيونية والاستعمار الغربي معا في محاولة مساعدة العرب على إقامة دولة قومية علمانية متخلية عن الإسلام في سورية، لقد تحول الوعد بدولة عربية إلى تعيين أبناء الشريف ملوكا على دويلات مفككة سواء في العراق أو في شرق الأردن، أو سوريا.

لقد كان لورنس واعياً للهدف وهو الذي يقول في أحد الوثائق السرية التي كتبها:

« مهما تمخضت عنه هذه الحرب فنجد أن تكون نتيجتها القضاء وإلى الأبد على السيادة الدينية للسلطان التركي ».

أي القضاء على كل ما تمثله الامبراطورية العثمانية من نفوذ إسلامي، ومكانة يرتبط بها اغلب المسلمين في العالم كله.

ويصور لورنس في وثائقه السرية خطورة الدولة السعودية التي يخشى أن تكون قوة جديدة بعد سقوط الدولة العثمانية «إذا أصر عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود في تبني الوهابية فإننا يجب أن نشن بفرق الجيش الهندي الإسلامية حرباً لإستعادة مكة وقهر الحركة الوهابية، لقد اقترحت عام ١٩١٨ أن نفعل ذلك بعشر دبابات » وهكذا نجد أن لورنس في إطار الإستعمار والصهيونية العالمية قد عمل كثيرا.

الفصل الثالث

تحقيق حلم الصهيونية في الوصول الى القدس

ثالثاً: مكنت الصهيونية من أن يحقق حلمها في الوصول إلى القدس، بعد ثمانية عشر قرناً، وبعد أن أخرجها الرومان عام ٨٠ ميلادية وهدم الهيكل، استطاعت الدونمة المقيمة في سالونيك إعداد خطة طويلة المدى بالدخول في الإسلام والعمل على احتوائه من الداخل وإقامة المحافل الماسونية لتدين الخطط السرية لضرب الخلافة والدولة الإسلامية والسيطرة على الحركات الوطنية القومية واحتوائها حتى تمكنت هذه القوة من عزل الخليفة وفتح الطريق إلى القدس بواسطة أوليائهم الاتحاديين.

عندما طرد[١] اليهود من اسبانيا عام ١٤٩٣ أصدر السلطان بايزيد الثاني أمراً يقضي بحسن معاملة اليهود في الدولة العثمانية وقد أمر لهم السلطان محمد الفاتح عام ١٤٧١م بالاستقرار في استانبول وعين لهم حاخام باشي خلع عليه سلطات واسعة وأصبحت فلسطين وممتلكات الدولة العثمانية ملجأً لليهود المطرودين من اسبانيا والبرتغال والهاربين من الاضطهاد في البلاد المسيحية الأخرى، وقدر عدد اليهود في فلسطين في القرن السادس عشر بعشرة آلاف نسمة، وفي منتصف القرن الثامن عشر جاء يهود من بولندا وروسيا إلى فلسطين (صفد وطبرية) وفي آخر هذا القرن وجه نابليون ندائه إلى اليهود في آسيا وافريقيا بعد حملته على مصر، الذي وعدهم فيه بإعادة اليهود إلى القدس وإعادة بناء هيكلهم من جديد إذا ساعدوه في غزو فلسطين. ولكن يهود الدولة العثمانية لم يعيروه أي اهتمام، ويقدر المؤرخون اليهود أن نداء نابليون كان هو الحافز الذي حفزهم فيما بعد للتفكير في مشروع تأسيس دولة لهم في فلسطين،

---

(١) مجلة الدارة السعودية

وعندما تم الانسحاب المصري من الشام عام (١٨٥٠) بذل بالمارستون مساعيه لدى السلطان العثماني لإعادة اليهود إلى فلسطين ولما فشل في ذلك أصدر تعليماته الصريحة إلى القناصل الإنجليز بالدولة العثمانية بمنح الحماية البريطانية لجميع اليهود الأجانب وهكذا بدأ الإستعمار يتعامل مع الصهيونية العالمية.

وأعلن بسمارك في ألمانيا عام ١٨٧١م أنه اتخذ الأجراءات لرفع كافة القيود عن اليهود مما يؤدي إلى حل المسألة اليهودية في المجتمعات المسيحية التي نشأوا فيها، غير أن اليهود قاوموا سياسة (الاندماج) لأنها في نظرهم تقضي على ميزاتهم التي يتفردون بها وقد كان للتحول الذي شهده المجتمع الأوربي من التعصب الديني أوائل القرن ١٩ إلى القومية العنصرية في العقود الأخيرة منه (وكان من أثر ما أحدثه اليهود بالثورة الفرنسية لإقامة قوميتهم العنصرية).

وقد كانت خطة مقاومتهم للاندماج في الجمعيات القومية، مقدمة للتنادي بالقومية اليهودية، وجرى اتجاه نحو قومية يهودية والبحث عن وطن خاص لليهود وجاءت احداث ١٨٨١ التي رافقت اغتيال قيصر روسيا لتؤكد هذا الاتجاه بعدها وقد كان القيصر يحاول محاولة الادماج ايضا الكسندر الثالث الذي اغتاله اليهود لإيقاف محاولة الادماج، وتلى مقتله هجرة جماعية واسعة من روسيا وأوربا الشرقية نحو الغرب ووصل إلى فلسطين جماعات منهم، وشهدت فلسطين موجات أخرى في أعقاب فشل الثورة. وقد وقفت الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية موقفا حاسما، بعدم السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين وإن سمحت لهم بالاستيطان في ولايات الدولة الأخرى، وتدل صحائف التاريخ ومراجعاته إلى أنه في عام ١٨٨٧ بدأت تتحرك من أنحاء العالم جموع من اليهود متجهة إلى القدس وجوارها بهدف إعادة تأسيس مملكتهم القديمة وفي ١٨٩٦ سعى هرتزل للاتصال بالسلطان محاولا اتخاذ تفاهم عثماني يهودي يساعد السلطان بموجبه اليهود فيعطيهم مساحة من الأرض مقابل استعداد اليهود لدعم مالية الدولة والتأثير على الرأي العام الأوربي ليقف إلى جانب السلطان. وقدر هرتزل ثمن فلسطين بمبلغ عشرين مليون ليرة تركية.

وقد رد السلطان بعد شهر من مسعى هرتزل (يونية عام ١٨٩٦):

« إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه أن لا يسير أبداً في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدما واحدة من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي ولقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية باراقة الدماء وقد غذوها بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا، الإمبراطورية التركية ليست لي وإنما للشعب التركي، لا أستطيع ابداً أن أعطي أحداً أي جزء منها، ليحتفظ اليهود بملايينهم فإذا ما قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل، إننا لن نقسم إلا جثثنا ولن أقبل بتشريح أجسادنا لأي غرض كان ».

وحاول هرتزل أن يستميل السلطان، بوسيلة أو بأخرى، ولكن السلطان تشبث بموقفه المعارض للهجرة اليهودية خصوصاً بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بال (أغسطس عام ١٨٩٧) وزاد من اهتمامه بشؤن متصرفية القدس وقد أبرق السفير العثماني في وشنطون (أبريل عام ١٨٩٨) إلى يلدز بأن هدف الصهيونية إحياء اليهودية في فلسطين وإقامة حكومة مستقلة فيها وأن بين يديه نشرة عبرية تبين مطامعهم وبعض يهود أمريكا موالون للفكرة وزادت الأنباء مخاوف السلطان فأصدر قراراً (يونية عام ١٨٩٨) يمنع اليهود الأجانب من دخول فلسطين دون تمييز بين جنسياتهم.

وحاول (هرتزل) فوسط القيصر الألماني لمكانته لدى السلطان دون جدوى وقد تمكن من مقابلة السلطان بعد أكثر من خمس سنوات (١٨ مايو عام ١٩٠١) على أساس أنه رئيس لليهود وصحفي وليس كصهيوني ودار الحديث حول مشاكل الدولة الاقتصادية وتصفية الدَّين العام وما يمكن لهرتزل أن يقدمه من مساعدات مالية واستمرت الاتصالات عن طريق (عزت العابد) حول عروض منها إنشاء شركة أراضي تمسح المناطق غير المستغلة، لتمكن من إسكان الأهالي، وطلب عزت العابد من هرتزل أن يقدم تعهداً بأن من يدخل من اليهود الأمبراطورية يصبح من الرعايا العثمانيين، ورفض هرتزل، وطالب بهجرة غير مقيدة، ولم تحقق هذه المحادثات شيئاً فقد أصر السلطان على موقفه وإن كان قد أفسح لهرتزل ليعرف طبيعة ما عنده إلى آخر الشوط وظل السلطان طيلة حكمه (١٧٧٦- ١٩٠٩) عقبة كأداء في وجه المشاريع اليهودية وبخاصة

وصول الصهيونية إلى فلسطين وإذ فشلت الصهيونية مع السلطان واصلت مساعيها مع جمعية الإتحاد والترقي التي جاءت إلى الحكم بعد حركة ١٩٠٨ وتمكنت من تحقيق قسط يعتد به من النجاح بفضل المساعي التي بذلتها عناصر في الحكم من يهود الدونمة الذين تستروا بالإسلام ولعبوا دوراً في الثورة على السلطان، لذلك رحبت الأوساط الصهيونية بالثورة وأصبح لها نفوذ في جمعية الإتحاد والترقي. وفي عام ١٩١٣ كان أربعة من يهود الدونمة يحتلون مناصب رفيعة في الحكومة العثانية منهم: جاويد بك المالية- بساريا أفندي وزير النافعة، مازلياج: التجارة والزراعة وكان حسين جاهد رئيساً لتحرير جريدة طنين. واستمرت عملية شراء الأراضي من قبل اليهود وحقق اليهود في ثلاثة أشهر أكثر مما حققوه في ثلاث سنوات، وأجرت حكومة الإتحاديين مفاوضات سرية مع الحركة الصهيونية لبيع الأراضي الأميرية في فلسطين وسوريا واستجابت سلطات الاتحاديين لرغبات الصهيونية تحت وطأة حاجة الخزينة الماسة إلى المال. وفي مارس عام ١٩١٤ ألغت حكومة الاتحاديين القيود المفروضة على تملك اليهود للأراضي في فلسطين وبذلك اختفت تماماً القيود التي فرضتها حكومة السلطان عبد الحميد للوقوف في وجه الهجرة اليهودية بل وأظهرت حكومة الإتحاد والترقي عطفها البالغ على الحركة بإلغاء جميع القيود على الهجرة اليهودية وامتلاك الأراضي.

وهكذا دخلت السيطرة الصهيونية مرحلتها الحاسمة.

وقد جرت هذه الخطوات من خلال تنظيم صهيوني ضخم وواسع عرف بحكومة العالم الخفية، حسبا أشار كثير من الباحثين منهم (شيرين وسيبرية وفينش) في كتابه (حكومة العالم الخفية) ومنهم وليام غاى كار في كتابه (أحجار على رقعة الشطرنج).

وينطلق المؤلف في كتابه عن اقتناع كامل بوجود هيئة يهودية لها صفة عالمية قدر أفرادها في أوائل القرن العشرين ثلاثمائة حبر يهودي يرأسهم أحدهم، يعملون وفق خطة قديمة مرسومة للسيطرة على العالم فهم عبارة عن حكومة خفية تحكم الشعوب بواسطة عملائها ولا تتوانى عن قتل أو تحطيم كل مسؤل يحاول أن يقف في سبيل تنفيذ مخططاتها، ولها من القدرة والنفوذ ما يمكنها من

إيصال أي حقير إلى الزعامة، وتحطيم أي قائد يعارضهم، ويؤكد (م. كونيد البنسي) أن القوة الخفية التي تتحرك من خلف الماسونية هي الحكومة السرية للشعب اليهودي:

وأن هذه المحاولة تجديد لطموحهم القديم بعد أن سحقت دولتهم مرتين: ٥٨٧ق. م. بختنصرو (٨٠ ميلادية الرومان) وأن اليهود إبان الأسر في بابل قد اخترعوا فكرة الوعد ورسخوا في أذهانهم خرافة (شعب الله المختار) ليحافظوا على وحدة الشعب وصفاته العنصرية ويعيدوا إليه ثقته في نفسه وقد بدأت في العصر الحديث من خلال محافل الماسونية بالصهيونية الذي لا يختلف عليه الماسون مع غيرهم هو تسلسل الصهيونية إلى الماسونية واستغلالها وحتى يصحح الحاضر، فليس هناك اختلاف على علاقة الماسونية بالصهيونية ولكن فئة كبيرة من الناس تجزم بأن الماسونية بجميع محافلها تدار عن طريق التسلسل من قبل قيادة يهودية لا يدخلها غير اليهود وقد تبين من بعد أن الصهيونية احتفلت عام ١٩٦٤ في فلسطين المحتلة بوضع الحجر الأساسي لأكبر محفل ماسوني في العالم قال الحاخام الإسرائيلي بالحرف الواحد: (يحتفل اليوم بوضع الحجر الأساسي لأكبر محفل ماسوني في العالم وسيضيء الطريق أمام الماسونية لتحقيق أهدافها هو العودة بكل الشعوب إلى أول دين محترم أنزله الله على هذه الأرض وما عدا ذلك فهي اديان باطلة، أديان الفرقة بين أهل البلد الواحد وبين أي شعب آخر وسيأتي يوم قريب يتحطم فيه الدين المسيحي والدين الإسلامي ويتخلص المسلمون والمسيحيون من معتقداتهم الباطلة[1].

ويتصل بهذا ما أشار إليه الحاخام «أمانوئيل رائيوفيتش» في تصريح له عام ١٩٥٢ من أن الحرب العالمية الثالثة سيوقدها اليهود للتخلص من الأنظمة القائمة في العالم وخاصة في العالم الإسلامي وإقامة الدولة اليهودية العالمية.

وهكذا نجد صورة التآمر الصهيوني والاستعماري في السيطرة على الإسلام: سواء أكانت الصهيونية هي التي تستغل الاستعمار أم أن الاستعمار يستغلها، فالواقع أن هناك مؤامرة مشتركة بين مختلف العناصر إزاء هذا العالم الموحد،

(١) مجلة القوات المسلحة عدد ١٩٦٤/٤٢١

الذي يحاول أن يقيم المجتمع الرباني وأن ما يجري في هذا العصر ليس إلا موجة جديدة من موجات ذلك التآمر القديم الممتد في موجات متوالية وبصور مختلفة على مدى التاريخ. يشترك فيها اليهودية الحاقدة على الإسلام والغرب الطامع في مصادر الثروة والنفوذ والمختلف مع المسلمين في العقيدة، ولقد كان اليهود حرباً على الإسلام اينا حلوا يؤلبون الأقوام عليه، وكان الإسلام حامياً لهم في كل مكان يلوذون به في الأندلس وفي الدولة العثمانية وقد كان اليهود من وراء كل المؤامرات التي عرفها عالم الإسلام وخاصة فيا يتعلق بالسيطرة المالية والاقتصادية ويرجع ذلك إلى خضوع عالم الغرب لهم في هذا المجال.

يقول ولتر رانتو (الوزير الألماني الذي اغتيل ١٩٢٣) تحت عنوان العامل الخفي في سياسة الدول الغربية: أن العالم المتمدن بأسره اليوم يخضع في حياته الاقتصادية لطائفة من المولين كادت في بعض الدول تستولي على السلطة بأكملها فهي في الواقع تسن القوانين وهي تقرر الحرب والسلم. إن سيطرة كهذه لمن اسوأ أنواع السيطرة فإنها خالية من كل فكرة عالية أو نزعة سامية ولا دافع إلا المصلحة المادية ولا غرض إلا اجتياز الثروة والسلطة.

وتحت تأثير المال والاقتصاد والسيطرة على أجهزة الصحافة استطاع اليهود تجنيد كبار الشخصيات لغايتهم الزائفة التي أقاموها بالباطل. وقد وصفها أحد كبار اليهود (مورجنيو) سفير أمريكا في الأستانة بأنها: أعظم تضليل ظهر في التاريخ اليهودي».

وإلى اليهود توجه التهمة بأنهم زعماء الحركات الثورية والإنتفاضية ورؤساء الأحزاب المتطرفة وأركان النظام البلشقي، وأنهم ثانيا ملوك الصيرفة والمال يسيطرون على أسعار الأشياء وعلى تقلب العملة والأوراق المالية، ويذهب بعض المتطرفين إلى أن هناك اتفاقا سريا بين الماليين اليهود ودعاة الانقلابات تقضي بأن يمد الأولون الآخرون بالمال لإحداث الفتن والقلاقل بغية استثمار هذه الحالة والاستفادة فيها فإن من الأمور المقرر أن حالة الاضطراب كثيرة الملائمة لأرباب الصيرفة والمضاربة. ومن يراجع تاريخ الثروات التي جمعتها الأسر اليهودية الشهيرة (كأسرة روتشيلد) يرى أن منشأها هو الحصول على معلومات سياسية

ذات شأن والاستفادة منها قبل انتشارها بين الجمهور وأنهم يعملون على إضعاف الرابطة الوطنية والقومية ،وقد انتشر اليهود بعد الثورة الفرنسية حيث حطموا القيد الذي وضعته الكنيسة عليهم واستفادوا من المساواة الاجتماعية وأصبح لهم نفوذ وسطوة وقفزوا للسيطرة على قيادة الإعلام والصحافة والسينما والمسرح والفنون والآداب وقد عمل اليهود في العصر الحديث في عدة ميادين للإعداد لخطتهم، فكان مما عملوا له أن زيفوا دوائر المعارف بحيث تتفق مع غايتهم، وأذاعوا عن طريق الصحافة والأدب والفكر وقد سيطروا عليها تماما أن ما يسمونه بالمدنية المسيحية: مدنية أوربا الحالية على وشك الزوال وبالطبع ستقوم مقامها مدنية أخرى هي المدنية اليهودية نتيجة للشيطرة المالية على مختلف أمور العالم، وقد كان لليهود نجاحهم الواسع في إيقاد نار الحرب العالمية الأولى ثم الثانية التي لم يربح منها غير اليهود الذين أعانوا بقروضهم الجهتين المتقاتلتين، ثم سيطروا على علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والأخلاق وقدموا فيها نظريات هدامة بغية تدمير القيم التي قدمها الإسلام والمسيحية في العالم.

وقد استطاعت الصهيونية أن تستغل جميع وسائل الإعلام وفنون الحرب الخفية والسافرة لتمزيق شمل المسلمين وكان احتلال فلسطين هادفاً إلى شطر العالم الإسلامي وإعاقة الوحدة بين أجزائه وهذا ما حاوله الصليبيون في العصور الوسطى وهو هدف مقصود لذاته، وتمزيق شمل العالم الاسلامي ومنع قيام الوحدة.

وكذلك العمل اساسا على الحيلولة دون قيام وحدة الفكر فيه (وسندرس في الفصول القادمة أثر الصهيونية في الفكر الغربي والفكر الاسلامي) وكذلك السيطرة على موارد العالم الاسلامي، والأسواق العالمية وعلى البنوك العظمى وعلى وسائل الإعلام، كذلك سيطرت على معظم زعماء العالم بوسائل التهديد بالإغتيالات أو فضح اسرارهم الخاصة أو شراء ضمائرهم عن طريق الشركات الكبرى ومن ذلك الانقلاب العثماني الذي اسقط الدولة الإسلامية الكبرى ومقادير الترك والعرب فيها العصبة الطورانية طريقاً إلى فلسطين وتمزيقا للبلاد العربية بل إن مخططات إرساليات التبشير المسيحي في العالم الإسلامي كانت في قسم كبير منها وهو القسم الذي يتبع «البروتستانية» تسيطر عليه الفكرة

الصهيونية ويستهدى في مناهجه على ضوء التلمودية فكرا والصهيونية هدفاً.

وقد أشار كثير من الباحثين إلى المخطط الصهيوني للإستيلاء على العالم تتضمن دعوات مختلفة:

(١) الحكومة العالمية.
(٢) لغة الأسبرانتو.
(٣) الهيبز وقلق الشباب.
(٤) سيطرة لليهود على مقدرات الدول الكبرى العالمية.

وتشير كثير من الأبحاث السياسية أن الصهيونية قد تمكنت في الغرب من إحتواء الأمبريالية الغربية وسخرتها من أجل تحقيق أهداف اسرائيل، وما يزال نفوذ الصهيونية نافذاً في البيوت التجارية وتجارة السينما السوداء، والجمعيات والمنظمات، ومصادر الإعلام في الصحف والتليفزيون وصالات عرض أفلام الجنس، وأنها من وراء استنزاف ثروات البشرية في مجال الترف والإنحلال حتى تحرم منها الأمم صاحبة الحق في الانتفاع بها مع ترك الملايين من أبناء تلك الأمم جياعاً وعراة.

وما تزال دعوة اليهود العالمية في كل عصر وبيئة والتي يجددونها في هذا العصر تحت أسماء عصرية ومذاهب أيدلوجية براقة، هي الربا والإباحية والتفرقة العنصرية واستغلال الشعوب يستخدمون في سبيل ذلك ما أسموه علم الانثربولوجيا والنفس والعلوم الاجتماعية ودعوات الانفجار السكاني والإباحيات وغيرها، لتبقى هذه المجموعة القليلة من المسيطرين على مقدارات الحياة البشرية هم وحدهم المالكين ويبقى العالم بعد ذلك عبيداً لهم وخدماً، المحاولة ترمي اساساً إلى تهويد العالم فكريا وإحلال مفاهيم (المادية) في عقول وقلوب الناس إعلاءاً لحيوانية الإنسان وإذلالا لإنسانيته ومنعاً دون قيام المجتمع الرباني وما يزال الصراع قائما بين هذا الفكر البشري الوثني الإباحي المادي وبين الفكر الرباني المصدر الإنساني الطابع وسيظل، حتى يتم الله نوره وحتى يتم آياته ويتبين للناس أنه الحق.

لقد سجل اليهود وجهتهم هذه في صراحة تامة:

« إثارة حملة الأحقاد والكراهية في الشرق ضد الغرب وأيضاً في الغرب ضد الشرق ولن نسمح بأي حال بوجود دول ما تقف على الحياد أو غير منحازة بل سنعمل بكل ما في وسعنا من مراكزنا في كل معسكرات القوى الكبرى على إرغام الدول التي تفكر في الحياد أو عدم الانحياز أن تلجأ طواعية أو كرها إلى معسكر قائم، وهذا ييسر لنا العمل في جبهتين متواجهتين نعلم ما بداخل كل منها وأن يتعارض بطبيعة الحال مصالحها، وهذا وحده هو السبب المباشر الكافي لإشعال الحرب العالمية الثالثة عندما تندفع هذه المصالح في اتجاهات متضاربة متعارضة ».

بروتوكولات صهيون:

وهذا يتفق مع ماورد من قولهم: سوف نستثمر كل أموالنا لتغذية هذا العداء المتبادل بين الشرق والغرب مع استمرار استدرار عطف العالم على اليهود في الوقت الذي تدعم فيه اسرائيل اقتصادياً وعلمياً وبشرياً على حساب من حولها من العرب الذي يجب أن نشغلهم بالفتن الداخلية حتى لا يتفرغوا أبداً ولا يشعروا بما نفعله في إسرائيل، وعلينا أن تبقى إسرائيل بعيدة ما أمكن عن نار الحرب العالمية الثالثة حتى تكون قادرة على ممارسة إقامة الحكومة العالمية في روما بعد إنتهاء الحرب. وعلينا أن نضمن لها موازنة البقاء بأن يبقى ارتباطا مع الولايات المتحدة من جانب معين وعلى ارتباطها بالاتحاد السوفيتي من جانب آخر ».

اصدرت الكنيسة الكاثوليكية وثيقة حثت فيها على وضع حد لمعاداة السامية وأعربت بصورة مباشرة عن موافقتها على إقامة دولة اسرائيل. كما أصدرت قراراً بتبرئة اليهود من محاولة قتل السيد المسيح عيسى بن بريم.

كذلك تبين مدى العلاقة الجذرية والصلة العضوية بين الصهيونية والشيوعية فقد تسربت وثائق كثيرة تكشف عن مؤامرة السيطرة المزدوجة عن طريق وضع العالم بين كسارة البندق، من حيث سيطرة اليهود على العالم الغربي الرأسمالي وسيطرتهم على وليدتهم الماركسيةاللينينيةالمطبقة في روسيا والصين وغيرهما.

كذلك تبين أن فكرة الفصل بين اليهودية والصهيونية هي خدعة ماكرة،

وأن الرأي الصحيح هو أن الصهيونية هي الواجهة السياسية لليهودية، تلقى إليها حركة العمل وتنسب إليها الخطأ في حالة التراجع أمام العالم.

كذلك إنكشفت العلاقة بين الصهيونية من ناحية وبين العلوم الحديثة التي تحاول سحق المجتمع البشري. (٢) علاقتهم بالماركسية (٣) وعلاقتهم بالعلوم الاجتماعية (دوركايم). (٤) وعلاقتهم بالتحليل النفسي (فرويد). (٥) وعلاقتهم بالوجودية (سارتر). (٦) وعلاقتهم بالبهائية (عباس البهاء) وبالجملة فإلى الصهيونية ترد متغيرات كثيرة في العالم الحديث تكشف عن جانب من مخطط الغرب كله في مواجهة الإسلام ذلك أن الصهيونية ترى نفسها الوريث الوحيد للاستعمار الغربي على اعتبار أن الشيوعية هي شطرها الآخر.

وقد استهدفت تحقيق غايتها في السيطرة على فلسطين أساسا لتنطلق منها للسيطرة على العالم كله، وفي مقدمة هذه المتغيرات والتحولات: الثورة الفرنسية والانقلاب الشيوعي والحربين العالميتين الأولى والثانية ثم بعد ذلك دعوات الوطنية والقومية والفكر الماركسي والوجودية، والمادية والصراع الطبقي، والطوابع الإباحية العالمية المتصلة بالعرى والفساد والأغاني والسينما والفن والمسرح الذي هو عندهم بديل دور العبادة، ولقد كانت الماسونية مدخلهم إلى العالم كله، وإلى هدم الأديان والتقاليد والأخلاق والقيم حتى قال جورج زيدان في كتابه تاريخ الماسونية العام:

« إن الماسونية كانت مصدراً لكثير من التعاليم التي أصبحت من أقوى دعائم التمدن الغربي الحديث ».

الفصل الرابع

اسقاط الخلافة

(رابعاً) أمكن تحقيق الغاية الكبرى بإدخال الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى دون أن يكون لها أي مصلحة أساسية، في صف الألمان وهزيمتها وتمزيقها وإعدادها لإسقاط الخلافة وإقامة نظام ديمقراطي غربي يستأصل الإسلام، فقد كان القضاء على الوحدة الإسلامية في كل صورها وأشكالها هدفاً أساسياً للاستعمار والصهيونية والروس قبل البلشفية وبعدها. إذ كانت الوحدة الإسلامية هي العامل الخطير الذي وقف في وجه الزحف الاستعماري وتقسيم ميراث الدولة العثمانية وكان الإسلام هو الذي قاوم الإستعمار في كل مكان من العالم الإسلامي، ولذلك فقد عملت قوى الغرب على تحطيم الوحدة الإسلامية بإعداد ثلاثة أعمال متصلة:

(١) إسقاط السلطان عبد الحميد.
(٢) هزيمة الدولة العثمانية وتقسيمها.
(٣) إلغاء الخلافة الإسلامية والحيلولة دون قيامها.

وقد سعى الغرب إلى ذلك سعياً حثيثاً واستخدم كل الوسائل وأهمها بث روح الوطنيات والقوميات في كل أجزاء العالم الإسلامي حتى يشغلها بالبعد التاريخي الإقليمي الخاص بها ويعزلها عن فكرة التجمع الأفقى الشامل ومن شأن ذلك في تقديرهم أنه يقضي على النظام الإسلامي نفسه كنظام مجتمع ومنهج حياة وبذلك سيطرت القوانين الوضعية وعزلت الشريعة الإسلامية تماماً إلا من مناطق قليلة جدا في العالم الإسلامي.

وجرت الدعوة إلى إعلاء الرابطة العنصرية والدموية والعرفية واللغوية والجنسية ووصف الرابطة الإسلامية بأنها عامل من عوامل التعصب والتأخر-

والهدف من ذلك هو حل عروة الإسلام وكانت فكرة الجامعة الإسلامية قد ظهرت كرد فعل للمحاولات الخطيرة حين أخذ الاستعمار يقتطع أجزاء من العالم الإسلامي ويستولي عليها وكانت الحركة بقيادة السلطان عبد الحميد ذات أثر كبير، لأنها بيد حاكم له سلطانه ونفوذه، كما أنها كانت تمثل قوة «قائمة» يمكن أن يتجمع المسلمون جميعاً من خارج الامبراطورية العثمانية إلى ظلها. وهذا هو ما تحقق فعلا وأخذ يؤتي أكله لولا مسارعة الإستعمار والصهيونية إلى (إجهاض) هذه الحركة بعزل السلطان عبد الحميد والتآمر عليه ولقد اهتز الغرب لفكرة الجامعة الإسلامية التي دعا إليها عبد الحميد اهتزازاً شديداً وهاجمها كرومر ودراكور وزعماء الفكر الغربيين خوفاً من آثارها البعيدة وألبوا عليها فرنسا وانجلترا.

ولقد حدد الإستعمار والصهيونية مرحلتين لتنفيذ المخطط:

المرحلة الأولى: وهي «مرحلة الاتحاديين»: الذين حكموا بعد السلطان عبد الحميد وهؤلاء حجبوا الخلافة ونفذوا مشروعاً قائماً على «التمويه» بحيث ترى دعوة ظاهرة إلى التجمع تحت لواء الخلافة، وفي نفس الوقت تجري دعوة الطورانية من خلفها وتجري دعوة العرب إلى دعم الوحدة العثمانية في نفس الوقت الذي يقتتل فيه العرب على المشانق حتى لا يقوم لقاء جزئَيْ الأمة الإسلامية (العرب والترك) سنوات وسنوات.

لقد عبد الاتحاديون الطريق أمام الخطوة الأخيرة: وكانت اعمالهم الثلاث الكبرى من أهم الأعمال.

(١) فتحوا الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين.
(٢) سلموا طرابلس الغرب للاستعمار الإيطالي.
(٣) أدخلوا الدولة العثمانية الحرب العالمية دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل في صف الألمان. ثم عمدوا إلى تتريك العرب وإثارتهم على الدولة وتحريضهم على الانفصال والإلقاء بأنفسهم في أحضان الحلفاء وهو ما حدث فعلا.

ولما انتهى دور الاتحاديين وحملوا مسؤلية خراب الدولة العثمانية بما كبدوها

إياه خلال الحرب العالمية وما بعدها، اختفوا ظاهرياً ليظهروا في صورة جديدة تحت لواء مصطفى كمال.

وكذلك كان الاتحاديون ثم الكماليون: نسقاً واحداً. ومخططاً واحداً وجهة واحدة قسمت نفسها على العمل تحت اسماء (نيازي وطلعت وجمال) ثم تحت اسم (مصطفى كمال، عصمت إينونو) من بعد وهم ماسون، ودونمة، وأتباع ثقافة الثورة الفرنسية، والمعلون بشأن جنكيزخان، والكارهون للإسلام والقرآن والعرب، والمؤمنون بتحطيــم الوحدة الإسلامية، والتفريق بين العرب والترك، والداعون إلى القضاء على الشريعة الإسلامية، والخلافة، وقد نفذ الاتحاديون المرحلة الأولى فيها فلما انتهت الحرب الأولى بهزيمة الألمان والدولة العثمانية بدأ الغرب في وضع السكين في الزبد لتقطيع الأوصال والانتقام على النحو الذي ظهر في معاهدة سيفر عام (١٩٢٠) وبدأ الاتحاديون بإسم الكماليين في تمزيق وجه الدولة العثمانية من الداخل ونقل الأتراك إلى الغرب نقلا كاملا.

تمهيدا للقضاء على الخلافة الإسلامية بعد القضاء على الدولة العثمانية التي كانت القوة الحامية للاسلام أربعمائة سنة.

وقد بدأ الكماليون بالفصل بين السلطنة والخلافة وجعل الخلافة روحية محضة. وكان هذا خطوة في سبيل إعلان إسقاط الخلافة على سبيل التدرج. وقد كشف المفكرون المسلمون مدى ما يحمله هذا الخطر المهد لإلـقاء الخلافة. فقال شيخ الإسلام «مصطفى صبري»: إن الإمامة الكبرى التي يعبر عنها بالخلافة تتضمن حكومة تنفيذ الشريعة الإسلامية، فتجريد الحكومة من الخلافة والتفريق بينهما يخرج الحكومة عن أن تكون إسلامية، وهي تهدف إلى قطع علاقة الدين بإجراءات الحكومة حتى لا تمتد يده إليها ويبقى ملغى عن العمل، ويصور ذلك بأنه محاولة من الاتحاديين وأخلافهم لفتح الحصن من داخله، وهكذا أقام الكماليون خلافة بغير سلطة لمدة عام وبضعة أشهر، وقالوا إن الخلافة اندمجت في الحكومة. «وكيف تندمج الخلافة النبوية في حكومة أهانتها واحتقرتها كل الاحتقار وأبطلت المحاكم والأحكام الشرعية وعدت ربط الحقوق بها ربطاً بالخرافات وأعلنت الإلحاد ورفضت أن يكون دين الدولة: الإسلام.»- ا.هـ.

ويشير شيخ الإسلام مصطفى صبري إلى أن معاهدة سيفر القاسية قد عدلت من بعد في مؤتمر لوزان وخففت آثارها بعد أن دفعت تركيا الكمالية الثمن في تلك المعاهدة السرية التي تناثرت أخبارها. (وأنا أنقلها هنا مما أورده مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني في مذكراته).

قبول تركيا شروط الصلح الذي عقده الحلفاء معها في لوزان عام ١٩٢٣ والمعروفة بشروط كرزون الأربعة وهي:

(١) قطع كل صلة بالإسلام.
(٢) إلغاء الخلافة.
(٣) إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد.
(٤) اتخاذ دستور مدني بدلا من دستور تركيا القديم (ا.هـ

يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري: ما سر نجاح عصمت باشا في مؤتمر لوزان وارتقاء ذلك النجاح إلى كونه نجاحا تجاه دولات لم تغرب الدول الكبرى عن حوزة شموها ولم تقتصر على اليونان فقط حتى محا الحسابات العتيقة الأمتيازية فقط وكان عاتق الدولة العثمانية يحمل اثقالها منذ عهد بعيد مع أن عصمت باشا لم يظهر بسلاحه على الانجليز في ميدان الحرب وميدانها ولم يضيق الإرض بما رحبت كما ضيقها على اليونان وكيف عمهم ظفره في مؤتمر لوزان، لقد لمح مستشار وزارة الخارجية البريطانية إلى هذا السر العميق في برلمانهم بعد ما أتم مؤتمر لوزان عمله وعاد، قال بعض النواب عن المعاهدة إنها انهزام سياسي لم يسبق مثيله في تاريخ الانجليز تجاه الأتراك ولو غلبونا في الحرب العظمى ما استفادوا بأكثر مما منحوا في هذه المعاهدة».

قال المستشار: «عليك بوزن المسألة من حيث الفرق بين دولتي الترك القديمة والجديدة فهي اليوم دولة ملية متحدة، يعني: مقصورة في هذه الدائرة المحدودة ومنقطعة عن تعلقاتها الفسيحة العميقة لأقطار العالم باشتمالها على الخلافة الإسلامية الكبرى. وقد باحت جريدة (وقت) التركية عن السر العميق الذي ذكرناه آنفاً وكانت الجرائد الانجليزية تكتب: أنه ما دام شكل الحكومة في تركيا جامع بين الخلافة والسلطنة فإنه لا يمكن تطبيق قاعدة المساواة على

الأقليات غير المسلمة وإن القيود المدهشة التي تحتويها معاهدة سيفر باسم حقوق الأقليات فهي نتيجة طبيعة لذلك الشكل من الحكومة: أي الحكومة الحائزة للخلافة » أي أن الثمن هو إسقاط حكومة الخلافة الشرعية وإقامة حكومة لا دينية وكان هذا هو العربون الذي قدمه مصطفى كمال للغرب، وهذا من أبلغ كيد الغرب (والحكومة البريطانية بالذات) للإسلام وللخلافة ولوحدة المسلمين، يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري: إن بريطانيا تتراءى مغلوبة أمام مصطفى كمال حتى تعظم فتنته في أبصار المسلمين وبصائرهم والرجل من لا تجد الأنجليز مثله لو جدت في طلبه من حيث أنه يهدم من ماديات الإسلام ومن أدبياته في يوم ما لا تهدم الأنجليز نفسها في عام فلما ثبتت كفايته وقدرته من هذه الجهات فوق كفايته وقدرته في طرد اليونان من الأناضول استخلفته لنفسها وانسحبت من بلادنا فما غادرتها حتى استخلفت من يعادينا والإسلام أكثر منها ».

ويقول: كان مسعى الانجليز في أرضنا إعادة أرواح الاتحاديين في أجساد الكماليين ليداوموا في إفساد دولتنا. ويربط بين الاتحاديين والكماليين في عبارة رائعة هي قوله «عدم الغيرية بين الكماليين والاتحاديين».

«اتسموا إلى نهاية الحرب الكبرى بعنوان الاتحاد والترقي وانساقوا خلف أشخاص مثل (طلعت وأنور وجمال) وبعد الهدنة جمعوا شملهم المشتت في حاشية مصطفى كمال فتسموا بالقوى الملية والكماليين وجمعية مدافعة الحقوق وحزب الخلق وتناسوا باسم الاتحاد وتناكروه وهم بأعيانهم ولم يدع واحد من الفريقين شيئاً من التغاير والتنافر بينهما بل هما بأجمعها حصرا كل جهدهما في معارضة المخالفين إلى حزبي الحرية والأئتلاف ومخاصمتهم أشد الخصومة[1].

وأشار إلى أن حزب الاتحاديين هو الذي أشقى الأستانة في معاهدة لوزان وبركها مع المضايق من غير دفاع ودخوله الحرب الكبرى هو كل خطيئة، وأشار إلى ما أوردته الصحف التركية من سخرية من براءة الكماليين من الإتحاديين وأفعالهم، وهم شركاؤهم فيها بل هم أنفسهم المتناسخون عنهم، وقال أنه لا فرق بين الكماليين والاتحاديين من حيث المبدأ فكلاهما متفق على نزع

(١) ك: النكير على منكري النعمة والخلافة.

السلطة من الخلفاء والسلاطين ومنحها لصناديده تحت ستارة منحها للأمة، وكلاهما لا ديني يتراءى للناس تارة بوجه طوراني متعصب الجنسية وتارة بتقحمات البلشفية وتارة كالمجاهد في سبيل الإسلام وكلاهما مغرض في دعوى الحرية بلفظه وقاتلها بفعله وكلاهما مولع بالحرب والقهر وطرائق الهرج والمرج غير باذل من كل ذلك عن نفسه وماله. «إن النهضة الكمالية مرتبة ومدبرة لإحياء مبادىء الاتحاديين بل لإحياء أشخاصهم الذين كانوا قد ماتوا عندما أماتوا الدولة العثمانية الكبرى في الحرب العالمية، وإن الاتحاديين الذين هدموا الأمبراطورية العثمانية على ما اعترف به لدى الكماليين، لو لم يكن الكماليون منهم ومعهم في أفعال الهدم على ما بينا ثم لم يزيدوا عليهم بهدم الخلافة الإسلامية أيضاً كان لهم حق التبجح على الاتحاديين وكلا الحزبين في الحقيقة من جنس واحد، وكلاهما غير مستند إلى القوة المشروعة التي تستند إليها الأحزاب السياسية وهي القوة الغير مسلحة، أعني بها قوة الشعب والانتخاب المبني على المحبة العامة بل منبع القوة في كليهما عبارة عن الجيش».

(٢)

وهكذا مهد الاتحاديون لإلغاء الخلافة وأخروا مصطفى كمال لأداء هذا الدور الخطير: إلغاء الخلافة الإسلامية بعد أربعة عشر قرناً ونفي آل عثمان من تركيا وإلغاء المحاكم الشرعية والمدارس الدينية والأوقاف واللغة العربية وقالت الصحف التركية إن الحكومة الكمالية إنما ترمي في حركتها الأخيرة إلى وداع الشرق وكل ما فيه من التقاليد القديمة التي يمثلها دين الإسلام، وتقول الصحف التركية على ما نقل مثلا في ٢٨ شباط ١٣٤٩:

«إنا عازمون أن ندوس بأقدامنا وننسف كل موانع وحوائل في طريقنا التي تذهب بنا من الشرق الذي ودعناه إلى الغرب الذي يممناه، حتى إن التغرب لا يقتصر على شؤوننا الرسمية وقوانينا بل ستكون أدمغتنا وعقليتنا أيضاً غربية بحتة، ولا حاجة لنا بعد الآن إلى مقام الخلافة والوزارة الشرعية والمحاكم الشرعية والأوقاف والمدارس الدينية، إنا تودع هذه الأشياء الخلق اللائي تمنعنا من الرقي والتعالي. إن كبير الذنب للحروف العربية لأنها هي التي أخرتنا

وجعلتنا وراء الأمم في العلم والتعليم فيجب علينا أن نخط بحروف لاتينية. »
وقال مصطفى كمال في خطبة المجلس الوطني (١ مارس عام ١٣٤٠):

حتم علينا ننتفض في تغيير بيتنا بكل جراءة عن كل تأثير ولا نتردد في الاندفاع إلى الرقيات الشرقية والطريق الذي نمشي عليه في الحقوق المدنية وحقوق الأسرة لا يكون إلا عن طريق المدنية والحضارة (الغربية) وكون الأمم مربوطة في الحقوق بالخرافات ومدارات المسالح كابوس يمنعنا من الاستيقاظ، لكن أمة الترك تأبى أن يركبها الكابوس ».

وتقول الصحف التركية: إن الخلافة والسلطنة زالتا زوال كلدان وأشور وبابل ومصر القديمة وزال معها «الدين» الذي يمنع الحياة والاستقلال بتلقية الباطل فحان لنا بعد هذا إقتباس الحقوق الحديثة المنشقة من حقوق رومية، ويقول أتاتورك: مبدأى هو إلغاء الخلافة لا لأجعلها لنفسي فأني رجل لا ينزل إلى قبول المناصب القديمة البالية، إرتقينا ونجونا مما رميناه اليوم من كناسات التاريخ وجيفه ».

وهكذا دخلت تركيا الكمالية مرحلة جديدة كان عنوانها: قائد لا يفيق من الخمر، يحرض النساء على الرقص في المراقص، ويكتب بالحروف اللاتينية ويغلق المساجد، ويستبدل القبعة الطربوش، ويكره النساء على السفور ونزع الخمار ويقول:

أرقصوا أزواجاً أزواجاً ».

وكم أراق دعاة الكماليين من خمور، وقالوا: تغربنا وأثبتنا استعدادنا للتغرب في مدة قليلة، وعلت كلمات الجمهورية، الوطنية، والإلحاد، اللائكية.

ويقول شيخ الإسلام: مصطفى صبري: إني أخاف أن تسعد تركيا وترقى بهذه الإدارة الحديثة اللاتينية رقياً دنيوياً وإن كان ذلك في غاية البعد والاستحالة فيفتن بها المسلمون الذين قلما سلموا من أن يعجبوا بها وهي توغل في سبيل الافلاس والإندراس، وتكون فتنتها عليهم أكبر مما تقدم وأشأم (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة).

وخير ما تقدمه لروح مصطفى صبري: هو تصريح توينبي الذي «عير» فيه

تركيا بأنها تغربت! وأنها لم تستطع أن تقدم للحضارة الحديثة أي إضافة علمية أو تكنولوجية وإنما كانت تابعة زادت الغرب تعبا من حمل مشكلاتها ولقد خدع المسلمون والعرب حقاً في أول الأمر ولكن الحقائق تكشفت من بعد أن شطراً من أمة الإسلام، ذاهبون في التيه سنوات فما عادوا حتى قضى على ذلك الطاغوت التي كان مثلا أعلى لبعض الزعماء والقادة.

وفي كتاب شيخ الإسلام: مصطفى صبري (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة) بيان عن نقطة التحول هذه التي لها خطرها على الإسلام والعالم الإسلامي والعرب جميعاً والتي كانت مقدمة لعديد من الحركات السياسية والإجتماعية الموغلة في طريق التغرب. يقول شيخ الإسلام: التزمت في كتابي هذا إثبات أمرين: كون الكماليين أعداء الدين وكونهم أعداء الحرية مستبدين ومضطهدين، والحق أن مصطفى كمال الفى أحاريم الإسلام خالية من رجال المراسة والفراسة فركض عليها بخيلها ورجلها كما قال (تابط شراً):

وصادف سهل الأرض لم يكدح الصفا
بــــه كدحــــه والموت خزيـــان ينظر

قام حزب الحرب أعني حزب الإتحاد باسم جديد كما لي قومة جاوزت قامته الأولى وآثار قيامه العقوبة على كل من خالفه في دخول الحرب وسائر المبادىء السياسية والإجتماعية من الأحزاب والرجال» ويقول: إن الأمة التركية المسكينة المسلمة والتي تفدي دينها بمهجتها منذ إعصار قرون: أصبحت اليوم بين «الإلحاد والسيف» وهو لا يستبعد كل الاستبعاد أن يعد آل عثمان مسؤلين عن هذه الحالات لأنهم لم يهتموا ولم يجتهدوا في درء الداهية الإتحادية الكمالية، ولم ينصروا الذين جاهدوهم حق الاهتمام وحق الاجتهاد وحق النصرة بل التزموا الحياد وحسبوا أن المداراة والحياد تنفع تجاه فتنتهم التي تأبى إلا أن تهلك الحرث والنسل وإني أرى إثماً لكل مسلم تراخى في مناوأتهم ومخاذلتهم والمجاهدة في إستئصال شأفتهم التي تعترض دين الإسلام». ويشير إلى الخدعة التي خدع بها الاتحاديون المسلمين ليؤيدوهم وكذلك حيث ساعدهم العالم الإسلامي بمئات الألوف من الجنيهات التي أنفقوها على هدم الخلافة والدين.

وقد خدع المصريون والعرب بخطوات الإتحاديين أولا ثم الكماليين وخاصة عندما كان يرفع مصطفى كمال إبان حرب الأناضول المصحف ويدعو المسلمين إلى تأييده في جهاده ضد اليونان والانجليز، ولكنه سرعان ما كشف عن مخالبه الحمراء الدامية التي أطبق بها على عنق الإسلام منفذا ما يعتقد جميع المؤرخين أنه كان خطة مدبرة تتم على خطوات منذ عام ١٩٠٩ حتى أسقطت الخلافة عام ١٩١٤ يشير إلى هذا شيخ الاسلام مصطفى صبري ثم يعقب قائلا:

فليفتح عالم الإسلام عينه وليأخذ حذره من الملحدين الذين دبت عقاربهم ونجحت في بلادنا تجاربهم فلا ينقذه هذا المسلك الذي سلكه: ينام ويخدع بهم إلى ما شاء الله وشاءوا ثم تنبه بعد ما كانت الكائنة ولات حين جدوى لذلك الإنتباه، وليعتبر من أولئك الملاحدة كيف يجتهدون في إنجاح مبادئهم ساهرين غير ساهين ولتعلم إن الهدى والضلال ليس من الفكاهات التي يرغب فيها الإنسان حين ما اشتهى وهوى ويعرض عنها إذا لم يشته وأني قد أطلت النقد والشد على الاتحاديين والكماليين في أوانه لأسمع المسلمين فيتداركوا الخطر قبل تمامه فلم يستجيبوا لي ولم يصدقوني ».

وكان شيخ الإسلام للدولة العثمانية مصطفى صبري قد هاجر من تركيا إلى مصر بعد أن استفحل أمر الاتحاديين وأخذ يقود حملة في الصحف المصرية ويكتب الكتب لينبة المسلمين إلى الخطر قبل أن يقع، ذلك أنه عندما بدأت الخلافة تتأرجح وقف كتاب الشعوبية المصرين يؤيدون الكماليين ويهللون لهم وجاء مصطفى صبري ليكشف هذا الزيف قائلا: إن الذين يقومون بهذا العمل ليسوا هم الأتراك المسلمين وإنما هذه فئة بغت عليهم وعلى الخلافة الإسلامية وأحيت اللادينية على الإيمان والجنسية على الإسلام فإن نعلت العرب وفضلت جنسيتها على إسلامها فسأصرمهم ايضاً.

وهكذا أدخلت تركيا (بحركة الاتحادين الكماليين) العالم الإسلامي في أخطر مراحل التحدي بين الإسلام والغرب هي مرحلة استبدال الرابطة الإسلامية الجامعة بالرابطة الجنسية القومية وإحياء اللادينية بديلا عن الدين. هذه النار التي استشرت في الهشيم بعد وعمت العالم الإسلامي، كله ما تزال من التحديات الخطيرة والفتن الكبرى التي أوقدها الغرب في دولة الخلافة.

(٣)

كانت كل القوى تعمل على التخلص من الخلافة الإسلامية باعتبارها رابطة المسلمين ومصدر وحدتهم وكان للصهيونية العالمية دورها في ذلك بما يصوره عبدالله النل في كتابه (الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام) يقول: تميز صراع الأفعى اليهودية مع الخلافة الإسلامية بطول مدته وبأن اللدغات كانت قاتلة أدت إلى هدم هذا الصرح الشامخ الذي كان المسلمون يلتفون حوله ويعتبرونه رمز وحدتهم وقوتهم وعزتهم وحرسهم، وجهت الأفعى النظر إلى الاستانة للشروع في عمليات بث السموم قبل عشرات السنين من ظهور هرتسل نبي اليهودية والصهيونية منذ تكاثر اليهود في تركيا بأعداد كبير على أثر طردهم من اسبانيا في القرن الخامس عام ١٤٩٢.

بدأت اللدغات منذ عهد السلطان مراد الثاني ومن بعده السلطان العظيم محمد الفاتح عام ١٤٨١م الذي اغتاله طبيبه اليهودي يعقوب باشا المعروف باسم (مياسترو جاكوب) بالسم كما ثبت أن اغتيال أولاد السلطان سليمان القانوني أحفاده الصغار قد دبرته (فورباتو) اليهودية، استمرت مؤمرات اليهود في دوائر الحكم العثماني أكثر من أربعمائة عام. وقد جاء ذلك نتيجة ظهور الدونمة (المرتدون) وهم الذين تظاهروا بالإسلام بعد وصولهم من اسبانيا وتجمعهم في سالونيك، كذلك عمدت الصليبية الحاقدة على الإسلام بعد أن رأت امتداد رقعة الإسلام ولا سيما بعد سقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد وزحف الإسلام حتى أبواب فينا وقد وضعت الصليبية الحاقدة نفسها في خدمة اليهودية العالمية لتسخرها رأس الأفعى اليهودية في مساعدتها على تحقيق خطط الهدم والتخريب.

ومن أجل ذلك تحالفت قوى الصليبية الأوربية مع دول عديدة هي بلغاريا ورومانيا والنمسا وفرنسا وروسيا واليونان وإيطاليا لمحاربة الدولة العثمانية وحرمانها من الهدوء والاستقرار والتفرغ للبناء وقد أدى الضغط الصليبي المسخر إلى تضييق رقعة الإسلام في أوربا كما أدى إلى تقطيع أوصال السلطة التي كانت تمتد من تركيا شمالا إلى حضرموت جنوبا ومن إيران شرقاً إلى طنجة

غرباً فضاعت الجزائر عام ١٨٣٠ ثم مصر درة تاج السلطنة عام ١٨٨٢ ومن بعدها تونس وليبيا والمغرب.

وقد أشار عبدالله التل إلى أنه كان من أخطر أعمال الأفعى اليهودية بعد رفض السلطان عبد الحميد مطالب الصهيونية هي تلك الدعاية الفاجرة التي صورت الحكم في عاصمة الخلافة في أبشع صورة، من قلب للحقائق وإبراز للمساوىء وطمس للمحاسن، وقد نجحت تلك الدعاية المضللة في أوربا وفي العالم بأسره، وأبرزت وحشية الأتراك وطمست وحشية البلغار واليونان والفرنسيين والإنجليز والروس. كذلك حركت غريزة الطمع الإستعماري لابتلاع أجزاء غنية من تركة الرجل المريض. وقد صورت الدعاية اليهودية (مدحت باشا) اليهودي الماكر على أنه بطل من أبطال العالم وسمته أبو الأحرار وسخرت صحف أوربا وإذاعتها لتمجيد مدحت باشا حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة العثمانية وهو في حقيقة أمره يهودي متآمر على الإسلام والمسلمين وآلة مخربة مؤذية وقد تعالت صيحات اليهودية العالمية حين عزله السلطان عبد الحميد ونفاه إلى الطائف واستثارت سفارات الغرب في الاستانة محتجة على قسوة السلطان عبد الحميد ومطالبته بالعفو عنه وحين أشعلت الأيدي الصهيونية الصليبية فتنة عام ١٨٦٠ وما صاحبها من مذابح بين الدروز والنصارى في سوريا ولبنان تجمعت الدعاية اليهودية في رمي المسؤلية على الأتراك المسلمين تمهيداً لحصول الصليبيين على امتيازات في ديار المسلمين بحجة حماية النصارى ونجحت الدعاية اليهودية في إيغار صدر المسيحيين في أوربا كلها حين زورت وقائع التاريخ المتعلقة بحرب البلقان وبخاصة الحرب مع البلغار وجعلت شعوب أوربا تنادي لنصرة نصارى البلغار مع أن الحقيقة تشير إلى عكس ذلك فقد كان البلغار يبدأون دائما بالعدوان ويظهرون أحقادهم الدفينة ضد الإسلام ويبطشون بالمسلمين » ا.هـ

وهكذا نجد أن الإستعمار الغربي (والبريطاني خاصة) كان ينفذ مخططا، وأن الروس كانوا ينفذون مخططا، وأن الصهيونية كانت من وراء كل المخططات تنفذ مخططها السري الذي تعتبر به نفسها وريثة الإستعمار الغربي كله.

وإذا كانت القوى كلها متصارعة فيا بينها على ميراث (دولة آل عثمان) فإنها كانت متفقة على إزالة الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية، وكانت تعمل على استخدام «الدونمة» وهم اليهود الذين أقاموا في سالونيك منذ طردوا من اسبانيا وأعلنوا إسلامهم تقية وخداعا، في هذا السبيل، بدأهم: مدحت وختمهم مصطفى كمال. وقد بدأ مدحت حركة الاتحاد والترقي وحشد لها من رجال المحافل الماسونية والدونمة الكثيرون وتعددت المراحل حتى حكم الاتحاديون فيا بين عام ١٩٠٩- عام ١٩١٨ ثم جاء الكماليون ليتموا هذه الرسالة بالقضاء على كل لون إسلامي أو عربي في تركيا ولقد احتفل الفكر الغربي بمصطفى كمال أتاتورك احتفالا شديداً وألف عنه مئات الكتب وأشادت به أهواء المؤرخين وأعتبرته واحداً من أفذاذ الأتراك لأنه قضى على الدولة العثمانية والخلافة وخدع المسلمين أول الأمر حتى مكّن لنفسه ثم فصل بين السلطنة والخلافة وقد حكم تركيا منذ عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٣٨ حكماً ديكتاتورياً عنيفا، خلال خمسة عشر عاما دون منازع أو معارض غير فيه كل شيء، وأزال الواجهة الإسلامية لدولة الخلافة تماماً وذوب النظام التركي كله في أتون العلمانية والأممية العالمية.

ففي ٣ من اذار عام ١٩٢٤ الغى منصب خليفة المسلمين ومعه الغيت جميع مؤسسات التعليم الدينية في عاصمة الإسلام ثم أغلقت المدارس والمعاهد الدينية الإسلامية واصبح تعلم أصول الإسلام جريمة يعاقب عليها القانون التركي والغى بعد ذلك المحاكم الإسلامية في جميع أنحاء البلاد (الشخصية والشرعية على السواء) وبهذا قضى مصطفى كمال على أهم الأصول والمظاهر الإسلامية في تركيا، ومن عجب أن العالم الاسلامي لم يحرك ساكنا إزاء هذا العدوان، بل وجد في صحف مصر من يؤيد خطواته ويدعو إلى مثله في البلاد العربية ومضى أتاتورك يغير، وجه البلاد بصورة جذرية من نظام الأسرة، وتعدد الزوجات وإعلان سفور المرأة وخروجها إلى المحافل والمراقص، وتحريم لبس الطربوش أو العمامة، وإقرار نظام الزواج المدني، ووضع قوانين جديدة مقتبسة من القوانين السويسرية والألمانية والايطالية تحل محل الشريعة الإسلامية، وإلغاء مادة الدستور التي تعتبر

الإسلام دينا للدولة،وإدخال الحروف اللاتينية بدلا من الأحرف العربية، ثم أصبح التعامل بالدين الإسلامي جريمة تواجه بأشد العقوبات.

ولكن تركيا تغيرت كثيرا بعد وفاة أتاتورك وأخذ مسارها الإسلامي في بطء شديد وهي الآن بعد خمسين عاما من إلغاء الخلافة تبدو وقد انتعشت روحها الإسلامية كذلك، فإن العالم الإسلامي لم ينس هذه الشعيرة الإسلامية وعملت كل الحركات الاسلامية على النص عليها والدعوة إلى تجديدها ومنذ ذلك اليوم وإلى اليوم أقام المسلمون عشرات المؤتمرات التي تدعو إلى الوحدة الاسلامية في مصر وباكستان والحجاز ودعا كثيرون إلى استبدال نظام الخلافة بنظام التضامن الاسلامي أو عصبة الأمم الشرقية، وما تزال القوى الاستعمارية تحول دون تحقيق الخطوات الحاسمة للوحدة الاسلامية، وهي تحاول أن تجد لها بدائل في دعوات القوميات والوطنيات والاقليميات.

ثم ماذا بعد سقوط الخلافة:

عمد الغرب إلى إلغاء الخلافة كأقسى ما يمكن أن يوجه إلى العالم الإسلامي من ضربات، لتمزيق وحدته وجعله قطعاً متفرقة لا تلتئم مرة أخرى، بعد أن أثار فكرة القوميات الطورانية، العربية ودعوات الفرعونية والفينيقية، وكلها محاولات لتفريق الصف وتمزيق وحدة العالم الاسلامي وتعميق الخلاف بين العرب والمسلمين وبين العرب أنفسهم ولقد كانت توقعات الغرب أن القضاء على الخلافة سيكون خطوة للقضاء على الإسلام نفسه، وأصبحت التجربة التركية الجدية موضوعة أمام المسلمين والعرب كتجربة ناجحة وصفها لامنس المستشرق المتعصب بأنها الطريق الوحيد للنجاة من السقوط كان الظن كما وردت في كتابات الكثيرين أنه بعد سقوط الخلافة أن الإسلام لن يعيش، ولكنهم دهشوا عندما استبدل المسلمون والعرب بالخلافة وحدات جديدة ومؤتمرات لدعم الأخوة الإسلامية ولم يحدث شيء مما من التوقعات فقد قبل المسلمون التحدي فقد كانوا على وهم عندما شبهوا الخلافة بالبابوية في العالم المسيحي وقد أشار إلى ذلك لامنس حين قال لم يحدث إلغاء الخلافة شيئاً من العقبات التي كانت يتوقعها داخل الاسلام وخارجه، ذلك أن هؤلاء كانوا على وهم من تأثير الخلافة في العالم الإسلامي إذا كانوا يشبهونها من بعض وجوهها بالبابوية في العالم

المسيحي وقد عاش العالم الإسلامي فترات كثيرة في حياته الطويلة دون خليفة وعاش مع وجود عدة خلفاء، وهكذا بعد مرور ست سنوات على القرار الكمالي بإلغاء الخلافة (آذار عام ١٩٢٤) نرى الإسلام يعيش وهو لا يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا غير أن الكثيرين فكروا في تأليف هيئة ينزلونها منزلة الخلافة ».

الفصل الخامس

وصول روسيا

(خامساً) تحقق هدف الدولة الروسية (تنفيذ وصية بطرس الأكبر) بالسيطرة على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي والزحف في اتجاه المياه الدافئة. وكان بطرس الأكبر المتوفى عام ١٧٢٥م أوصى بما يحقق لروسيا انتزاع حصتها من تركة الإسلام الممثلة في الدولة العثمانية بما قاله على النحو التالي:

« ينبغي الاقتراب من الأستانة والهند بقدر الإمكان لأن من يستولي على الأستانة أصبح قادراً على أن يستولي على الدنيا بأسرها فلا بد من موالاة الحرب مع الدولة العثمانية والدولة الايرانية = (المسلمتين) وتحصين البحر الأحمر وضبطه لبناء السفن الحربية ويجب الاستيلاء على بحر البلطيق والإسراع في إذلال إيران وإخضاعها للمرور فيها إلى خليج العجم وبذلك نستطيع إعادة تجارة الممالك الشرقية القديمة بطريق سوريا والوصول منها إلى بلاد الهند مخزن الدنيا بأسرها فنستغني عن ذهب انكلترا »

وقد بذل الروس إبان عصر القيصر جهداً ضخماً في تنفيذ هذه الوصية فأرقوا الدولة العثمانية وواصلوا الحملات عليها وكانت أشدها قبل وبعد مؤتمر برلين وهي التي استطاعت روسيا أن تحصل فيها على القرم، والأجزاء الأخرى.

وقد توارثت الدولة البلشفية نفس الخطة وسارت فيها وقاومت المجاهدين وضربتهم بعنف وضمت هذه الأراضي الإسلامية كلها إليها تحقيق لوصية بطرس الأكبر الذي لم يغيرها انتقال الدولة من القيصرية إلى الشيوعية. بل لعل الشيوعية كانت أشد مطمحاً فقد أعلنت منذ اليوم الأول لثورة عام ١٩١٧ عن خطة لجذب الدول الإسلامية إليها وتأييدها في مقاومة الاستعمار الغربي،

كمحاولة لإخراج المسلمين من فك الأسد إلى ناب الدب والمعروف أنه منذ عام ١٧٣٦ شرعت الدولة الروسية تناوىء الأتراك العثمانيين وتعتدي على بلادهم وأخذت منهم (أوكزاكوف) و (أزوف) ثم امتدت يدها إلى بلاد القرم عام ١٧٨٣. فضلا عن أنها هاجمت ولايات الدانوب جملة مرات، وكانت تركيا نفسها فريسة جندها الثائرين المتمردين.

وجاءت معاهدة برلين فأجازت لروسيا امتلاك قارس وباطوم، وعادت أطماع روسيا تتجدد مرة أخرى بعد أن أوقفتها فرنسا وانجلترا بدخولهما ضدها في حرب القرم (١٨٥٤- ١٨٥٥) إلى الظهور باعتدائها على السلطة العثمانية في حرب عام ١٨٧٧ القرم عام ١٨٤٠ كشفت روسيا عن مطامعها ونيتها القديمة مجددة وصية بطرس الأكبر في انتزاع مناطق هامة من الدولة العثمانية، وكان الهجوم الروسي- كما قال بعض المؤرخين- ناقوسا رن على الباب العالي وأيقظ الشعور لديه بأن يعيش فقط على حساب النزاع القائم بين القوى الأوربية فنمت مرة أخرى إرادة الاعتماد على النفس في الدفاع.

فلما جاءت البلشفية: جددت أطماع بطرس وسارت في نفس الطريق وقد كان هدف روسيا الشيوعية هدم النفوذ الغربي في الأقطار الإسلامية وحرمان الدول الاستعمارية مما في يدها من منافذ تجارية ومصالح إقتصادية وقد ساعدها على ذلك مجاورتها لعدة شعوب إسلامية كبرى (الترك والفرس) فضلا عن المسلمين الداخلين تحت حكمها.

ولذلك فإنها سرعان ما عقدت معاهدات مع تركيا وأفغانستان وفارس وقد أشارت الصحف الغربية إلى ما أسمته الخط الروسي الآسيوي عن طريق الإسلام: فقالت إن أوربا اليوم أمام خـط أصفر جديد، هذا الخط هو اتحاد روسيا وأقطار الشرق على دول الغرب وتنظيم قواها وتدريبها إلى أن يجيء اليوم الذي تجمع فيه جوعها لمهاجمة الغرب وليس هذا صحيحا في جملته ولكنه من وجهة النظر الإسلامية: إحكام خطة المؤامرة على العالم الإسلامي وتمزيقه بين القوى المختلفة الطامعة.

ولقد عمد مصطفى كمال في حركته التي مزق بها الدولة والخلافة إلى

الاستعانة بالدولة البولشفية التي أعانته على ذلك وساعدته دول الغرب وفي مقدمتها انجلترا وكان لقربها عامل هام في هذه المعونة: وقد عقد مصطفى كمال مع لينين معاهدة حماية لضمان سلامة الأراضي التركية من العدوان وإعادة السيادة إلى جميع الأراضي التي كانت في يد الدولة العثمانية.

أما الروس فقد تحرروا في السيطرة على الأجزاء التي احتلوها من المطالبة بها وأقاموا أربع جمهوريات تحت النفوذ الشيوعي: «أذربيجان- جورجيا- أرمينيا- داغستان» وعقد الروس مؤتمراً في عام ١٩٢٠ في مدينة باكو أطلقوا عليه اسم مؤتمر الشعوب الشرقية، حضره ١٨٩١ مندوباً منهم مندوبين عن الأتراك والفرس والأرمن والأكراد والهنود والعرب وجاء في هذا الخطاب قول الروس: إن الشيوعية الدولية ستعمل على تحرير جميع الشعوب الإسلامية، ودعت هذه الشعوب إلى التعاون معها ثم قامت بعد ذلك بقليل بتلك الإغارة الدموية على الجمهوريات الإسلامية الخمس فقاتلت أهلها واستولت عليها بالقوة في أسلوب وحشي أشد وحشية من أسلوب الاستعمار الغربي، ذلك لأن الذين كانوا يحكمون روسيا في أول عهدها البلشفي كانوا من اليهود الصهيونيين الذين يخططون لمدى أوسع، وكانت روسيا هي المصدر الأكبر لهجرة اليهود إلى فلسطين بعد وعد بلفور وكان ذلك العون أكبر أهمية من العون المادي الذي كانت تقدمه بريطانيا ثم أمريكا وفرنسا.

ولا ريب كان للارتباط بين الشيوعية والصهيونية أثرها الكبير في الخط الذي سارت عليه روسيا من ناحية واسرائيل من ناحية أخرى، وخاصة عندما انفتح الطريق أمام روسيا الماركسية في السيطرة على البلاد الإسلامية، وقد عمدت الشيوعية إلى تنفيذ مخطط غاية في القوة والخطر في العالم الاسلامي في هذه المرحلة التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم وهو:

(أولا) التفرقة بين الصهيونية واليهودية، وإبراز أن الشيوعية والاشتراكية لا تدين للصهيونية بولاء أو تبعية.

(ثانيا) مقاومة الاسلام عن طريق التكتيك غير المباشر، ولقد دعا جارودي فيلسوف الحزب الشيوعي الفرنسي في كتابه (ماركسية القرن العشرين)

إلى غزو الإسلام من الداخل ومحاولة تفجير الشبهات والخلافات في داخله وهو ما عمد إليه الشيوعيون في العالم الإسلامي.

(ثالثاً) وصف خصوم الشيوعية بالرجعيين عن طريق لون عاصف من الارهاب الفكري.

(رابعاً) محاولة إغراء كل من فقد إيمانه بدينه ووطنه وميراثه وفقد كل مناعة فكرية وقدرة على التصدي والمجادلة.

(خامساً) تطويع الدين: الادعاء بأنه لا يوجد تعارض بين الماركسية وبين المادية.

(سادساً) التقليل من شأن القيم الدينية بدعوى أنها مفاهيم عتيقة انتهت مهمتها منذ زمن بعيد لم تعد قادرة على مواجهة مشاكل التخلف.

(سابعاً) ركوب التيار القومي والوطني. (عن الدكتور دسوقي أباظة مع التصرف).

ولقد حاولت الشيوعية بعد أن دخلت في العالم الإسلامي إتخاذ لون من الخداع بالدعوة إلى الحياد المصطنع بالنسبة للدين مع حجب مفهومهم الأصيل للدين بأنه أفيون الشعوب، وما أرادت الشيوعية القول به هو (الدين لله والشيوعية للجميع) وهذا قول مسموم، إذ أن الدين لله والمجتمعات لله والأمم لله وليس هناك شيء خارج عن النظام الرباني الذي رسمه للبشرية، ولقد ارتفعت شعارات كاذبة مضللة تقول أنه لا تعارض بين الشيوعية الإسلام، وهي تحاول «تحييد» الدين الاسلامي وإبعاده عن دائرة المقاومة لتحييد الأديان الأخرى، ذلك لأن الإسلام ليس دينا بمعنى العبادة أو اللاهوت فحسب، بل الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع شامل كامل جامع والدين بمعنى العبادة جزء منه ولذلك فإن كل هذه المحاولات تريد أن تخدع من لا يفهمون الاسلام فهما صحيحا، أما الاسلام فإنه قادر على إعطاء البشرية في كل عصر وكل بيئة حلولا كريمة سمحة لكل قضاياهم ومشاكلهم وتحدياتهم ومعضلاتهم على نحو أصدق وأعمق وأكثر حيوية وسلامة من كل ما جاءت به الأيدلوجيات والدعوات والمذاهب البشرية المحدودة المضطربة التي سرعان ما يعلوها الاضطراب ويحاول

أصحابها تعديلها بالحذف والإضافة.

ولقد كانت التجربة الشيوعية مع العالم الاسلامي مريرة وماكرة وقائمة على التآمر ومرتبطة بالخطط الجذرية التي تربط بين الشيوعية والصهيونية، ظهر هذا في كل الارتباطات التي حدثت في أفريقيا وأندونيسيا ومصر والبلاد العربية، وبرز واضحاً في معارك ١٩٥٦- ١٩٦٧- ١٩٧٣ في مصر والعالم العربي: لقد كان الهدف هو تمكين اسرائيل من التقدم والسيطرة على أجزاء من العالم العربي، والعمل على تدمير وحدة العرب وخطط ترابط العالم الإسلامي، والقضاء على الفكرة الإسلامية نفسها وإثارة الشبهات من كل طريق للحيلولة دون تحقيق قيام مجتمع إسلامي أصيل وفق المنهج الاسلامي.

الباب الخامس

قوى الاستعمار والصهيونية والشيوعية المتصارعة حول عالم الاسلام والمتفقة عليه

اولا : الاستعمار والصهيونية.
ثانيا : الشيوعية والاستعمار
ثالثا : الشيوعية والصهيونية.

الفصل الاول

الاستعمار والصهيونية

كانت القوة الربوية اليهودية ممثلة في رؤوس الأموال موجودة في إطار الاستعمار الغربي الزاحف على العالم الإسلامي، وكانت واضحة في القروض التي قدمت إلى حكام مصر وتونس وفي الإغراءات التي وجهت إلى الخليفة العثماني بهدف سيطرة الصهيونية العالمية اقتصادياً على كل ما تحتله الدول الكبرى من أرض وما تستولي عليه من مقدرات.

وفي أول محاولة للإحتلال الغربي للعالم الإسلامي وهي محاولة نابليون كانت خطة اللقاء والارتباط بين الاستعمار والصهيونية واضحة جلية. ولا ريب أن قيام اليهودية العالمية بإشعال نار الثورة الفرنسية كان مقدمة السيطرة على مخططات المطامع الاستعمارية التي كانت قائمة منذ وقت بعيد وممثلة في القيام بحفر قناة السويس، فلما سيطر نابليون تكاتف اليهود على الاستعانة به في تحقيق أغراضهم وجددوا عرض مشروع استعمار العالم عن طريق إنشاء قناة السويس وقدموا عروضا بأموالهم التي يضعونها تحت تصرف فرنسا مقابل أن تمنحهم فرنسا الأرض الفلسطينية : وقد أعجب نابليون بالخطة وكتب لهم يدعوهم إلى التجمع (وأن يجمعوا الأموال فيبتاعوا ذلك الربع من مصر الذي يجاوز برزخ السويس والبحر الأحمر) .

أما الزمن الذي يقدمونه لنابليون - بعد الأموال - فهو أن يكونوا أداة تخريب وإضطراب «فإذا استطاعوا من هذا الطريق الدخول الى عقر آسيا فإنهم إنما يحملون معهم الصناعة والفنون والعلوم الأوربية، هذا وأنهم يقدمون إليك عنصراً استعماريا متينا ثابت الأركان قد يكون ضروريا كيما تقوم في آسيا مقام الامبراطورية الآخذة في الأنحلال : أمبراطوية العثمانيين ويقدم أهم الضمانات لبث الفوضى وإشعال الفتن وإحلال الأزمات للقضاء على الاتراك جملة واحدة

وعندما رفع باراراس المشروع إلى نابليون استصوب الفكرة واستعان بعلماء اليهود وحاناتهم على صياغة النداء وقد جاء فيه «إن الأمة التي ينظر أعداؤها الى موطنكم الوراثي كغنيمة تتقاسم وفق أهوائهم بضربة قلم في دوائرها ستشعلها حربا لا هوادة فيها ولا مثيل لها في التاريخ للدفاع عن كيانها للثأر للذل الذي لحق بكم منذ ألف عام تقريباً - فإن هذه الأمة - (أي الفرنسية) تقدم لكم الآن على الرغم من جميع العقبات ، مهد إسرائيل، ياورثة فلسطين الشرعيين، إن فرنسا تناديكم الآن للعمل على إعادة احتلال وطنكم واسترجاع ما فقد منكم، أسرعوا فإن هذه اللحظة لن تعوض قبل آلاف السنين» .

وهكذا منذ بدأ الاستعمار خطواته الأولى في السيطرة على عالم الاسلام كانت الصهيونية هي الأداة والعون والرفيق بل والشريك : الغرب الاستعماري المسيحي بخططه واليهود بأموالهم ومؤامراتهم الجاسوسية ليكونوا أداة التخريب والفوضى.

لكن نابليون هزم عند أسوار عكا ولم يدخل فلسطين وتراجع اليهود عن خطتهم وإن كانوا قد سجلوا هذه الصيحة الباكرة التي جاءت بعدها خطط عام ١٩٠٧ عندما تقدموا للاستعمار البريطاني على أنهم الجسم الغريب العازل بين المسلمين والعرب بين آسيا وأفريقيا ثم خطتهم الناجحة مع بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى والتي كسبوا بها وعد بلفور بعد أن عجزوا عن السيطرة على السلطان عبد الحميد فعزلوه، وسيطروا على خلفائه الاتحاديين الذين فتحوا لهم باب فلسطين.

وإذا كان الغرب لم يستعبد العالم الاسلامي إلا عن طريق القروض والربا والبنوك فإننا نجد أن الصهيونية كانت وراء كل هذه المحاولات المالية والمغريات لاقراض أصحاب الثروات حتى إذا سقطوا في ايديهم انتزعت منهم أراضيهم وأملاكهم، وقد مرت هذه التجربة بمصر بعد عصر الاحتلال البريطاني وقدرت الاحصائيات أن المصريين الذين فقدوا ثرواتهم نتيجة المراباة والمعاملة مع القروض اليهودية قد حقق في خلال عشر سنوات انتزاع أكثر من ثلاثين في المائة من ثروة الملكيات العقارية وهي نسبة عالية تدل على مدى الظلم والعسف في أمور الاقراض وإجراءات انتزاع الملكيات.

وفي السيطرة على أفريقيا كانت الصهيونية وراء الاستعمار وكانت الخطة التي اتخذتها الصهيونية لأن تكون الجسم الغريب الذي يفصل بين آسيا وافريقيا بعد المؤتمر الذي عقده وزير خارجية بريطانيا عام ١٩٠٧ تدل على مؤشر الأحداث بعد، وفي الحرب العالمية الاولى كانت قروض اليهود لفرنسا اوانجلترا عاملا هاما في إنتصارها على الألمان وقد كان تصريح بلفور الذي قدمته بريطانيا لهم بمثابة عربون لهذا الدور الذي قاموا به والذي حقق النصر للحلفاء.

ولقد كانت الصهيونية في كل مراحل الإستعمار الحديث أداته الفاعلة وقوته الضاربة وخاصة في المجال الاقتصادي وفتح المصارف وتوظيف ذهب أوربا الذي كان يملكه اليهود في القروض وكذلك الرأسمالية هناك وقد حرص الإستعمار بالإتفاق مع الصهيونية العالمية على السيطرة على الدول عن طريق اقراض أمرائها وحكوماتهم لتكبيلهم بالنفوذ الأجنبي، ومنها شق قناة السويس واستثمار المناجم وآبار البترول وتسخير موارد البلاد لصالح المرابين مع الوقوف في وجه أي تصنيع حتى تظل البلاد أسواقاً مضمونة لتصريف منتجات الغرب.

ولقد كان من أقوى ما وصل إليه النفوذ الصهيوني مع الاستعمار هو الاستسلام له في وعد بلفور وإقامة الوطن القومي في فلسطين وتأييد روسيا وأمريكا لاسرائيل منذ الساعة الأولى لإعلان قيامها وحمايتها بعد ذلك وإلى أبعد مدى.

وكانت الصهيونية وراء الاستعمار في الصراع مع الدولة العثمانية وإسقاط السلطان عبد الحميد وسحق الدولة العثمانية نفسها وهزيمتها وإسقاط الخلافة للوصول إلى فلسطين ، وعندما دخل اللورد اللنبي القدس عام ١٩١٧ وأعلن انتهاء الحروب الصليبية كان اليهود يعلمون أنهم سيتسلمون القدس من الإستعمار.

الفصل الثاني

الشيوعية والاستعمار

كان الروس قبل الشيوعية جزءاً من خطة الإستعمار التي شاركت بأكبر ما تستطيع من قوة المطامع في هدم الدولة العثمانية والسيطرة على اجزاء واسعة منها والقضاء على كل محاولات التحرر والإستعادة التي جاهد المسلمون بها في سبيل إقصاء نفوذ الروس عن بلادهم، وكانت أروع صور المقاومة هي صورة الشيخ شامل الذي قام بحركته عام ١٨٠٣ في مقاومة الروس وظل يكافح ويناضل على رأس جيوشه وتابعيه البواسل المجاهدين الذين تجمعوا تحت لوائه في مختلف القبائل والديار الإسلامية ، وأمضى تسعة وثلاثين عاما متواصلة في ميدان الجهاد ، كبد الروس خلالها مئات الألوف من القتلى وغرمهم بانفاق الملايين الوفيرة من الأموال وكانت مقاومته ترمي إلى تحرير أمة تبلغ أربعين مليون نسمة من يد الإستعمار الروسي الجائر.

وقد جاء هذا الاتجاه من الروس تطبيقا لوصية طامحة من « بطرس الأكبر » كان يهدف فيها الى القضاء على الدولة العثمانية والنفوذ الاسلامي فلما جاءت البلشفية وسيطرت روسيا على اجزاء خطيرة من عالم الإسلام وهم له أشد عداوة من القيصرية، ولكنهم خدعوا المسلمين بأساليب أدعوا بها أنهم يناصرون حركات التحرر من الاستعمار الغربي فقد أصدر ستالين ولينين في ١٧ ديسمبر عام ١٩١٧ منشوراً يطمئن الشعوب الإسلامية على دينها وعاداتها «أيها المسلمون: أديانكم وعاداتكم وثقافتكم ومعاهدكم العلمية والقومية مصونة من كل اعتداء ، اعتقدوا أن البلاشفة يدافعون عنكم وعن حقوق الشعوب التي تعيش في روسيا كلها، اعملوا على الانقلاب وجندوا الثورة وساعدوا حكومة البلاشفة ايها الرفاق، اننا حين نرفع علمنا هذا إنما نعلن للشعوب المستعبدة في روسيا شعار الحرية والاستقلال، أيها المسلمون نحن ننتظر منكم معاونتكم المادية والادبية » .

ولم يكن هذا إلا خداعا: مثل خداع نابليون ثم دخول الأزهر بالخيول. مثل خداع الاتحاديين الأتراك للعرب وللسوريين مثل خداع لورنس للعرب.

كل هذا كان يجري في وقت واحد، ذلك أن البلشفيك لم يكونوا أقل غدرا وخسة ففي أبريل عام ١٩١٨ أصدر لينين أمراً بزحف الجيوش الروسية على البلدان الإسلامية دون سابق انذار فاخذت تحصد المدن والقرى وتفتك بالشعب الأعزل الآمن دون تمييز ولم ينته عام ١٩١٨ إلا وجمهوريات (إيدل أورل) و (القوقاز) و (التركستان) قد غدت تحت حكم البولشفية المباشر، وفي عام ١٩٢٠ أتمت موسكو احتلال شبه جزيرة القرم وفي عام ١٩٢١ هجم الروس على جمهورية بخارى وشرعوا في تطبيق أنظمتهم الشيوعية فألغوا الملكيات وصادروا الأموال والثروات وألغوا التعليم الديني واضطهدوا رجال الدين والزعماء والقادة وحولوا المساجد إلى دور للهـو ومكاتب لرجال الحزب الشيوعي.

ولقد هوجمت شبه جزيرة القرم من البحر بستين ألف مقاتل، عام ١٩١٨ واجتاز الجيش الشيوعي أراضي القرم لأول مرة، وقد قاومهم السيد جعفر سيدأحمدورجالهوصدوا جموعهم المتدفقةوسقطت العاصمة بسقوط رئيس الجمهورية جلي جهان ووقع المفتي الكبير أسيراً في يد الأعداء وهو يدافع عن العاصمة بجرأته العظيمة وقد ساقوه إلى الموت ومزقوه إرباً ومثلوا بجثته أشنع تمثيل.

وكان الروس يرون أن شبه جزيرة القرم هي مفتاح السيطرة لروسيا الجنوبية والبحر الاحمر وما ان انتهوا من هذا الاستعمار الدموي، حتى اخذوا يتجهون نحو إيران وأفغانستان وتركيا يعقدوا معها معاهدات.

وكانت دعواهم الخادعة الى تحرير البلاد الاسلامية من الاستعمار الغربي ومساعدة الشعوب الاسلامية على تحقيق هدف الإستقلال، هذا هو مدخل الشيوعية إلى العالم الاسلامي.

ولقد كانت روسيا تستهدف وهي وليدة الصهيونية أن تضع العالم الاسلامي بين فكي الكماشة، أما الاستعمار الغربي الذي تسيطر عليه الصهيونية، أو الشيوعية التي هي جزء من الصهيونية نفسها، جاءوا بسحر كلمات منمقة وعبارات خادعة ووعود خلابة، وقد انحاز إليها البعض بحكم الضغط الحربي

وفريق استهوته الوعود الكاذبة.

وبدأت مرحلة من الصراع بين روسيا البلشفية من جهة والدول الاستعمارية من جهة أخرى استمر طويلا وإلى وقتنا هذا، ويقول الباحثون أن هذا فصلا حديثاً من مأساة قديمة قامت بها إنكلترا وروسيا، تلك التي شغلت تاريخ الشرق الاوسط من القرن الماضي، حتى أوائل هذا القرن والتي أسفرت عام ١٩٠٧ عن اتفاق لم يطل أجله بين تينك الدولتين لتعيين المناطق الواقعة تحت نفوذ كل منهما.

وقد تبين أن هذف روسيا البلشفية هو السعي لهدم النفوذ الإستعماري الغربي في القارة الآسيوية وحرمان الدول الغربية ما كان في يدها من منافذ تجارية ومصالح اقتصادية، وهو في مواجهة عالم الإسلام ليس إلا استبدال استعمار بإستعمار أشد قسوة منه.

ومن هذا الطريق أخذت الشيوعية تنشر أفكارها في العالم الإسلامي، وفي فلسطين وسوريا ومصر ظهرت افكار شيوعية بعد الحرب العالمية الأولى عن طريق الصهيونية وأثرياء اليهود في البلاد العربية. وقد نشأت أحزاب شيوعية سرية في هذه المناطق كان هدفها:

(١) تقويض الاستقرار الاقتصادي والسياسي والإجتماعي:

(٢) خلق جو من عدم الثقة بين العرب أنفسهم لمنع أي تكتل بإسم العروبة أو باسم الإسلام والتركيز على الدعاية على الخطر الصهيوني.

(٣) إذكاء والعداوة بين الشعوب العربية وحكوماتها.

(٤) إظهار الاتحاد السوفيتي بمظهر الحليف للعرب.

ولقد كان للتحالف الذي قام إبان الحرب العالمية الثانية بين الاستعمار والشيوعية أثره في قدرتها على تكوين خلاياها داخل الاحزاب السياسية في البلاد العربية والإسلامية بما تحقق عنه بعد انتهاء الحرب العالمية من آثار خطيرة كانت تستهدف إسقاط البلاد العربية كلها في قبضة الشيوعية الدولية.

ولا ريب أن (الماركسية والشيوعية والبلشفية) قد خدعت العالم الإسلامي كله حين ادعت أنها سواء أكانت نظاما أم دولة تستطيع أن تساعد البلاد في

كفاح الاستعمار الغربي والصهيونية وذلك بإدعاء الاتحاد السوفيتي مناصرة حركات التحرر ومعاداتها للصهيوننية والاستعمار، فقد استطاعت روسيا أن تخفي حقيقة صلتها بالاستعمار وصلتها بالصهيونيةوتخدع العرب والمسلمين، بالتحالف معهم كصديق حميم لهم وعدو لأعدائهم، وقد احتاج ذلك إلى وقت طويل حتى يكتشف العرب والمسلمون أن الشيوعية أعدى أعداء االاسلام والعالم الاسلامي وأن الاتحاد السوفيتي لا يستطيع أن يحارب الصهيونية وهو وليدها.

وحين ينكشف ان الماركسية في أصلها هي دعوة صهيونية وأن كبار مؤسسيها هم اليهود الذين هم أشد عداوة للاسلام وأهله لا يكفي هذا إزاء القلوب الغلف والعقول الصم لتحذر، ولكنها لم تكتشف الحقائق إلا يوم وجدت نفسها في ميدان القتال وقد صممت الشيوعية الماركسية السوفيتية أن تمكنهم من ضرب الصهيونية في فلسطين، واحتالت لتحطم ضرب خططهم وتفسدها بعشرات من الحيل.

الفصل الثالث

بين الشيوعية والصهيونية

لم تعد الصلة بين الشيوعية والصهيونية موضع جدل كثير بعد أن تسربت في السنوات الأخيرة عشرات الوثائق التي تكشف هذه الحقيقة وتؤكدها، ولقد كشف هذه الحقيقة (فرانك برايتون) منذ سنوات طويلة في كتابه (الصهيونية والشيوعية) الذي يقول بالحرف:

« إن الحقيقة الراهنة هي أن الصهيونية والشيوعية صنوان منبعها واحد وغايتها واحدة وجوهرها واحد والفئة التي تقوم عليها من وراء الستار واحد وما اختلافها الظاهر سوى ترتيب مؤقت اقتضاه النجاح في السعي إلى الغاية الواحدة حتى اذا تحققت بالنجاح الكامل اتحدا معاً للسيطرة على العالم. ولا عبرة بهذا الفارق الظاهر بين الشيوعية والصهيونية فيكون اليهودي شيوعيا أو صهيونياً أو كليهما معاً. وكثيرون منهم كذلك-لا ينبغي كونه يهوديا وليست الصهيونية التي لا تفتأ تناوىء سائر العالم غير اليهودي.

ويقول (فرانك بريتون) :الصهيونية والشيوعية تختلف ظاهراً في ثلاث أمور:

(١) التسمية: ففي الصهيونية تخصيص، وفي الشيوعية تعميم ليختار المرأ بينها بحسب مزاجه.

(٢) مراكز النشاط: مركز نشاط الصهيونية ما اصطلح على تسميته بالغرب وتتزعمه أمريكا (واشنطن) ومركز نشاط الشيوعية الشرق وتتزعمه روسيا.

(٣) الأسلوب في العمل: الصهيونية تتاجر بالمال وتدعم الدعاية عند اللزوم والشيوعية تتاجر بالدعاية يدعمها المال عند الاقتضاء » ا. هـ

وتجمع المصادر الموثوق بها جميعها على أن الثورة الشيوعية قامت بتدبير اليهود وتخطيطهم، وكبار زعماء الشيوعية ماركس ولينين وستالين وفورشيلوف ومولوتوف كل هؤلاء وغيرهم من أصل يهودي أولهم زوجات يهوديات.

وأن الأهداف الصهيونية العالمية، هي أنفس أهداف الماركسية الاشتراكية، أو الشيوعية اللينينية، كلاهما يسعى للسيطرة على العالم وتسخيره لليهود شعب الله المختار.

ويقول أفريكان هيبرو (كبرى المجلات اليهودية في أمريكا) بتاريخ ١٠ سبتمبر عام ١٩٢٠: إن الشيوعية في روسيا كانت من تصميم اليهود وإنما قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم، وأن ما تحقق في روسيا كان بفضل القلة اليهودية التي خلقت الشيوعية في العالم ولسوف تعم الشيوعية العالم كله بسواعدهم، ويقول موشى «الزعيم الإسرائيلي»: كل يهودي يعلم في أعماق نفسه من كان أعظم وأحرصهم على صداقة، أنه الجمهورية السوفيتية. ويقول: لا أستطيع أن أتصور يهودياً يقوم بدور العداء للاتحاد السوفيتي ومثل هذا اليهودي غير طبيعي وتشويه لكل الحقائق.

ومن القرائن القوية والأدلة القاطعة على صلة الماركسية والشيوعية الوثيقة بالصهيونية العالمية واليهود أن كارل ماركس هو نفسه الحاخام الأكبر واليهودي الذي يمثل في كل حياته جميع ما تنطوي عليه النفسية اليهودية من أحقاد وكراهية ورغبة في الإنتقام من البشرية كلها.

وإذا نظرنا الى خطوات الثورة الشيوعية الأولى وجدنا هذا السبب واضحاً وقائماً على مختلف أوضاعها، فإن مجلس الثورة الذي حكم روسيا بعد ثورة عام ١٩١٧ كان مكونا من عشرة من الاعضاء من بينهم ستة من اليهود،، وأن لينين وستالين من أصل يهودي وكان ستالين متزوجا من يهودية وأن أربعة من أعضاء مجلس السوفيت الأعلى من اليهود وأن أنصار الشيوعية في العالم معظمهم من أنصار الصهيونية، وأن ٤٩ في المائة من أعضاء الحزب الشيوعي الأمريكي من غلاة الصهيونية، ولقد كانت روسيا السوفيتية أولى الدول بعد أمريكا التي اعترفت بقيام دولة إسرائيل. ولقد عرف اليهود لروسيا هذه المكرمة وأعلنوها على لسان الكثير من زعمائهم.

ولقد رد اليهود لروسيا هذا الجميل، بأن سلموها أسرار القنبلة الذرية التي كانت أمريكا وحدها هي التي تعرف أسرارها بعد الحرب العالمية الثانية، هذه القنبلة التي كانت سبباً مباشراً لإنهاء الحرب مع اليابان بعد إلقاء اثنتين منها على المدينتين اليابانيتين في هروشيا وناجازاكي.

(٢)

وقد كشفت الوثائق التي ظهرت في السنوات الأخيرة آثاراً أبعد غوراً من حيث عمل الشيوعية لتحقيق أهداف الصهيونية في تدمير العالم والسيطرة عليه.

ويشير الدكتور محمد عزت نصر الله في كتابه الثورة الإشتراكية، إلى ان الشيوعية التي هاجمت جميع الأديان «وخاصة الإسلام» قد غضت الطرف عن اليهودية وسمحت لها بأن تمارس نشاطها الديني في الإتحاد السوفيتي وقال في تبرير ذلك لينين في تصريح له في ٨ أكتوبر عام ١٩١٧:

«إن حجر الزاوية في رأي كارل ماركس و «إنجلز» في الدين هو قولها المأثور (إن الدين أفيون الشعوب) لقد كان رأي الماركسية على الدوام في الدين والمعاهد والكنائس والمساجد وكل نوع من أنواع المؤسسات الدينية أنها صدى للرجعية والبرجوازية، لا هدف للاديان إلا الدفاع عن سياسة الإستغلال والتحذير وتشريع تصرفات الملوك التي يتخذها الرأسماليون نحو الطبقات الكادحة، أما الخرافات اليهودية وإن كانت لا تختلف عن باقي الأديان ولكن بقاءها لليهود البؤساء أمر ضروري للمحافظة على يهوديتهم حتى ينالوا حقهم، ذلك لأن اليهود إذا نبذوا دينهم حينئذ يتيهون في الاقوام المجاورة لهم وبمرور الزمن يفقدون اسرائيليتهم والمحافظة اسرائيل كمجموعة كاملة ومتحدة، فالدين أمر ضروري لحياة الشعب اليهودي المختار ريثما ينالوا حقوقهم.

ويقول الدكتور محمد عزت نصر الله: إن هذا التجاوز الشيوعي للدين اليهودي واستثنائه من مخطط محاربة الأديان يبرهن على أن الشيوعية إنما تعمل لتحقيق الهدف الصهيوني في السيطرة على العالم ابتداء من فلسطين العربية

المسلمة، فإذا كانت الحرية الدينية محرمة على المسلمين والمسيحيين ومباحة لليهود، فإن الأجيال المسلمة والمسيحية القادمة ستصبح بلا دين ولا تعبد غير المادة وذلك بخلاف الأجيال اليهودية التي تستطيع عندئذ أن تسيطر على الشعوب التائهة التي كانت مسلمة أو مسيحية فيا مضى.

وهكذا يعترف لينين باليهود كشعب مختار، ويكشف عن هذه الصلة العضوية بين الماركسية والصهيونية ولعل هذا هو الذي دفع الحكومة السوفياتية في بداية حكم لينين عام ١٩١٧ إلى إصدار جملة قرارات كان اهمها إعلان التأييد الكامل لحق اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين، يقول دكتور نصر الله ، وإذا سألنا ما هي حقوق اليهود؟ فالجواب - ماركسيا وصهيونيا - تنفيذ مرامي وأهداف الأيدلوجيـــة اليهودية القائمة على فكرة «الشعب المختار» والدافعة بالتالي لإعتبار:

اولا: ان الأرض كل الأرض وما فيها ميراث لبني اسرائيل، تلزمهم مشيئة الرب بأن يستولوا عليها.

ثانيا: أن كل شريعة غير شريعة بني اسرائيل فهي فاسدة.

ثالثا: أن كل سلطة على وجه الأرض غير سلطتهم هي مغتصبة.

رابعا: أن كل شعب حر، غير شعبهم، قابض على ذروة من السلطة هو غاصب.

خامسا: أن الرب حرم عليهم الشفقة والرحمة.

وهكذا أصبح حل المشكلة اليهودية يستلزم أن يسيطر اليهود على جميع الناس ويرى كاي مردخاي (كارل ماركس) كما يجب أن يسمى نفسه، أن المشكلة اليهودية لا تنحل نهائيا الا بالتحويل الاشتراكي للعالم بأسره، وإذابة الأديان والقوميات في بوتقة الماركسية أو الاشتراكية العلمية أو التقدمية الثورية، (سمها ما شئت) ذلك أن المشكلة اليهودية قائمة تحت ضغط الاعتقاد القائل بأن اليهود هم «شعب الله المختار» وبما أن التقدمية الثورية فكر وحركة وهدف يعمل لإخضاع المجتمع البشري كله إلى (قيادة طليعية) اشتراكية ماركسية واحدة ترتبط بها كل الحركات الماركسية في العالم، يرى اليهود أنهم أصلح البشر بصفة

كونهم شعب الله المختار لإحتلال مركز القيادة الطليعية التي هي الإسم العصري لعقيدة الشعب المختار اليهودية». ولقد استطاع المكر اليهودي أن يؤسس الحركة الصهيونية لتتولى عملية مخادعة العالم (وخاصة الولايات المتحدة وأوربا الغربية) بأن هذه الحركة لا صلة لها بالشيوعية العالمية وأنها تعمل لصالح الاستعمار الغربي وخدمة استراتيجية الدولية العامة وبذلك تتمكن من احراز عطفه ومساعدته على إقامة الوطن القومي اليهودي، ثم الالتفاف بعد تحقيق ذلك، للانقضاض على الغرب وتحقيق السيادة اليهودية العالمية بالسيطرة- ماركسيا وصهيونيا على العالم كله، وهكذا يتحقق التصور اليهودي للعقيدة اليهودية، وما هذا الخلاف الظاهر بين الاتحاد السوفياتي-قاعدة العمل الماركسي-والصهيونية سوى «التكتيك المرحلي» الذي تطلبه خطة السيطرة اليهودية في الوقت الراهن.

وطبيعي أن السيطرة اليهودية لا يمكن ان تتم إلا بعد تهديم العالم الإسلامي وإضعاف الشعوب الإسلامية.

(٣)

تجمعت في السنوات الاخيرة وثائق كثيرة تكشف تعانق الماركسية والصهيونية:

ويقول الدكتور أحمد عوف: إن لينين كان من مخططي الصهيونية ومن واضعي بروتوكولات حكماء صهيون وأنه حضر مؤتمر الحكماء عام ١٨٩٧ في سويسرا وأن الثورة الدولية ليست من طبقة البروليتاريا بل من طبقة اليهود وأن أول رئيس دولة في روسيا هو الزعيم اليهودي كليمنيف وتلاه الارهابي اليهودي سفرولوف وتبعهما زينوفيف.

وقال: إن الذين يحكمون روسيا الآن ليسوا الروس ولكن حفنة من اليهود الارهابيين العالميين وما زال الشعب الروسي يعيش في فقر وحرمان في حين يقتني قادة الكرملن السيارات الأمريكية الفارهة ويعيشون عيشة القياصرة.

ويقول هاريمان لومر اليهودي في كتابه الصهيونية ودورها في السياسات العالمية أنه منذ ظهور الحركة الصهيونية فقد ظهرت داخلها اتجاهات كثيرة تحاول توحيد فكرة الصهيونية والاشتراكية وفي عام ١٩٠٠ ظهرت هذه

الاتجاهات مع إنشاء أول جماعة صهيونية أنشئت في روسيا وهي (عمال صهيون) ففي داخلها ظهرت عدة تيارات اشتراكية منوعة مختلفة، وقد ظهر أول وأهم هذه التيارات على يد (سيركين) وبورشوف ولقد حاول هذا الأخير الجمع بين الماركسية والصهيونية».

والمعروف أن التخطيط الاستعماري الصهيوني قد حتم تقسيم ميادين العمل وفرض على الشيوعية أن تعلن في فترات متفاوتة خلافها مع الصهيونية وقد عملت الشيوعية على كسب خصوم الصهيونية بإعلان عدة تصريحات نسب بعضها الى لينين وإلى غيره من بعده بوصف الصهيونية بأنها حركة رجعية عدوانية عنصرية وذلك في سبيل «حجب» الرابطة العضوية بينها ولتطمئن اولياء الأنظمة الرأسمالية الغربية الذي تسير الصهيونية في خطهم.

(٤)

ومن خداع الصهيونية تلك التفرقة الوهمية بين اليهودية والصهيونية بقول: الكاتب اليهودي (دافيد بن أهارون) في كتابه الصراع بين اليهودية والصهيونية إن وجود إسرائيل هو تحقيق أمل قديم وأن هذا الشعور أو الأمل ينبعث من الدين اليهودي نفسه، وبرغم ذلك بإن هناك قلة من اليهود يؤمنون بأن وجود الدولة اليهودية أمر يناقض التقاليد اليهودية ويجب نكرانه وعدم الاعتداد به، إن معظم اليهود يلتصقون بالمبادىء الصهيونية بنفس الطريقة التي عبد بها يهود التوراة العجل الذهبي أيام النبي موسى عندما خرج بهم من مصر إلى صحراء سيناء. إن الأقلية من اليهود الذين يعيشون اليوم في معظم أرجاء مدينة القدس يطلقون على أنفسهم «حراس المدينة» ويؤمنون بعمق في كتابات الحاخامات التي كتبت عبر القرون.

إن حراس المدينة الذين يحيطون بالقدس إحاطة السوار بالمعصم من الصهاينة المتعصبين لا حق لهم في إمتلاك مدينة بها مقدسات أديان أخرى من حق أصحابها أن يحجوا إليها كلما أرادوا ذلك. ولقد خلق اليهود لانفسهم مشكلة فوق مشاكلهم التي عانوا منها خلال الألفي سنة بتأسيسهم دولة اسرائيل التي لن ترفرف عليها رايات السلام ما دام يديرها جماعة من الزعماء الذين

احترفوا السياسة وأحلوها محل الدين الذي تلاشت تعاليمه بمضي السنين وأصبح من مبادئهم الاغتصاب والتهور والإخلال بالنظم العامة وعبادة القوة وحب السيطرة والظهور.

(٥)

وقد كان بين الصهيونية والدولة الروسية صلات قديمة وعميقة وبعيدة الأثر في التاريخ منذ قضى الروس على دولتهم المسماة دولة (الخزر) وبيتوا الانتقام لهم وذلك بالإعداد لخطين متكاملين هما: الشيوعية الماركسية والصهيونية وتشير الوقائع الى ان المؤتمر الصهيوني في بال عام ١٩٠٢ أصدر واحدة من أخطر البروتوكولات هما: «إن آخر حصن للعالم وآخر ملجأ من العاصفة هي روسيا فإيمانها ما زال حيا (بالمسيحية) وأمبراطورها ما يزال قائماً كحاميها المؤكد».

ويقول الاستاذ علي منير مراد: وكان الهدف هو التخلص من هذا الأمبراطور وتدمير ذلك الحصن تأكيداً لما قرره المحفل الماسوني الأمريكي في نهاية القرن التاسع عشر وهو الذي يدير الماسونية الكونية وكل أعضائه من كبار اليهود،فقد تقرر انفاق مليار دولار في سبيل قيام ثورة في روسيا تطيح بالإمبراطور وتهيء الدولة للشيوعية غير عابئين من تضحية أعداد ضخمة من يهود روسيا، فالشيوعية هي جناح أيدلوجي للصهيونية العالمية، وإن الثورة الشيوعية في حقيقتها هي ثورة لليهود ضد القيصرية وهما مظهران للفكر اليهودي الذي يجهر بالعداء السافر للشعوب، وما أن نجح المخطط الصهيوني بقيام الشيوعية حتى كان اليهود القائمين بالاغتيالات السياسية.

وبعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى التي قدم فيها زعماء اليهود المساعدات المالية الضخمةإلى الحلفاء في سبيل انتصارهم على ألمانيا وصدر وعد بلفور المشؤم بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين رداً للجميل كانت القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي قد استولت على فلسطين وبدأت هجرة اليهود إلى فلسطين وساعدتهم الإدارة البريطانية على شراء الأرض للتوسع في إقامة المستوطنات اليهودية والمستعمرات وكانت الشيوعية التي استقرت في روسيا

والتي تزعمها اليهود تعمل على مساعدة اليهود الروس للهجرة الى فلسطين، لذلك لم يكن غريباً أن يدفع يهود أمريكا روزفلت لمدّ يد المعونة إلى روسيا الشيوعية للقضاء على هتلر غير الشيوعي في الحرب العالمية الثانية لانه عدو اليهود الأول وما أن تخلت بريطانيا عن إدارتها في فلسطين عام ١٩٤٨ حتى أعلن قيام دولة إسرائيل وكان الإتحاد السوفيتي هو ثاني دولة تسارع إلى الإعتراف بإسرائيل بعد الولايات المتحدة، كما كانت الأسلحة التي أرسلت إليها من تشيكوسلوفاكيا والدول الشيوعية في أوربا لها أكبر الأثر في صمود القوات الإسرائيلية في وجه الدول العربية التي كانت تسعى لشراء الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية بعد أن امتنعت دول الغرب عن بيع السلاح لها.

(٢)

التقاء الشيوعية والغرب تحت ظل الصهيونية

يقول كودمين كوهين: أن اسم تروتسكي ورتشيلد يمثلان تموجات العقلية اليهودية: تروتسكي علم الشيوعية وروتشلد علم الغرب الرأسمالي. وتكشف التحولات الأخيرة الى تلاقي الشيوعية والرأسمالية تحت ظل الصهيونية ولخدمتها، بل أن هناك تقارباً واضحاً اليوم بين المذهبين: الديموقراطي الليبيرالي الغربي والماركسي الشيوعي، وقد بدأت تقوم القناطر بينهما في كتابات سارتر وماركوز وغيرهما وذلك مقدمة لإنصهار الأول منهما في الثاني، وقد جرت محاولات عديدة لربط الفرويدية الغربية بالماركسية قام بها (سارتر نفسه قبل ماركوز) وهناك محاولات متعددة لهذا اللقاء لعل أخطرها هو أن الفلسفة المادتة هي الجذر الأصيل الآن لكلا الفكرين الماركسي والليبرالي وأن التفسير المادية للتاريخ الذي قال به ماركس هو أساس من أسس الفكر الغربي الليبرالي.

وأن هذا التحول إنما يجري لتحقيق الرؤيا المستقبلية التي تعد بروتوكولات صهيون العالم لها عن كل طريق:

(١) عن طريق الأدب والقصة والشعر الجديد.
(٢) عن طريق المدرسة الإجتماعية ونظريات النفس والأخلاق.
(٣) عن طريق التكامل بين الماركسية من ناحية والفرويدية والوجودية من ناحية اخرى.

ونحن نرى الصورة تتحرك في أفق الفكر الإسلامي العربي اليوم بعد أن اتسع نطاق الدعوات الماركسية والوجودية والفرويدية بها وكذلك مذهب المدرسة الإجتماعية دوركايم، وكل دعا هذه المذاهب من اليهود الصهيونيين ولهم علاقات واضحة وعميقة بالحركة التي قام بها هرتزل. بل أن المخططات التي تقوم بها الرأسمالية الغربية في محاصرة بعض الأقطار الشرقية واضطهادها بعنف وإنما تهدف إلى أن تلقى هذه الدول بنفسها في أحضان الشيوعية ولو كانت الرأسمالية الغربية تريد أن تحررها من الظروف

الإجتماعية او الاقتصادية التي تمر بها لأنفقت هذه الاموال لا على حربها بل على سلمها، وتجربة أندونيسيا وفيتنام والشرق الأوسط وغيرها يمكن أن تدرس في هذا المجال.

كذلك فإن المسيحية الآن تستخدم لخدمة أهداف اليهودية التلمودية وأن القرارات التي أصدرتها المجامع المسيحية سواء الكاثوليكية والبروتستانية إنما هي خطوات على نفس الطريق، وأن كل حركات التبشير المسيحي الآن في العالم الإسلامي محتواه بالتوراة والوعد المقدس وهو ما يعتنقه البروتستانتية وتقوم به، بل إن الجامعات الإرساليات الغربية الموجودة في العالم الإسلامي (وفي عواصم بعض البلاد العربية) وخاصة التابع منها للبروتستانتية فإنها تعمل في خدمة الصهيونية ومن أجل الدفاع عنها.

والمعروف أن اليهود قد وضعوا أراء التلمود في نظريات ومناهج ومذاهب عالمية، في إطار العلمانية والمادية، وذلك لخداع العالم كله عن هوية هذه المذاهب ولفرضها على الجامعات والصحافة والنظم الإجتماعية.

الباب السادس

عالم الغرب اليوم إزاء الاسلام

اولا : تمزق الفكر الغربي.
ثانيا : فساد المجتمع الغربي.

الفصل الأول

تمزق الفكر الغربي

إن القوى الطامعة في السيطرة على العالم اليوم تقف في وجه الإسلام من ناحيتين: تقف في وجهه من ناحية نمائه واتساعه وانتشاره وتمكنه من الحصول على ثرواته وقوته واستعادة مكانه الطبيعي فوق سطح الأرض فتحاول ما تستطيع تعويق هذه النهضة ووضع الحواجز والمعوقات في طريقها وتبديد هذه الثروة بتوجيهها وجهة الإستهلاك والترف والفساد. والحيلولة دون انطلاقة التفوق البشري والنمو السكاني بإذاعة دعوات الإنفجار السكاني والتهديد بأن النمو البشري سوف لا يجد مادة العيش، وانتشار دعاة تحديد النسل والإصرار عليها محافظة للأثرياء أصحاب الملايين على ثرواتهم، ومكانتهم، وحتى تظل الأمة الاسلامية فقيرة عاجزة عن السيطرة على مقدراتها الطبيعية التي تستجيش بها أرضها وبلادها، ونهب هذه الثروات وترك الفتات لأهلها.

كذلك فإن هذه القوى الطامعة في السيطرة تسد الطريق على الاسلام حتى لا يزحف سواء إلى أقطار آسيا وافريقيا حيث الحشد البشري الضخم الواسع المتعطش الى الدين الحق والى أوروبا والأمريكيتين اللتين يتطلعان إلى منهج حياة وايدلوجية جديدة ترضى النفس الانسانية وتحقق الأمن النفسي بعد أن عجزت هذه المناهج والأيدلوجيات عن أن تحقق لها شيئاً.

وليس سوى الاسلام قادر على هذا العمل وهو بالغه بقوة (الله) الحق الذي يمثله إرتباطا بالفطرة والعلم ونواميس الكون والحياة والمجتمعات وبالغه بإرادة الله الذي سيرى البشر آياته حتى يعلمون أن دينه هو الحق.

والغرب يعلم تماما ان منهج التجريب الاسلامي هو الذي صاغ الحضارة الغربية ومع ذلك فقد عاش الغرب قروناً متطاولة يتنكر لهذه الحقيقة ولا يجد أهله القدرة على الإعتراف بها وإقرارها واليوم وهو يرى الحياة الاجتماعية

الغربية وقد فسدت واضطربت وأن المناهج والايدلوجيات التي وضعها خلال أربعة قرون لم تحقق شيئاً، يعلم أن الإسلام يستطيع أن يعطيه إن شاء الأمن النفسي والمجتمع الأمثل ولكن ما زالت الحوائل تحول بينه وبين إقرار هذا الرأي والاقتناع به وإنا لنجد عشرات من الباحثين قد أشاروا إلى حيرة الغرب وتمزقه، ومنهم من أشار إلى الإسلام منافساً خطيراً لها ولذلك فهي تضربه في فكره وتثير عليه حرباً قاسية عن طريق الاستشراق حتى لا يصل إلى أهل الغرب على نحو صحيح، وتقسو على أهله في بلادها، والمهاجرين إليها من بلاد الإسلام، حتى لا يشكلوا صورة تأخذ بألباب أهل الغرب الذين يتطلعون الآن إلى منقذ.

وما تزال اليهودية الصهيونية التلمودية تحتوي الفكر الغربي المسيحي والفكر الثقافي جميعاً وتسيطر على الإنسانيات المتمثلة في علوم النفس والأخلاق والإجتماع، فإذا كان علماء الغرب المسيحيون قد قاموا على هذه المعطيات العلمية التجريبية في مجال الطبيعة والكيمياء والفلك وغيرها، فإن التلموديين اليهود الذين لم يشتركوا في هذا الإنجاز إلا بقدر ضئيل، هم اليوم يحاولون عن طريق العلوم الإنسانية والسموم التي يقدمونها من خلالها أن يسيطروا على الفكر البشري كله وأن يحتووه لإفساد المجتمع الغربي إفساداً يحول بينه وبين القدرة على تلقي أي عطاء جديد.

إن الغرب (باستعلائه العنصري على المسلمين العرب وبتعصبه على الإسلام وبسيطرة اليهودية التلمودية) يعمل على محاصرة الإسلام والعالم الإسلامي بأكثر من قوة من قوى التغريب والغزو ممن يسيطرون على مراكز القوة في العالم وفي قلب الإسلام ومن ذلك نجد أن الحركة الى اليقظة ومنها إلى النهضة تسير في بطء شديد حتى لتكاد تتحسَّسُ طريقها وإنها كلما انطلقت إلى هدف جرت المحاولة لتحطيمه أو إجهاضه قبل أن يحقق غايته.

ولقد كان من أكبر ما حمل لوائه الغزو التلمودي الصهيوني إثارة مشاعر الغرب على الاسلام بالقول بأنه الدين الوحيد الخطر على العالم الغربي. فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية. إذ إنها جميعها ديانات قومية لا تريد الأمتداد خارج أقوامها وأهلها وهي في نفس الوقت أقل من المسيحية رقيا

أما الإسلام فهو كما يسمونه - دين متحرك زاحف وهو يمتد بنفسه بلا أية قوة مساعدة وهذا وجه الخطر فيه.

وإذا كان الغرب قد أعلن بأنه لايقبل مزاحمه الاسلام له في أوربا وقاومه من الجبهتين على هذا النحو من العنف. فإن الغرب كان حريصاً على التسلل الى عالم الاسلام تحت اسم السيطرة والتسلط، يبدو هذا واضحا في قصص أولئك الذين عمدوا منذ وقت بعيد الى التسلل الى العالم الاسلامي فمنهم من تسلل الى الحرم المكي ومنهم من تسلل الى الازهر، ومنهم من عمل في مجال الآثار، كل هذا ليضعوا هذا العالم الاسلامي تحت نظرهم وتقديرهم ويقيموا وسائل غزوهم على أسس ثابتة ومعلومات يأخذونها من أهل الأوطان بغير حق، أو أن ينقلوا هذا التراث من المساجد القديمة والزوايا ليسيطروا به على الفكر الاسلامي فينشروا منه ما يشاءون ويحجبوا ما يريدون، ولقد روت الصحف قصص كثيرين من هؤلاء منهم برخارت الذي وصف بأنه أول أوربي مسيحي يدخل الى الحرم المكي آمنا مطمئنا ويشارك المسلمين حجهم وصيامهم وصلاتهم وقيامهم ثم يخرج من مكة ليكتب أول وصف من شاهد عيان للأماكن الاسلامية ينشر في العالم الأوربي عام ١٨٢٩ تحت عنوان «رحلات في بلاد العرب تصف الأماكن الحجازية التي يعتبرها المحمديون مقدسة» وواضح من طريقة العرض كما يقول الاستاذ محمد جابر الانصاري الذي نقلنا عنه: إن برخارت لم يكن مسلما صادقا على الإطلاق وأنه يتظاهر بالاسلام طوال الوقت تحقيقا لغرضه الذي جاء من أجله. وإن سوء ظن الوالي التركي كان في محله، ولعل برخارت أول من مهد الطريق لذلك الرعيل الطويل من المستشرقين والمستشارين الذي ادعوا حب الاسلام كستار يخفي اغراضهم.

وبعد أن أنهى برخارت زيارته للأماكن المقدسة توجه إلى مصر حيث أعطى رجال القنصلية البريطانية ما أرادوه من معلومات وأخذ منهم ما أرادوه من مال بناء على تعليمات لندن للتخطيط لاكتشافه الثاني وإذا كانت رحلته الأولى قد تمت في إطار الاهتمام البريطاني ببلاد العرب وأماكنها بعيدة عن بذور الاهتمامات اليهودية الصهيونية الاولى بفلسطين وبأرض التوراة والنفي والميعاد، فقد قرر برخارت اكتشاف الطريق الصحراوي الذي سار فيه موسى وقومه من

بني اسرائيل عندما خرجوا من أرض مصر وذهبوا - عبر صحراء سيناء - إلى فلسطين بحثا عن أرض الميعاد! وقد أنهى برخارت هذه المهمة في حزيران عام ١٨١٦ ويتساءل الباحث هل كان يخطط بلا وعي للطريق المعاكس الذي سوف يتبعه الاسرائيليون من أرض الميعاد الى مصر في حزيران عام ١٩٦٧.

وفي عام ١٨١٧ شرع برخارت في الاعداد لرحلته الثالثة في جنوب الصحراء الكبرى لاكتشاف منابع نهر النيجر.

وهكذا نجد جولد زيهر المستشرق اليهودي من بعد يقدم القاهرة ويجاور في الأزهر ويكتب أسوأ ما كتب مستشرق عن الاسلام ونجد لورنس يقدم في تقيه للبحث عن طريق موسى ثم يكون بعد ذلك حامل لواء المعركة الفاصلة بين العرب والترك حيث حرض المسلمين العرب على الاقتتال لحساب الصهيونية العالمية.

يقول محمد جابر الأنصاري: ليس مهما ما قاله برخارت وما فعله بل المهم أن نرى كيف كان الغرب يدرس أمورنا عن كثب، ويصل إلى قدس أقداسنا رغبة في معرفة مواطن القوة والضعف ورغبة في إدراك الحقيقة، لا حبا في الحقيقة. ولكن من أجل استخدامها لمصالحه، بل إنه لم يبدأ زحفه السياسي إلا بعد أن درس ونقب واكتشف وقيم.

هكذا نجد أن الغرب لا يكف عن العمل، ولا يكف عن عرقلة كل أسباب التقدم على جبهة الاسلام، وعلامات هذه المؤامرة قائمة في كل الخطوات، فالغربيون الذين هزموا في الحروب الصليبية ينتظرون ثمانية قرون ليجيء من يقول: ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين أو يقول الآخر: الآن انتهت الحروب الصليبية: ولا يعني هذا في الحقيقة إلا أن يقول: هذه هي الحرب الصليبية التاسعة التي انتصرت بعد هزيمة لويس التاسع.

(٢)

وفي مواجهة كل توسع إسلامي نجد المحاولات المريرة من أجل القضاء على كل ما يحصل الاسلام عليه من تقدم ونجد تلك الخطط الماكرة التي تقوم بها حركة التبشير في عالم الاسلام وفي أفريقيا وجنوب شرق آسيا بالذات حيث

ينمو الاسلام هنالك نمواً كبيراً وتحاول الكنيسة الكاثوليكية في أفريقيا محاولات واسعة في توقيف نمو الاسلام.

يقول لورنيس اليكو في بحث له: في عام ١٩٥٥ ذكرت صحيفة نيوريوك هيرالد تريبون أن السلطات التبشيرية في روما كانت تأمل في تحويل شعب افريقياالسوداء الى المسيحية في مدى خمسة عشر عاما، أما صحيفة لاكرووهي صحيفة كاثوليكية فرنسية فقد خفضت هذه الفترة إلا أن الأحداث في عالم المستعمرات بما في ذلك أفريقيا فقد تطورت بأسرع مما كان متوقعا. ويذكر الباحث أنه في القرن الأول من العصر الاسلامي (السابع الميلادي) أخرج الإسلام المسيحية من شمال أفريقيا كلها بسرعة مذهلة، ولعله يرى أن على المسيحية أن تستعيد الآن هذه الأرض.

ولكن الباحث يؤكد أن هذا العمل لن يتحقق لأن لإرساليات تعمل تحت لواء الاحتلال وأن الاسلام يعمل تحت لواء التحرر وأن النضال ضد الاستعمار يشن دائما من تحت راية الاسلام، وأن القساوسة والاساقفة دائما يصاحبون القوات الأجنبية الغازية حتى أن الكاثوليكية في أفريقيا ينظر إليها على أنها دين المستعمر، ويقول بيير جيبرو في كتابه ثورة الشعوب الملونة عام ١٩٥٦: أن هناك اتجاها عاما للنظر الى المسيحية كآخر بقايا الاستعمار وأن المبشرين يشاركون البيض الآخرين مصيرهم وقد أشار أرتهاردت أنه في عام ١٩٥٤ وجد في جنوب أفريقيا ١٢٨٦ كنيسة ينتمي إليها ٧٦١ ألف شخص وقال أحد الفلاحين الأوربيين المستوطنين لأهالي البلاد: ذات يوم كانت الأرض من نصيبنا وكان الأنجيل من نصيبكم أما اليوم فقد انعكست الآية.

ويقول: لقد تشكلت السياسة الاستعمارية للكاثوليكية في القرن الخامس عشر كجزء لا يتجزأ من من سياسة الغزو التي كانت تتبعها إسبانيا والبرتغال. وأن أفريقيا قارة مستعمرة وفي مدى ثلاثة قرون قام مجتمع الدعوة للعقيدة وهو جهاز الإرساليات، التابع للفاتيكان بتغطية القارة بشبكة من الارساليات، هذا المجمع الذي يعمل لحسابه ٣٠٠ ألف شخص يتلقى الاعانات من الدول الأوربية ويملك إقطاعات شاسعة، وفي كثير من المستعمرات نجد أن الكنيسة هي أحد

ملاك الأرض الكبار ويقدر ما يصل إليها بـ ١٤ مليون دولار سنويا برغم أنه لا يوجد في أفريقيا ما يزيد على ٢٠ مليون كاثوليكي.

ويقول لويس جبليه عضو المجمع العلمي الفرنسي: لقد أعلنت الكنيسة العداء على الاسلام وأهله وسددت في ذلك زمانا طويلا، وكان رهبانها والقائمون بالأمر فيها يعلمون العلم كله بقيمة الإسلام والحضارة الاسلامية والعلم العربي وكأنهم كانوا يعدون إنكار ذلك لونا من التقوى والتدين. فمن ألوان هذه الأفكار حملة رهبان الدومنيكان على ابن سينا وابن رشد وتصويرهما في هيئة تعبر عن انتصار القديس توما الأكويني عليهما، والمراد بذلك القول بانتصار المسيحية على الاسلام وموقف الكنيسة في هذا يفيض بنكران الجميل والجرأة على الحق.

ويقول لورينشي إليكو: إن الحرب العالمية الأولى كانت السياسة الاستعمارية تعني بالنسبة للفاتيكان غزو المستعمرات وزرع المسيحية كأن الاحتلال الأوربي يعتبر شيئاً خالداً وكان تحويل السكان المحليين الى المسيحية وهو أمر لم يجعله صعباً إلا منافسه الاسلام- ينظر إليه على أنه مسألة زمن.

ونجد في الجزء الثالث من كتاب رأس المال الذي كتبه ماركس وصف للأسلوب المستهتر الذي اتخذته الكنيسة الكاثوليكية في تجنيد الرجال الذين يعملون لحسابها، وأشار الباحث الى النظرة الماركسية المادية التي احتضنتها الكنيسة عن طريق (باتريس لومومبا، وكوامى نكروما) وهم أول من أطلق الشعار العلماني: علينا اولا ان نجد الملكوت على الارض) .

ويشير بيير روندو في كتابه «مصير النصارى في الشرق» الى أنه باسم حماية الاقليات وطد الغربيون أقدامهم في عالم الاسلام، وأن الاسلام لم يضطهد أهل الكتاب وأنه لا أدل على تسامح المسلمين من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي في الوقت الذي أقرت في الكنيسة في غرب أوربا بتحطيم كل وجود للمسلمين في أوربا.

ويقول موريس كرزويه: في موسوعته: تاريخ الحضارات العام: ظهر الاسلام للمسيحي والزنجي والآسيوي بسمو تعاليمه ولا سيا بنظرته إلى الله بعيداً عن

الحلولية والوثنية والاشراك وأن نظرية التعدد قد وقفت دوما حجر عثرة لدى العقول وحالت دون اعتناق الناس لها أو دون اعتناق الناس لها أو دون استمرار من أحد على القول بها.

وعلى العكس من ذلك جاءت عقيدة الاسلام تنطلق عفوية على مفهوم وحدانية الله فالله هو الكائن الحي الأبدي الأزلي السرمدي، هذا الشعور بوحدانية الله تغلل في تعاليم الاسلام وسيطر على حياة المؤمن وهيمن على الفن.

وبينما نجد عشرات من المفكرين المستنيرين يفهمون الاسلام الآن في أوربا وبالرغم من تلك الأزمات العاصفة التي تواجه التفسيرات الغربية للدين نجد القوى المصادمة للحق تجدد من حملتها للاسلام ولا تتوقف عن إثارة الشبهات حوله.

ومع ذلك فإننا نجد مثلا (أنامونو) في بحثه عن المسيحية يحاول أن يكشف وجهة نظر العقل المستنير في ضوء العلم لبعض التفسيرات التي وضعها الرهبان والأحبار والتي لم تكن أساساً من الدين المنزل على سيدنا عيسى ومع ذلك فهناك قضايا كثيرة في حاجة الى بحث ومنها قضية الخطيئة الأولى » وهناك مسألة الصراع بين الكنيسة الغربية والقوى الشيوعية النامية المسيطرة على أجزاء كثيرة من أوربا، وجهة نظر الاسلام فإن السيد المسيح هو رسول الله وكليمه وخاتم رسله الى بني اسرائيل جاء مكملا لرسالات أنبياء بني اسرائيل: توراة موسى، وزابور داود، وانجيل عيسى. كلها متصلة ببعضها وأن المسيح عيسى بن مريم لم يصلب ولم يقتل ولكن رفعه الله إليه، وإن خطيئة آدم ليست خطيئة لأحد سواه، وقد تاب الله عليه منها، وعفا عنه، ولا تزر وازرة وزر أخرى والمسلمون يؤمنون بوحدة الدين من نوح الى محمد ووحدة الرسالة « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا » وإن سيدنا عيسى جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعده أسمه أحمد.

والمسلمون يؤمنون بكل أنبياء الله وبكل كتبه المنزلة. ولا يقر الاسلام فكرة (الأبوة) ويفصل بين الألوهية والنبوة وبين النبوة والبشرية.

وقد أشار أرنولدتوينبي (جـ ٣ مختصر دراسة التاريخ ص ١٦٧) الى تحول

المسيحية الى فكرة الإله الغيور وتساءل لماذا قبلت المسيحية الغربية هذه الفكرة اليهودية الأصل ولقد استطاعت الصهيونية في العصر الحديث احتواء الفكر الغربي المسيحي وكان أخطر ما استطاعته في ذلك هو الإيمان بفكرة محرفة هي: وعد الله لليهود وهو في الحقيقة وعد الله لابراهيم عليه السلام ولأبنائه من بعده (اسماعيل واسحق) وأنه ليس قاصراً على أبناء اسرائيل وحدهم كما كتب ذلك اليهود في توراتهم التي حرفوها إبان سبي بابل.

ومن ذلك ما يذكره توينبي: من أن إله اليهود: هو (يهوه) من سماته الغضب والقسوة والبطش وعدم التسامح، ويعني توينبي أن الغربيين تحت ظل تفسيراتهم الخاطئة للمسيحية قد واءموا بين فكرتين متناقضتين الأولى فكرة البطش وعدم التسامح، اليهوديتان والثانية فكرة المحبة والتسامح التي يقوم عليها دعائم المسيحية الاصلية وأن الوجه الذي عرفه الناس عنها في ظل الاستعمار والتبشير الذي انطلق خلال هذه السنوات المائة الأخيرة وعن طريق الربا والمصارف هو الوجه الأول الدخيل الذي احتوت به الصهيونية العالمية أنقى واصفى ما في المسيحية من عناصر.

وإذا كان الغرب قد بدأ من الفكرة الإسلامية الأصيلة: فكرة التجريب فانه قد تحول كثيرا الى المفهوم الاجتماعي والسياسي للتلمودية الصهيونية وفرضت عليه فكرة العلمانية.

يقول الكونت كاتياني: من المؤسف أن تذهب الكنيسة الى أن ظهور الاسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من اتباعها هذه الديانة الجديدة على حين أن الأمر بعكس ذلك فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جلى الى المسيحية إذ لو لم تظهر الديانة الاسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامعة التي يعتنقها الأروام والروس والتي لم يقم أي دليل على نهضتها - أن تبقى مهيمنة من ذلك التاريخ الى اليوم وحالت دون سطوع مدنية العرب والعجم، فإذا يكون مصير غربي آسيا وأوربا في القرون الوسطى المظلمة أو لم تحل النهضة البروتستانتية التي ظهرت على الاثر دون تدهور الأرثوذكسية في هوة الانحطاط. بيد أن هذه الخدمات التي قام بها الاسلام نحو المسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين

هاتين الديانتين فحجب وجه الحقيقة عن الآباء وورث الأبناء والاحفاد الحقد الشديد » .

ويقول الكونت كاتياني أن النضال هو من ناحية واحدة، أما ناحية المسلمين فكلها سلام ورحمة وتكريم للمسيح وأمه ودينه المنزل واعتراف وتجاوز عن كل خلاف، أما النضال فهو من ناحية الذين لا يريدون للاسلام في أهله ولا في أرضه أن يبقى، أولئك دعاة الاستعمار والصهيونية والشيوعية.

وأن المسلمين لراغبون إلى التلاقي في مواجهة أخطار المادية والشيوعية والإلحاد ولكنهم يرون أن عوامل التبشير والغزو الثقافي لما تتوقف من الجانب الآخر.

وقد أشار العلامة أبو الأعلى المودودي الى مثل هذه المعاني حين خوطب في مساعي الالتقاء بين الاديان فقال إن المسلمين ما زالوا يتأذون مما يشنه على الاسلام بعض العلماء والكتاب والمبشرين والمستشرقين على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى القرآن والاسلام، وهي حملات تقوم على افتراءات واتهامات تدمى القلوب وتمس الكرامات.

بينا يراعى المسلمون كل المراعاة جوانب الأدب والتكريم في شأن مريم وعيسى عليهما السلام ويعتبرون من وجهة العقيدة الاسلامية كل كلمة تنال من كرامتهما أو تنافي مكانتهما كفرا وأنتم لن تجدوا ولا مثالاً واحداً أن مسلما قد ارتكب ما ينافي الأدب في شأن سيدنا المسيح وأمه الصديقة عليهما السلام ونحن إن كنا لا نعتقد في ألوهية المسيح ابن مريم، إلا أننا نؤمن بنبوته عليه السلام إيماننا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يكون أحد مسلما حتى يؤمن بالمسيح وغيره من الأنبياء عليهم السلام كما أننا لا نعتبر القرآن فقط كتابا منزلا من الله تعالى بل نعتبر كذلك التوراة والانجيل مما أنزل الله. ولا يفكر أحد من المسلمين في إهانة هذه الكتب المقدسة.

وإن المسلمين اليوم وإن كانوا لا يقرون بكون الكتاب المقدس في صورته الحالية وحيا منزلا من الله بأجمعه بيد أنهم يعتقدون بدون ما ريب أن فيه ما نزل من الله تعالى ولذلك فإن اخواننا المسيحيين لم يجدوا مجالا للشكوى من أننا

قد ارتكبنا إهانة أنبيائهم أو كتبهم المقدسة(والخطاب هنا موجه الى بابا روما) والعكس من ذلك فإننا لانزال ننال منهم منذ قرون ضرورياً من الأذى فيا يشن كتابهم وخطباؤهم من الهجوم العنيف على نبينا الكريم وعلى كتابنا المقدس وعلى ديننا الحنيف، ذلك لان هذه الدعاية غير الصحيحة تبذر في قلوب عامة المسيحيين أنفسهم بذور الكراهية والاحتقار للمسلمين.

كذلك فإن ما تقوم به البعثات المسيحية والمبشرون المسيحيون الغربيون منذ مدة طويلة في نشر الديانة المسيحية في العالم الاسلامي هي ايضا مما يأخذه المسلمون على إخوانهم المسيحيين، ذلك لأن المبشرين المسيحيين لم يقتصروا على التبشير فقط بل جاوزوا هذا الحد وأختاروا الوسائل الاخرى التي ليست من وسائل التبشير في حقيقة الأمر بل هي من وسائل الضغط السياسي والأطماع الاقتصادي والهدم الخلقي والعقائدي والتي لا يقر من فيه مسكة من العقل بكونها وسائل نزيهة للتبليغ عن الدين. أنهم في معظم الاقطار الأفريقية حرموا المسلمين من التعليم بمعاونة من القوة الاستعمارية وأغلقوا أبواب دور التعليم على وجه كل من لا يعتنق الديانة المسيحية أولا يختار لنفسه الاسم المسيحي بدلا من اسمه الاسلامي على الاقل. وأن الأقلية المسيحية ذات النفوذ التي خلقت بهذه الطريقة هي التي تسيطر اليوم من النواحي السياسية أو العسكرية والاقتصادية على كثير من الدول الافريقية التي معظم سكانها.

وأشار الاستاذ المودوي الى سبب آخر يحول دون تلاقي الاسلام مع الغرب: فقال إن هناك شعور عام يسود المسلمين نحو العالم المسيحي هو أن العالم المسيحي يكن حقداً شديداً بالنسبة للإسلام والمسلمين والتجارب التي تمر علينا من حين الى آخر تؤكد هذا الشعور وتعمقه. ومنها ما شوهد أخيرا في الحرب التي اندلعت بين العرب وإسرائيل فإن الارتياح الذي أعرب عنه معظم البلاد الأوربية والأمريكية بمناسبة إنتصار إسرائيل على العرب ترك في قلوب المسلمين وفي سائر الدنيا أثراً أليماً وجرحاً لا يندمل ولا تكاد تجد بلداً من البلادالاسلامية إلا وتراه يعتبر ما أبداه العالم المسيحي من سرور وارتياح علنا يوم انتصار إسرائيل على العرب ظاهرة الحقد والعداء اللذين يضمرهما المسيحيون في قلوبهم للإسلام والمسلمين.

بل إن العالم المسيحي هو المسؤول عن العدوان السافر الغاشم على فلسطين، بل هو الذي خلق وطنا جديدا للشعب الأجنبي في داخل وطن آمن مطمئن. وهو الذي ساعد على جعل هذا الوطن الاصطناعي دولة مستقلة وهو الذي أمد هذه الدولة العدوانية بالعون المالي والسلاح الحربي وجعلها تتمكن من تطبيق خطتها التوسعية وها قد نرى العالم المسيحي يغرق في غمرة الفرح والابتهاج والاهتزاز لما حقق لهذه الدولة من انتصارات » الخ.

(٣)

وإننا لنجد أن الصهيونية التلمودية التي سيطرت على الفكر الغربي في أوربا وأمريكا قد استطاعت أن تجند كل المؤسسات الغربية لغايتها فالكنيسة البروتستانتيّة تؤمن بنبوءة اسرائيل الباطلة وترى لها حقا في العودة الى فلسطين، عن طريق ما استطاعت الصهيونية أن تعمل في سبيل فرض هذه السيطرة على دوائر المعارف ومناهج المدارس. بل إن خطط التبشير المسيحي الغربي في العالم الاسلامي إنما تجري في إطار الإحتواء الصهيوني فهي ليست دعوة للمسيحية وحدها ولكنها في الحقيقة دعوة لإحياء الفكر التلمودي: بعقائده ونظرياته ومفاهيمه.

ويقف كثير من كتاب الغرب في وجه هذه المحاولة الخطيرة لإحتواء الفكر الغربي المسيحي وخاصة بتطويقه بمفاهيم العلوم الانسانية في النفس والأخلاق والاجتماع عن طريق المدرسة الفرنسية (دور كايم، ليفي بريل) وغيرهما.

وعن طريق الماركسية والوجودية والفرويدية (سارتر، وفرويد، ماركس) وكلها نظريات وأيدلوجيات لا تمثل الفكر المسيحي الأصيل وانما تمثل الفكر الوثني المادي الذي ارتبطت فيه التلمودية الصهيونية بالفكر الهيليني اليوناني القديم.

ونجد في كتابات أوناموتو في كتابه احتضار المسيحية أو كتابات كولن ولسون عن اللامنتمي وغيره محاولة لدفع هذا الخطر ومحاولة لايجاد تيار فكري مسيحي مختلف ومعارض للغزو التلمودي للفكر الغربي بل إن تلك الدراسة الضخمة التي قام بها(توينبي) إنما كانت دفاعا عن المسيحية الغربية باعتبارها

هي التي أنشأت الحضارة، في وجه حملة (شبنجلر) وماركس اليهودي عليها والذين أعلنا سقوطها وهزيمتها.

ويقرر أومانو: إن المسيحية لا علاقة لها بالأنظمة السياسية والاقتصادية وإن المسيحية عاجزة عن أن تحل مشاكل الفقر والغنى أو توزيع الثروات ويعادى أوتامانو جميع الأنظمة البلشفية ويناصر أعداء الثورة الروسية، ويرى أن البلشفية قد استبدلت ماركس بالمسيح ودستويفسكي ببولس والأخوة كرامازوف بأعمال الرسل ويرفض كل محاولة للتقريب بين الكاثوليكية والاتجاهات العلمية كالوضعية المنطقية ويرفض الاستشهاد في سبيل المبادىء السياسية لأن ذلك إيمان بالاصنام ويرى أن المسيحية تحتضر عندما تتحول الى حياة إجتماعية أو حركة سياسية أو مدنية والمسيحية عنده لا يمكن إيصالها للآخرين: فهي شيء فردي محض، كما يستحيل أن تدخل الدين في سياسة الحزب أو المعرفة الإنسانية في علم الإجتماع وعلم الآثار ويرى ان الدين أقرب الى التجربة الصوفية والاسطورة الشعبية ويرى انه من المستحيل ان تتحول الى قانون او تشريع ويركز على أن الدين (أي المسيحية) أساسا يقوم على مصلحة الفرد لا مصلحة الجماعة. ومجتمع المسيحية يتكون من مجموعة من الأفراد المنعزلين. ويقصر أوناموتو الدين على العبادات ويفصل عنه المعاملات ويراه علاقة بين الإنسان والله لا بين الانسان والانسان الآخر.

وعنده أن الديمقراطية المسيحية خرافة وأن الاشتراكية المسيحية خرافة، وأن المسيح لم يتحدث عن الملكة الفردية إثباتا أو نفيا. ويرفض أوتامونو أن يتحول الدين إلى حضارة. وبالجملة فإنه يرى أن المسيحية مجرد تجربة صوفية لا صلة لها بالارض ولا حتى بالسماء، والمثل الأعلى للمسيحي عند أنامونو هو الراهب وهو يرى أن الدعوة لفصل الدين عن الدولة في القرن العشرين في البلاد المسيحية دعوة تقدمية بعد أن استغل الدين لمصلحة الطبقات المميزة من أمراء ونبلاء وأشراف.

هذا موجز محاولة «أوتامون» وهي تعارض الفكر الغربي القائم الآن وتعزله عن المسيحية تماما، وتؤكد فكرة الأنشطارية التي أقامتها التفسيرات

المسيحية في الغرب بين الدين والدولة، وهي ما حاول البعض نقلها الى أفق المجتمع الاسلامي.

ويرى الدكتور الفاروقي في كتابه الملل المعاصرة: إن اليهود كانوا من وراء هذه الخطة فهي التي حققت لهم الخروج من الجيتو: يقول علينا أن نذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة لنمو العلمانية في التنظيم السياسي والاجتماعي إذ أن إقصاء الدين عن السياسة والاجتماع والاقتصاد أدى الى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة والأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفائتهم الشخصية لا على أساس الدين بل على أساس وجودهم في الوطن.

ويقول الكبتور الفاروقي: إن المسيحي الأوربي قد قسم حياته إلى دوائر، وجعل بينها سدوداً تمنع أي اتصال وتجري الحياة في هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة البتة للدائرة الواحدة بما يجري في الدوائر الأخرى فالعائلة والأخلاق الشخصية والدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع، كل واحدة منها تؤلف ملكوتاً مستقلا فالويل كل الويل إذا سمح الغربي لمبادىء الدين إن تتعدى حدودها للتأثير في الإقتصاد والواقع ليست العلمانية سوى الاعتراف بأن هناك مبدأ يشمل حياة الإنسان بكاملها كما هو الحال في النظرة الدينية فأصبح لكل دائرة من دوائر الحياة مبدأه الخاص» .

وهكذا نجد أن الفكر الغربي قد تبلبل تحت تأثير الاحتواء الصهيوني فانشطر أشطاراً، وغلبت عليه المادية، وسيطرت المذاهب الماركسيةوالفرويدية والوجودية والمادية والإباحية على درجات وحلقات.

وقد جاء ذلك نتيجة صراع طويل المدى بين اليهودية والمسيحية في أفق الفكر الغربي وكانت للفكر المسيحي محاولات لدفع أخطار اليهودية التلمودية يتمثل في عشرات من التصريحات وفي مقدمتها ما كتبه مارتن لوثر في كتابه (كذب اليهود) الذي ألفه قبل عام ١٥٤٦م وهو يمثل مدى اتساع الصراع بين المسيحية واليهودية في أوربا، وقد رد هذا الصراع إلى سببين:

(أولا): التناقض الذي لا حل له بين النظرة اليهودية والنظرة المسيحية في

موضوع السيد المسيح فاليهود لم يؤمنوا به وما صدقوا برسالته بينما الإيمان به والتصديق برسالته هو أساس الديانة المسيحية.

ثانيا): من ناحية دنيوية رغم إمكانية ربطها بمعتقدات اليهود الدينية وهي ناحية حساسة.

وفي مقدمة القضايا التي كانت موضوع الخلاف : قضية الربا والاستثمار اليهودي بالحياة المالية في أوربا إذ يظهر أن حب اليهود للمال واعتمادهم عليه كعصب أساسي لمسيرتهم الحياتية نحو تحقيق أهدافهم بالتسلط ليس قضية عابرة ولا مبالغ فيها وليست حديثة العهد.

وقد كشفت هذه الدراسة عن عشرات الأدلة لما عاناه المواطن العادي في أوربا من الجشع اليهودي الذي كان مجسداً إذ ذاك في الربا وحده وما تزال قضية اتهام اليهود بالتحريض على صلب المسيح وتبرئتهم من هذا التحريض موضع دراسات عن طريق المحافل الكنيسية والمؤلفات والكتب لم تتوقف منذ ذلك الوقت البعيد.

ولقد استغلت التلمودية اليهودية الصهيونية في أوربا: نيتشه ورينان وعشرات غيرهم في الهجوم على المسيحية وعلى السيد المسيح، وحاول الفكر المسيحي رد هذا الهجوم بتفسير نيتشه مثلا تفسيرا مسيحيا في المحاولة التي قام بها المسيحي (باسبرز) حين حاول أن يجعل من كتابات نيتشه تفسيرا مسيحيا واعيا، وأن هدف نيتشه كان هو إنقاذ المسيحية من ألد أعدائها.

ولست أدري كيف يمكن تبرير إعلان نيتشه عن موت الآله: وإن كان يعني آلهة هو ولم يكن هو موقنا بالله الواحد الأحد ولكنه كان مؤمنا بالوثنية اليونانية وقد عرف ان نيتشه كان مريضاً مرضا عضويا في المخ أدى الى الشلل، وإلى الجنون.

ويحاول توينبي في كتابه «المسيحية من أديان العالم» أن يواجه أخطار الاحتواء اليهودي التلمودي الصهيوني الذي وقعت المسيحية الغربية والفكر المسيحي الغربي في براثنه حين يقول: إن أعظم إنجازين قدمتها التلمودية هما: عدوين للمسيحية وهما الشيوعية والقومية: يقول إن الشيوعية والقومية هما

العدوين للأديان إذ هما شكلان مختلفان لموضوع فاسد ألا وهو عبادة الإنسان لنفسه، وقال إن العالم كله مستغرب الآن أو متغرب، وسئل توينبي ماذا تكره في القومية قال: التعصب الذي يطيح بكثير من القيم الإنسانية ويثير الفتن والحروب:

والمعروف أنه عندما اختلف العلماء التجريبيون في أوربا مع الكنيسة وتفسيراتها للأرض والكون، قامت محاكم التفتيش بمعاقبة العلماء واضطهاد هؤلاء الذين بلغوا ثلاثمائة ألف في بعض التقديرات وقد أحرق منهم ٣٢ ألفاً أحياء وكان منهم العالم الطبيعي برنو والعالم جاليلو.

وبدأ العداء بين العلم والدين وكان في الإمكان حصره في دائرة التفسيرات المغلوطة ولكن اليهودية التلمودية عمقت هذا الخلاف وجعلته نهائيا، وأثارت على الكنيسة حملة عاصفة وطرحت الفكر المادي، القائم على سيادة الحس المحصن، وسيطرة العقل على الدين وأخذت تحتوي كل النظريات العلمية لتفسيرها في دائرة الإلحاد كما فعلت بالنسبة لنظرية دارون حين نقلت مفهوم التطور من المجال البيولوجي الى مجال الإجتماع وحين طرحت مفاهيم التفسير الاقتصادي والتفسير الجنسي للتاريخ وبرز أكبر عملين:

ماركس: الذي يقول: إن تاريخ العالم هو تاريخ البحث عن الطعام.

فرويد: الذي يقول: إن الغرائز هي التي تحكم الانسان والروح لا وجود لها.

وجاءت بروتوكولات صهيون لتؤكد هذا الاتجاه وتفسيره حين قالت:

لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر (غير اليهودي) واضح لنا بكل تأكيد».

والواقع أن الدين الذي دخل المعركة ليس دين الله ولكنه تفسيرات بولس وإن صراع العقل مع الدين هو صراع الفكر البشري مع تفسيرات الكنيسة وإن دوافع هذا الصراع كله هي السيطرة الصهيونية التلمودية على المجتمع والفكر الأوربيين الغربيين مقدمة للسيطرة على البشرية كلها.

الفصل الثاني

فساد المجتمع الغربي

إذا كان الفكر الغربي قد اضطربت طريقه فلا بد ان يكون من نتيجة ذلك فساد المجتمع الغربي نفسه. لقد وجد الغرب في التفسيرات التي ألقيت إليه عن العقيدة ما لا يرضي النفس المتطلعة إلى الاقتناع والإيمان وجاءت نهضة العلم فوقفت أمام كثير من المسلمات لتنظر إليها نظرة العقل فلم تجدها مرضية للنفس أو موائمة للفطرة فكان عليها أن تضطرب بين وثنية الأغريق، وتلمودية اليهود، وإباحية المجوسية وغيرها من آثار الفكر البشري المضطرب، وكان الإسلام قد جاء ليعطيها المفهوم الأصيل والطريق الناصع، ولكنها قبلت الفكر التجريبي الاسلامي ورفضت مفاهيم العقيدة في النفس والأخلاق والمجتمع، فضلت طريقها ولم يحقق لها التقدم العلمي ما كانت تتطلع إليه من سلامة المجتمع أو الأمن النفسي.

ثم جاءت لتحاصر عالم الاسلام وتحتويه، بعد أن سيطرت عليه إقتصاديا وعسكريا وسياسيا، وحمت معها كل هذه النظريات والأيدلوجيات لتضرب به هذه القوة المؤمنة بالله التي تعيش عقيدتها ومنهجها رغبة في إحتوائها ومحاصرتها وتذويبها في آتون الأممية والعالمية بحيث تقضي على مقدراتها وقيمها جميعا.

وكان على المسلمين والعرب إن يعلموا إن الحضارة الغربية التي بدأت بالتجريب الاسلامي قد انتهت اليوم بشيء من التوتر والتمزق والعنف والإباحية التلمودية، ما يهدد بسقوط الحضارة ويضع المجتمع الغربي كله في نفس الوضع الذي عرفه من قبل مجتمع الحضارة الرومانية في إبان عظمتها مقدمة لاندحارها وتحطمها وإنهيارها.

وحق أن يقول كريسي موريسون رئيس أكاديمية نيويورك للعلوم:

لسوف تنتهي هذه الحضارة بدون العقيدة والدين، ولسوف يتحول النظام إلى فوضى وسوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتماسك وسوف يتفشى الشر في كل مكان، إن الحاجة ملحة أن نقوى صلتنا وعلاقتنا بالله.

وما يقوله كريسي موريسون اليوم قاله منذ بضعة وثلاثين عاما (بيتان) رئيس جمهورية فرنسا في بيانه الذي خاطب به الأمة الفرنسية موضحا أسباب هزيمتها في الحرب العالمية الثانية حين قال: لقد أتت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية وإني أدعوكم قبل كل شيء أن تهتموا بأخلاقكم (٥ يوليو عام ١٩٤٠).

ويتساءل الكس كاريل: هل يستطيع العلم أن ينقذ الحضارة؟

ويجيب فيقول: إن معارفنا العلمية في الزمن الحاضر غير وافية فنحن نعرف كثيرا عن الحياة ولكن لا نعرف كثيرا عن أنفسنا. عاجزون عن الملاءمة بين نفوسنا وبين هذا العالم الميكانيكي الذي خلقناه. والباعث على ذلك خطأ قديم عندما فرقوا بين الكم والنوع وعني بالاول فارتقى العلم المبني عليه وكان انتصاره باهرا، لقد حصروا همهم في الكم وأهملوا الكيف. فحماستهم في سبيل الوزن والقياس حولت الإنسان الى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء وكان خطأ جاليليو في التفرقة بين خواص الكم وخواص الكيف. وخطأ ديكارت في الفصل بين الأشياء المادية والأشياء الروحية والاهتمام بالجسم دون العقل هذا الخطأ حول الحضارة الى الطريق التي أفضت الى انتصار العلم وانحطاط الإنسان وأن منقذي العالم يجب أن يتوفروا على دراسة الإنسان من ناحية الكم والنوع معا وعليهم دراسة العقل الانساني وهو المجهول العظيم. إن تقدم العلم فيما يتعلق بالغذاء والصحة وشفاء الأمراض قد تم على حساب النمو العقلي والعقل لا ينحصر في أساليب التفكر بل يمتد إلى الدين والتصوف والجمال والروحانية» ولقد صدرت في أوربا وأمريكا في السنوات الأخيرة مئات الكتب أو عشرات الألوف وكلها تتحدث عن السر والخفاء والسحر والقوى الهائلة التي تحرك الانسان دون أن يكون له سلطان عليها إلا اذا عرف سرها

يقول الكاتب: إن هناك مشكلات كبرى تحطم وتمزق الضمير والوعي في أوربا وأمريكا. إن هذه الشعوب تتمزق وإن الحياة قاسية ولا مفر من الاستمرار فيها وهناك من يهرب منها، ومن بين أشكال الهرب: الإدمان والإسراف في الأكل والشرب والجنس والجريمة وإن الإنسان في أوربا وأمريكا رغم كل هذا التقدم العلمي لا يزال حائراً أوان يجد العلم قاضياً على راحته وعن إسعاده ورغم مئات الملايين وألوف الملايين في كل مكان فإن إنسان يشعر انه وحده وإن وحدته تتأكد كلما وجد الناس من حوله. إن الإنسان الحديث عنده إحساس أنه ليس مالكا لنفسه، وأنه مسلوب الإرادة، إن قوة أخرى تتحكم فيه وأن هذه القوة قد أوجدته».

وهكذا يضطرب الانسان الغربي لأنه فقد الدين الذي كان يملكه وعجز عن أن يصل الى الحق لأنه لا يستطيع أن يتجاوز عقبة الهوى والشهوات والمطامع، (فلا اقتحم العقبة) إلى الحق الواضح في الاسلام.

ومع ذلك فهو يريد أن يحتوي الإسلام وأهله وأن يفسد هذا الدين الحق بالشبهات التي ما زال يثيرها لا يتوقف حتى يضع المسلمين في مناطق الأممية والعالمية والعلمانية التي سقط في هوتها وعجز عن إخراج نفسه منها. وهو يدعي أنه يستطيع أن يعطي، وماذا يعطي، هذه التكنولوجيا التي كان للمسلمين فضل بناء أساسها وقواعدها، وهي ملك للعالم كله، أما أسلوب العيش الذي يرضاه لنفسه، وهذه المفاهيم المادية الوثنية العبودية التي يحرك بها الحياة والمجتمع والحضارة فإن الإسلام يرفضها

إن العالم الغربي الذي فقد دينه وعجز عن معرفة الدين الحق، يواجه ضربات عنيفة عاصفة تهزه من أعماق كيانه، يقول الأستاذ إيفان حزرول عضو المجتمع العلمي السوفيتي في صرخة إنذار: إن الإنهيارات العصبية لم تزل تتزايد في العالم والدماغ البشري سائر نحو التعطل التام، ومعظم العلماء ينسبون الى الحياة العصرية أسباب الاضطرابات النفسية فإذا كانت هذه الحياة في ضجيجها ودخانها وتكوينها لا تسبب الجنون فإنما تهيء الانسان العصري للجنون. ويقول الدكتور الفرنسي لاروش: إن الشر الأكبر في مجتمعنا الحالي ليس هو الضجة بحد ذاتها ولا التلويث الصناعي بل إنما هو

انكسار التوازن بين افراد المجتمع، لقد كسر المجتمع الحالي أشكال التوازن القديم وأصبح يتطلب من الناس مزيداً من المعارف ومجهوداً متواصلا للانسجام مع المقتضيات الجديدة كما أنه عزل الفرد عن أسرته وعن قريته الأصلية وحصره في بيت صغير المساحة ولم يحمه من المتناقضات المستعصية على ذهنه، هذه المظاهر الجنونية مرض عصبي، وأن العوامل الاجتماعية المختلفة تزيد هذا المرض خطورة وتهيء الظروف المناسبة لظهور الاضطرابات العصبية واختلال التوازن».

أما علامات المجتمع الغربي فليست في حاجة إلى كبير بيان:

(١) الانتحار وباء بين شباب أمريكا: صرح ريتشارد سيرين أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا بأن انتحار الشباب الأمريكي يتزايد بصورة وبائية وأن السبب يرجع الى تعاطي المخدرات.

(٢) في تقرير للأمم المتحدة عن أخطار مدمني المخدرات وجد أن عددهم يصل الى الألف مليون نسمة (ربع سكان الأرض) بحثا عن السعادة المزعومة، وأن أشد المخدرات فتكا هي التي ظهرت بفضل تقدم العلوم والتكنولوجيا وأهمها حبوب الهلوسة.

(٣) ٣٠ مليون حالة إجهاض في العالم كل سنة (٤٠ في المائة اقتصادية) و٣٦ في المائة نفسية. وأن انجلترا سمحت بعمليات الإجهاض مما جعل أكثر نساء الغرب يسافرن الى بريطانيا ودعت مجلة نوفيل أوبسرفاتور الفرنسية الى السماح بالاجهاض في فرنسا ونشرت بكل جرأة اعترافات سيدات شهيرات مارسن الإجهاض. وتقول الصحف أن ٣٠ في المائة كل سنة يتم إجهاضهن بما يعادل ربع المولودين.

(٤) أفردت الصحف الغربية بحوثا مستفيضة عن تجارة الجنس وعن أرباحها، وتحدثت نيوزويك عن الأفلام السينمائية والخلاعية والكتب والسجلات المصورة وصالونات التمسيد والملاهي الليلية فضلا عن البغاء التقليدي وقالت أن أرباح هذه التجارة تبلغ ملياري دولار في السنة، وأن مدينة نيويورك أصبحت عاصمة هذه التجارة الرابحة ففي مدة سنتين انتقل

عدد صالونات التمسيد من أربعة الى ستة وأربعين علما أن هذه التسمية ليست سوى (تورية) للدعارة ومحايلة على القانون وأن ثمن عناية ثلاث ممسدات تبلغ مائة دولار وبعض صالونات التمسيد تستقبل كل يوم مائة رجل ولا تعطل في نهاية الأسبوع.

وأشارت الى أفلام الخطيئة الخلاعية. وإن فلم ديث ثروت «الحنجرة» العميقة در على اصحابه ٣ ملايين دولار ولم يتكلف أكثر من ٢٥ ألف دولار.

(٥) لندن ٢٣ - ى. ب. (الأهرام ٢٤ مايو ١٩٧٣) إن عمليات الإجهاض المشروعة للفتيات اللاتي تقل أعمارهن عن خمسة عشر سنة قد ارتفعت في بريطانيا بنسبة الثلث في العام الماضي وبلغ عدد حالات من الإجهاض من بين هذه الأعمار الى ٢٢٩٦ بزيادة ٦٥٤ عنها عام ١٩٧٠ وكشف التقرير الذي أصدرته إدارة الإحصاء البريطانية أن بين هذه الحالات ٣ فتيات لا تزيد اعمارهن عن (١١ سنة) وأن ثمان من الفتيات اقل من سن ١٥ سبق لهن الإنجاب.

(٦) أشارت الصحف الى تسريح ٣٧٠٠٠ خبير نووي بسبب الأدمان من خبران التسلح النووي لأسباب تتعلق بإدمان الحكول والمخدرات لانهم كانوا يتعرضون بسبب تصرفاتهم غير الطبيعية الى الانذار.

(٧) صدرت مجلة جديدة في أمريكا اسمها (بلاي جيرل) وصاحبتها سيدة جميلة اسمها (توني هولت) المجلة مخصصة للنساء فقط فهي تنشر صور الشبان وهم عرايا تماما وتكتب المقالات والدراسات حول تصرفات الرجل وميوله واتجاهه وكيفية الايقاع والاحتفاظ به تحت قبضة المرأة. صدرت هذه المجلة لترد على مجلة (بلاي بوي) الشهيرة بنشر صور أجمل نساء الدنيا.

(٨) مسرح أوبرا كوبنهاجن عاصمة الدانمارك عرض باليه (أشعار الموت المأخوذ من قصة (بوجين أونسكو) وتدور حول أطماع الانسان ونزعته الى الدمار - ٢٢٠ راقصا وراقصة يقفون عريا تماما لا تستر أجسادهم حتى ولا ورقة التوت.

(٩) دراسة أجرتها جامعة جونز هويكتر في بلتيمور حول الجنس والزواج

بالنسبة للفتيات الأمريكيات أقل من عشرين سنة (مابين ١٩,٥ أجريت على ٤٦٠٠ فتاة ينطبق عليهن هذا الشرط. تبين أن ٣٠ في المائة من الفتيات دون العشرين قد مارسن الجنس بدون زواج وأن ثلث هذا العدد قد أدت ممارستهن للجنس الى الحمل غير المشروع.

(١٠) وأشارت الصحف الى تصريح الدكتور روما فولد الذي فيه أنه يوجد ٤ ملايين مرضى بالزهري في العالم كل عام وأن أغلب هؤلاء في أوساط الشباب وأن للأمراض الزهرية خطا بيانيا متصاعداً منذ الخمسينات وأثناء الخمس سنوات الأخيرة، أرتفع معدل الاصابة بالأمراض الزهريةالى ٢٠٠ في المائة من الرجال وخمسمائة عند النساء ويتراوح السن بين ١٨، و ٢٤ سنة (١٩٧٥).

(١١) ٨٥٪ من طلبة الجامعة في أمريكا يتعاطون الماريجونا، ٤٠ ألف شخص دون سن ٤٥ سنة يعانون من النوبات القلبية يتوفى منهم ١٥ ألف.

(١٢) سرطان الصدر خطر يهدد المرأة: هذا ما أعلنته صحف الغرب فقالت أن ٢٥٠ ألف امرأة تموت سنويا بسبب سرطان الصدر، وأن العدد يرتفع في أوربا الغربية وأمريكا. وأن امرأة تموت بسبب سرطان الصدر من بين كل ٢٥ امرأة تفارق الحياة بسبب أو بآخر.

ويقول أحد الباحثين: لقد كانوا قديماً يقيمون المذابح ليحرقوا عليها أجساد البشر إرضاء للآلهة ولكنهم الآن يضحون بالملايين على مذابح آلهة الوثنية الحديثة. آلهة الربح الفاتك وصنم الخمر الأعظم، وكاهن الرذيلة البشع وشيطان السرعة المخيف، إن العلم يقدم إمكانيات هائلة للتقدم البشري ولكن أين هذا: إلى الحروب الجهنمية الحديثة، ومعسكرات الاعتقال والإبادة والغازات السامة والنابالم.

وهذا الذي يقاسيه المجتمع الغربي يرجع الى إنحرافه الفكري. وقد جاء الإسلام ليقدم له الهدى فردَّه، وقسا فحمل على الاسلام وعالمه وحاول تذويبه في أتون الإباحية والإلحاد والفساد والوثنية التي يعيش فيها، ولليهودية التلمودية في هذا التحول الخطير الذي يسير فيه المجتمع الغربي أثر كبير

وواضح فهي وراء كل هذه المحاولات لتدمير المجتمعات البشرية، إنها من وراء دائرة المعارف التي تصدر في مختلف اللغات الأوربية وتحوي ٣ آلاف مليون كلمة لشرح الجنس والهيبز وعقارات الهلوسة، وهذه الدائرة مقصود بها تدمير الشباب والأطفال ولذلك فقد قصرت عليها وتقع في ٢٠ مجلد ويحتوي على ٦٥٦٥ صفحة والتي قام بها ٧٥٠ مؤلفاً وخبيراً متخصصا في مختلف المجالات.

والقصد هو احتواء الأطفال قبل ان يكونوا شبابا ببعث هذا لمعلومات الجنسية الكاشفة والفاسدة الاطفال، وتوجيههم إلى الإباحيات.

تحت اسم الحب والمخدرات وعقار الهلوسة، والى جوار الكتب نجد الأفلام: القائمة على الجنس والجريمة معا وقد بلغت الى درجة عالية من الفساد والانحلال.

ويشير الأطباء الى أن انتشار الأمراض الزهرية في العالم وخاصة في أوساط الشباب والتي تبلغ ثلاثة ملايين اصابة في كل عام لا تعود الى فقدان الوسائل الطيبة والوقائية بقدر ما تكمن في التدهور الأخلاقي والإنحلال الذي تشهده المجتمعات الغربية.

فإذا اتجهنا الى مجال العلم والتكنولوجيا وجدنا أخباراً مذهلة للانحراف العلمي، في مقدمة هذا تلك الاختراعات الحديثة وأهمها «الغاز العصبي» الذي وصف بانه أخطر من القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية، وكذلك اختراع ما سمي بأشعة الموت باستخدام أشعة الليذر، وهو من القوة بحيث يستطيع أن يدمر أي صواريخ معادية على ارتفاع ١١٢ كيلومترا كما تستطيع تدمير الصواريخ والدبابات البعيدة المدى.

وهكذا يصل العلم الى اقصى مراحل تدمير البشرية.

كذلك في مجال البيولوجيا: علت صيحة بعض الذين لم تجرفهم المادية الى التحذير من الأخطار التي ينجرف إليها علماء الأجنة. يقول اللورد ريتشي كالدار أشهر خبراء علم الأجنة أن هؤلاء العلماء يجرون في تطوير أبحاث إنتاج الانسان المختبري على النحو الذي يفسد الجنس البشري ويزج بالعالم في آتون عصر أسوأ من عصر المخاوف الذرية، إن هذه الطريقة التي ترمي الى زراعة

شريحة من جلد إنسان في أنبوب سوف تؤدي إلى إمكانية إنتاج عدد لا يحصى من الأشخاص الصناعيين الذين يتشابهون في كل شيء أكثر مما تتشابه التوائم وهم بذلك أشبه بعرائس المصنع أو الانسان الآلي وسوف تجمع بينهم القدرة على قراءة افكار بعضهم البعض، بهذا يكون انتاجهم بداية لوفاة خاصية التفرد الذاتي وهذا مجرد تصور لكارثة تحيق بالبشرية ».

وهكذا نجد العلم في يد الغرب يخرج عن رسالته وهدفه من حيث يكون « مدمراً للإنسان » خمراً وماريجوانا ومخدراً، و « مدمراً » للبشرية من حيث هو ذرة وقنابل وأشعة الموت والغاز العصبي ومدمراً للإنسانية من حيث هو إفساد للجنس البشري نفسه.

ولا ريب أن تحليل هذه الإحصائيات والأخبار يؤدي إلى حقيقة هامة:

هي نجاح النظريات والايدلوجيات التي طرحها ماركس وفرويد وسارتر ودور كايم (هؤلاء اليهود) في هزيمة المجتمع الغربي وتدميره وذهابه الى أقصى غايات الانحراف والتمزق ووصول العلم الى درجة اللعب بالنار الخطر الذي يهدد البشرية كلها بالتدمير.

وهذه هي أزمة الغرب الساحقة التي تضع النهاية له، ولكنه ما زال يقاتل وهو في لحظاته الأخيرة حتى يحول دون أن يصل الاسلام الى قلوب أهل الغرب فأزمة الغرب الآن هي أزمة عقيدة وإيمان ودين ونفس، فقد خرج من مفهوم المسيحية المنحرف الى مفهوم اليهودية الضال فطابع التلمودية واضح الآن في مختلف مناهج ومفاهيم النفس والاجتاع والأخلاق حيث تسيطر النظرية المادية والفكر التلمودي والآلي والإباحة والوثنية.

ولقد كان الفكر الغربي وما زال يقوم على الاستعلاء العنصري والكبرياء الكاذب الذي يدعي أن فكره هو فكر العالم وأن تاريخه هو تاريخ العالم وأن رأيه هو الرأي الذي تخضع له البشرية. وأنه صاحب الدم الأبيض الذي لا يهزم وهكذا يطغى المفهوم المادي (الإقتصادي الجنسي) على تفسير الحياة الواقعة وتفسير التاريخ.

ولقد اصبحت مفاهيم التلمودية الصهيونية مصاغة في نظريات ومذاهب

وأيدلوجيات ومفروضة على العالم الممزق بين الديمقراطية الغربية والماركسية الشيوعية وقوامها النظرة المادية في الفكر والتفسير المادي في الاقتصاد ومعابر وصلات تحاول أن تخضع الرأسمالية الغربية الليبرالية الماركسية الشيوعية حتى يسلم العالم كله للصهيونية التلمودية.

وقد تجددت مفاهيم الغابة والعبودية القديمة التي عرفها الرومان والقياصرة والأكاسرة والفراعنة غير أن الحضارة الغربية الحديثة لم تعد تملك إمكان حل أزمتها الخانقة، بعد أن عقمت التربة وفسد الهواء، فهي تقفز من حل الى حل ومن منهج الى منهج محاولة الخروج من الأزمة دون جدوى منذ ان تركت الدين حين عجز في ظل تفسيرات الكهنة عن العطاء للنفس والروح وحالت القوى والأساطير التلمودية بين الغرب وبين أن تأخذ مفهوم الإسلام وحصرته في مناهج التلمود فإذا انفلت منها نقلته الى البوذية والغنوصية والسحر.

ولم يكن هو الدين «ولكن تفسيرات الدين» ثم فشلت الفردية لانها استقلت وضلت وفشلت الجماعية لأنها سحقت الإنسان، وفشلت القومية لأنها كانت عدوانية لمن جاورها، وفشلت العالمية لأنها عجزت عن الإخاء الإنساني وكان الخطأ في غياب الأساس الثابت: والمنطلق الأصيل، كلمة الله الواحدة التي تربط جميع الخيوط وتقيم العلائق بين الكون والحياة والإنسان والمجتمع والدنيا والآخرة، الى اين يتحرك التطور والى أي مدى؟ أين وجهة الحضارة والى أي مدى؟ أين غاية العلم وما هي رسالته؟ لا بد من وجود الأساس الثابت حيث تبدأ منه الحركة وعنده تنتهي: نقطة البداية والنهاية بعد الحركة بعد الحركة الواسعة يجب أن تعود إلى أصل ليس من عند الإنسان وليس من صنعه.

وهذا أمر لا يعطيه إلا الدين الحق:

إن الغرب الذي احتوته التلمودية قد حاول أن يقول بأن الدين مرحلة في حياة الأمم وأن الأمم قد تجاوزت هذه المرحلة وأن الدور الذي احتاجت فيه البشرية الى الدين قد انتهى وأن البشرية أصبحت راشدة بالعلم وليست في حاجة الى وصاية الدين وهذا هو «الخطر» الذي أوقع الغرب في أزمة الحضارة والإنسان وليس هذا القول مفهوما صحيحا والاسلام لا يرى هذا الرأي وإنما كان

هذا هو رأي الغرب في دينه أو في التفسيرات التي حملت إليها عن حقيقة الدين، والواقع أن الدين ليس مرحلة فحسب في حياة الأمم ولا في حياة البشرية ولكنه عنصر أصيل وكيان عضوي في تركيب الإنسان-عقله وروحه وحياته-لا سبيل الى إنفصاله عنه أو انتزاعه منه، لذلك فإن الدين لم يمت ولن يموت وأن الفكر الغربي حين حاول ان يتجاهل الدين (بمعناه الحق) ويتجاوزه فإنه يواجه الآن أخطر أزماته.

وإن أوربا في هذا الصدد لا تفيد البشرية بل تسيء إليها ونحن نرى أوربا بعد ان تركت الدين ما زالت تضطرب ذات اليمين أو ذات الشمال دون أن تصل الى شيء.

ومن ثم فإن الغرب يأفل الآن ويسقط ولا سبيل له الى حياة إلا إذا عرف الاسلام طريقه في الحياة.

الباب السابع

الاسلام في دورة الفلك



الفصل الأول

ألف مليون مسلم

لا ريب أن الإسلام يتألق الآن في دورة الفلك وإن علامات كثيرة تكشف هذا الدور الخطير الذي يتحرك إليه في المجال العالمي والبشري والإنساني وتتمثل هذه العلامات في عدة حقائق هامة:

أبرزها أن عدد المسلمين يصل الآن إلى ألف مليون مسلم وأن الإسلام يعود إلى أوربا مرة أخرى في قوة، وثالثها أن أمتلاك المسلمين للطاقة والثروة والتكنولوجيا من شأنه أن يركز بناء هذا المجتمع الجديد أما آخر هذه العلامات فهي التفوق البشري.

وتقف القوى المعادية للاسلام (الاستعمار والصهيونية والشيوعية) في وجه هذا التقدم الظاهر وتحاول هدمه أو تمزيقه أو إجهاضه أو إحتوائه.

وترى المحاولات التي ترسمها مخططات الغزو الثقافي والتغريب بالاشتراك مع القوى الثلاث: الاستعمار والصهيونية والمذاهب الهدامة جاهدة في عصر ما بعد التضامن الاسلامي والعاشر من شهر رمضان على ضرب النفس الإسلامية العربية في صميمها عن طريق:

(أولا) إثارة روح اليأس والقلق والتشكيك في قوة المسلمين ومكانتهم وتاريخهم ودورهم المرتقب في أداء رسالة السلام والإيمان.

ثانيا) التهوين من شأن مقدراتهم الحقيقية وترابطهم وانتصاراتهم والخط الجديد الذي يسيرون فيه في مواجهة الاستعمار والصهيونية.

(ثالثا)زعزعة الثقة في ذاتيتهم الخاصة وشخصيتهم المفردة التي بناها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا والتي ظلت صامدة وقادرة عل مقاومة الغزاة دون أن تنمحي أو تنهار.

هذه هي الاهداف الجديدة المضافة الى الأهداف القديمة التقليدية التي ترمي الى انتقاص الشريعة الاسلامية وتاريخ الاسلام وحياة الرسول والقرآن، وهي تجارة الاستشراق والتبشير المتجددة التي لا تتوقف.

ولعل أكبر ما يثير الاستعمار والصهيونية والمذاهب المادية اليوم هو ذلك النمو المتزايد للقوة البشرية الاسلامية، التي تجري محاربتها بالدعوة الى تحديد النسل، او عقد المؤتمرات لتخويف المسلمين من هذا «الانفجار» السكاني الذي يحدث في عالم الاسلام بينمايواجهه في عالم الغرب نقص مخيف وتقلص متزايد.

ومصدر الخوف هو أن تقل الحصيلة التي تصدر من أراضي المسلمين الى الغرب عندما ينمو عدد المسلمين أنفسهم أصحاب الثروة الحقيقية. أن الغرض من هذه الصيحات هو أن يظل المسلمون قلة وأن يظلوا فقراء، وأن تبقى ثروات المنجنيز والنحاس واليورانيوم والكوبالت وغيرها من الثروات التي تنقل من قلب افريقيا يوميا الى الغرب والتي وصفها أحد الزعماء المسلمين الأندونيسين يوما حين قال: إن ما نهب من أندونيسيا يمكن تصوره بأنه يمثل جسرا من الذهب الخالص يصل ما بين اندونيسيا وهولنده!

واليوم تكشف الاحصائيات عن زيادة في عدد المسلمين، تستشرق الألف مليون ولكن الاحصائيات التي تنشر والتي تصل دائما من دوائر الغرب والتي تقوم أساسا على فكرة مسبقة بانتقاص، أعداد المسلمين هذه الاحصائيات تصر على أن المسلمين لا يزيدون عن ٧٠٠ ميلون.

وتقول التقديرات أن سكان العالم وصلوا عام ١٩٧١ الى ٣٧٩٦ مليون نسمة بزيادة قدرها ٧٤ مليون نسمة في العام الواحد (الكتاب السنوي للأمم المتحدة) هذا الرقم يمثل معدل زيادة سنوية تقدر بنسبة ٢٪، لو استمرت بهذا المعدل فسيتضاعف سكان العالم عام ٢٠٠٠ على ما هو عليه الآن، فيصبح ٧٤١٤ مليون نسمة.

ويقول التقرير أن شخصا من كل شخصين في العالم: هو آسيوي، وأن ٢١١٤ مليون شخص يسكنون القارة الآسيوية وأن الآسيويين يمثلون ٥٦,٧ في المائة من مجموع سكان العالم. كما يسكن أفريقيا ٣٥٤ مليون شخص أي ٩,٥ في

المائة من المجموع الكلي لسكان العالم.

أما أمريكا الشمالية ففيها ٣٢٧ مليون شخص أي ٨,٨.

أما أمريكا الجنوبية فيسكن فيها ١٩٥ مليون شخص أي ٥,٣٪.

وفي أوربا يسكن ٤٦٦ مليون شخص أي ١٢,٦٪.

وفي الاتحاد السوفياتي ٢٤٥ مليون شخص أي ٦,٦٪.

وأقل نسبة في العالم من السكان ١٢,٨ مولود لكل ألف شخص(أوربا والغرب).

وأعلى نسبة في العالم من السكان ٢٥,٣ مولود لكل ألف شخص (آسيا وافريقيا) اهـ.

أما أفريقيا فإنها قارة الإسلام في القرن الخامس عشر الهجري [الذي يبدأ بعد خمس سنوات] ويمثل بالنسبة للإسلام مرحلة جديدة غاية في القوة والتوسع ولا ريب أن النمو الاسلامي يواجهه ويظاهره نمو في الثروة الاسلامية التي تتكشف في كل يوم وفي كل بلد والتي هي ملك المسلمين وعتاد لهم في مظاهر حريتهم واتجاههم الواضح الى بناء قوتهم المادية الآن في وجه التحديات الاستعمارية والصهيونية والشيوعية الزاحفة وتدل أحدث الاحصائيات عن تعداد المسلمين أنهم موزعون على ١٩٢ بلداً في العالم منها ٧١ بلداً يمثل المسلمون فيه اكثر من ٥٠ في المائة بالنسبة لعدد السكان ١٧ بلداً يشكل المسلمون فيها مائة في المائة، ٢٢ بلداً تبلغ نسبتهم ٩٠ في المائة ١١بلداً تبلغ نسبتهم ٨٠ في المائة و٣ بلدان يمثلون ٧٠ في المائة و٦ بلدان نسبتهم ٦٠ في المائة و١٢ بلدا يمثلون ٥٠ في المائة و٣ بلدان نسبتهم ٤٠ في المائة و١١ بلدا يمثلون ٣٠ في المائة و٢٠ بلداً نسبتهم ١٠ في المائة فما فوق و١٦ بلداً نسبتهم ١٠ في المائة.

وهكذا نجد أن الاسلام قد زحف زحفا سلميا الى مختلف اجزاء العالم بقاراته الخمس واتخذ لنفسه فيها مقاما، وأن أوربا التي قاومت الاسلام أكثر من ألف عام حين طاردته من الأندلس أكثر من مائة عام حتى اجلت آخر المسلمين عنها ثم طاردته من البلقان خمسين سنة قد عادت اليوم مرغمة الى قبول جاليات اسلامية كبيرة في انجلترا وفرنسا وايطاليا وألمانيا تمثل (وجودا) واضحا

(وحضورا) متميزا للمسلمين بمعاهدهم ومساجدهم وكيانهم الذاتي- وفي أمريكا تجد صورة رائعة حين يقول الدكتور محمد عبد الرؤوف أنه لا تطلع الشمس في نيويورك يوما إلا على مسلم جديد ويكون المسلمون السود بها جالية ضخمة.

وبالرغم من كل أسباب الاضطهاد والتضييق التي يواجهها المسلمون في الغرب فإنهم ثابتون يستمدون قوتهم من إيمانهم.

وفي العالم الاسلامي تحارب الأقليات الاسلامية وتضرب بعنف وخاصة في الفيلبين وأريتريا والصومال. ولكن القوى الاسلامية ما تزال تنمو وتتعزز ويكشف الاسلام دوما عن حبه للسلام وخير الانسانية وأنه لا يريد إلا الأخاء البشري الصحيح وان الدراسة الصحيحة لأحوال المسلمين تكشف حقيقة واضحة جدا هي:

أنه منذ ظهر الاسلام وامتد الى الآفاق فإنه بدأ يقتحم أوربا من ثلاث جبهات، من الجبهة البيزنطية وجبهة الأندلس، وجبهة صقلية، ثم زحف الى الأمريكيتين ومنذ وصل الى هنالك فقد استقر ومازال ينمو وتعداد المسلمين اليوم إنما يمثل حقيقة واضحة هي أن المسلمين الآن أكبر عددا من الكاثوليك ومن أهل الصين. وأن أرض المسلمين ما تزال تتميز بالتفوق البشري بالاضافة الى الطاقة والثروة ومصادر الانتاج وما يزال العالم الاسلامي مؤثرا أقوى الأثر في موازين القوى السياسية والتجارة والاستراتيجية العالمية، وفي الاقتصاد العالمي وسيظل.

ومن شأن عالم الاسلام اليوم أن يمتلك قوته الذاتية وإرادته الحقة، لأنه مؤهل لرسالة بنشرها في العالمين. ويقدم لكل شعوب الأرض منهجا صحيحا سليما لبناء المجتمع الإنساني بعد ان فشلت وعجزت عن تحقيق ذلك كل المناهج والأيدلوجيات.

الفصل الثاني

عودة الاسلام الى أوربا

أقفلت أوربا أبوابها مرتين أمام الاسلام: في بوغاز جبل طارق وفي الدردنيل وقاومت الاسلام في الاندلس (شبه جزيرة ايبريا) وفي البلقان. ولقد أصر الغرب على أن يرفض مزاحمة الإسلام في أوربا ووضع تلك القاعدة التي ظلت طويلا سائدة وهي: أن على المسلمين أن ينتهوا من أوربا بالهجرة أو بالتنصير من كلا طرفيها.

ولكنا ننظر الآن ان الاحصائيات تذكر ان في أوربا وحدها خمسة وعشرون مليونا من المسلمين . وأن الإسلام يزحف على أوربا كما زحف على الغرب كله في قوة.

يقول الدكتور خورشيد أحمد: جاء الاندفاع الاسلامي الاول من الجنوب غير ان هذه الموجات تراجعت بعد ان وصلت الى حدود المانيا وحدود فرنسا، أما اسبانيا فظلت جزيرة إسلامية متألقة في أوربا على مدى ستة قرون، وكان لها أثر في بقية أجزاء القارة الاوربية غير ان هذا الأثر ظل جزئيا وغير مباشر، ثم جاء عصر الحملات الصليبية التي قامت على اساس من الجهل والتعصب وتشويه الحقائق وأسفرت عن سفك الدماء والعداء. ثم نمت بذور عدم الثقة وتحولت الى غابة من الاشواك ، ومنذ ذلك الحين ظل العالم الاسلامي وعالم النصرانية متباعدين، وما تزال الظلال المشئومة تخيم فوق الرؤوس.

ومع ذلك ظلت الاتصالات الفردية وآثار الاسلام الثقافية تنتشر.

وقد وصلت رسالة الإسلام الى شعوب أوربا الشرقية عن طريق التجار المسلمين بل عن طريق الذين وقعوا في الأسر إبان الحروب الصليبية وكان دخول الاسلام اول مرة في اوربا الشرقية نتيجة لعمل قاض مسلم وقع في الأسر

وأخذ الى بلاد البشناق (بين الدانوب الأسفل والدون) في بداية القرن الحادي عشر ولم ينته ذلك القرن إلا وكان شعب البشناق كله قد اعتنق الاسلام.

ولقد ساد الاثر الفكري الاسلامي الفترة كلها وما يزال محسوساً حتى الأزمة الحديثة، ولكن هذا الأثر لم يتمكن من إزالة التعصب ضد الاسلام كما لم يمكن من تمهيد الطريق لتفهم أفضل لرسالة النبي، وتبدأ المرحلة الثالثة مع امتداد الامبراطورية العثمانية وبسط سلطانها على اجزاء من شرق أوربا ولكن هذا المد أخذ ينحسر ابتداء من القرن ١٩ حين بدأت حملة جديدة ضد العثمانية في تلك الفترة كان العمل التبشيري النصراني قد رسخت أقدامه في بقية أنحاء العالم.

وكانت الدول الغربية تتخذ لنفسها مستعمرات في البلاد الاسلامية وكذلك أعدت دراسات نصرانية في مواجهة الاسلام والنيل منه فكانت عاملا كبيرا في خلق تعصبات جديدة ونشر غشاوة من المعلومات الخاطئة عن الاسلام ولعب نحو الدراسات الاستشراقية دوره في هذه الإساءة الفكرية والثقافية وتدهورت العلاقات بين الإسلام والدول الأوروبية.

أما المرحلة الحالية في العلاقات مع الدول الاروبيـة فقد بدأت مع انحسار الاستعمار وظهور حوالي أربعين دولة إسلامية مستقلة.

وعاشت جماعات من المسلمين في أوربا ٣ أو ٤ في المائة من مجموع السكان الأصلي. كانوا يشكلون قبل الحرب العالمية الثانية ٦٦ في المائة من سكان البانيا ١٥٪ من مواطني يوغسلافيا ٢٤٪ من سكان قبرص ١١٪ في مالطة.

ثم جاءت موجات كثيرة من الهجرة الى إيطاليا وفرنسا وهولنده والمملكة المتحدة كان أغلبها من البلاد التي استعمرتها هذه الدول في الماضي ونالت المانيا نصيبا من العمال الضيوف الذين جاءوها من تركيا ونجم عن هذه الهجرة جاليات إسلامية كبيرة في عدد من الدول الاوربية كذلك فقد وفد الى أوربا عدد ضخم من الطلاب.

وتدل التقديرات أن عدد المسلمين حاليا في أوربـا يبلغ حوالي ٢٥ مليونا منهم نحو خمسة ملاين من الدول الاوربية، غير الشيوعية والباقي في أوربا الشيوعية بما في ذلك المناطق الاوربية في روسيا هذه التقديرات مبنية على

دراسة (الاديان الحية في العالم: كراتشي).

وهناك بيان يرد المسلمين الى ٢٣,٧ مليونا بما في ذلك روسيا بينما يبلغ عدد المسلمين في روسيا الآسيوية وحدها بين ٣٠ و ٣٦ مليونا.

وفي الدول غير الشيوعية يظهر أن أكثر من ٢٠٪ من عدد المسلمين يتألف من أطفال وشباب يدرسون وفق انظمة تعليمية مختلفة.

وتحليل السكان المسلمين في أوربا يبين وجود ثلاث مجموعات رئيسية:

(١) المسلمون المحليون.

(٢) جاليات إسلامية كبيرة مهاجرة تعيش في دول معينة.

(٣) عدد كبير من الطلاب المسلمين والعمال الضيوف.

ويقول التقرير: لقد حاول المسلمون في كل مكان تقريبا أن ينشئوا المساجد وانواعا من المراكز الاسلامية وكذلك فقد اتخذت بعض الترتيبات لتوفير تعليم إسلامي للأطفال المسلمين والمشكلة هي كيفية توفير الحماية والحفاظ على الشخصية العقيدية والثقافية للمسلمين الذين يتعرضون لمناخ غير ملائم لهم خلقيا وثقافيا».

وفي الولايات المتحدة تشير التقديرات: الى وجود جاليات إسلامية كبيرة من الفئات التي تنحدر من أصل لبناني وتركي وسوري وباكستاني وهندي ويوغسلافي وأنه توجد ثلاثمائة منظمة إسلامية» فضلا عن وجود ظاهرة الاسلام المتسعة دوما بين الزنوج الذين يكونون مجتمعا يبلغ تعداده ثلاثة ملايين مسلم ويقول الاستاذ محمد عبد الرؤوف مدير المركز الاسلامي في نيويورك أنه لا تطلع الشمس كل صباح إلا على مسلم جديد.

(٢)

(٢) ولقد لفتت ظاهرة عودة الاسلام الى أوربا نظر كثير من الباحثين في مقدمتهم جان بول روز الذي يقول في كتابه الاسلام في الغرب:

ولقد قضى إخراج العرب من اسبانيا عام ١٦٠٩ على وجود آخر المستعمرات الاسلامية الدائمة في أوربا الغربية وخلال ثلاثة قرون لم تر أوربا

الغربية في مدنها وقراها خصومها القدماء.

ومع فجر القرن العشرين وبسبب عوامل متعددة بدأ هؤلاء يعودون ببطء، هل هي عودة عرضية عابرة ام هي بداية موجة إسلامية جديدة؟

ويقول إن عودة الاسلام الى أوربا هي موجة جديدة لن يقدر على وقفها او الحد منها اية عقيدة او مبدأ او دين.

وقال إن وجود الاسلام في الغرب يرتدي حاليا طوابع اربعة مختلفة

(أولا) : إقامة موقتة لطلاب جاءوا يكملون دراستهم العليا في جامعات اوربا الغربية او دبلوماسييون يمثلون بلادهم لدى العواصم الأوربية . وليس للطلاب ولا الدبلوماسيون نشاط.

(ثانيا): هجرة محدودة للاجئين سياسيين.

(ثالثا): الأيدي العاملة.

(رابعا): بعض الأوربيين الذين اعتنقوا الاسلام.

وفي حوالي عام ١٩١٢ في انجلترا اعتنقت بعض عائلات انجليزية الاسلام وأسست جماعة متماسكة في «ووكنج» منطقة سواري وبعد ذلك في فرنسا والنمسا وايطاليا والمانيا «قام بعض الافراد واقتدوا بما حصل في انجلترا.

ويقال إن هذا العمل فردي وليس له اثر توسعي لا في العائلة ولا في الأبناء غير الاعتناقات الحديثة التي حصلت في المانية ما زالت قريبة منا وجامع برلين مديره مسلم الماني هو الإمام هيوهم وقد أحسن وفادتي عند زيارته عام ١٩٥٢ وكان متفائلا بشأن مستقبل الاسلام في المانيا وقال ان المسلمين يجتمعون في عدة مدن في هامبروج، ترفلين، لاندشات شوتنرنجن،

ولم تكن في أوربا الغربية أي دعوة إسلامية منظمة او أية لغة تبشيرية ثابتة بتلك التي ترسلها بلدان أوربا المسيحية الى ديار المسلمين

(١) وتقول الكاتبة الغربية فاليري:

فرفضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها لبعدها عن مدى الافهام على حين كان الاسلام عجيبا في سهولته

صريحا في فروضه وهذا كان سببا آخر في سرعة انتشاره بين الشعوب التي اضطربت اخلاقهم كل الاضطراب بما أصابها من الشك المضني لعقائدها الدينية. وكان هذا ولا يزال السبب في سرعة انتشار الاسلام المتواصل بين الأمم في آسيا وافريقيا لنفوذه الى أرواحهم دون حاجة الى التطول في شرحه والتكلف في الدعاية له. أولئك الذين يرون أن حظ الاسلام أوفر من حظ المسيحية يعترفون بان الخوارق في الدين المسيحي ترضى وتسر وتذهل الخيال ولكنها معقدة وليس في الاسلام شيء من ذلك.

الاسلام الذي يقول ان الحساب لن يكون في هذا العالم وأن السعادة هذه يجب ان تتحقق على الأرض لتكون مقدمة للسعادة الأبدية.

(٤) ويقول هوبر دنشان: صاحب كتاب الديانات في افريقيا السودانية أن دعوة الاسلام في غالب الظروف لم تقم على القسر وإنما قامت على الاقناع الذي دعا اليه دعاة متفرقون من المرابطين لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم وكثيرا ما إنتشر الاسلام بالتسرب البطيء من قوم فكان إذا ما اعتنقته الارستقراطية وهي هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة.

وقد يسر انتشار الاسلام انه دين الفطرة بطبعه سهل التناول لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه وأنه سهل التكلف والتطبيق على مختلف الظروف، ان وسائل الانتساب إليه أيسر من أي دين.

ويقول الاستاذ إبراهم بولكي (المدير العام لرابطة موريسيا) إن الاسلام سيصبح قريباً أحد أديان أوربا ويصور الدور الذي يقوم يه المسلمون الآن في أوربا بعد أن كانوا فيها جاليات ضخمة تجمعها مراكز وهيئات على مستويات مختلفة، ومن بينها المعهد الاسلامي في إنجلترا الذي سيكون له دور حاسم في مستقبل المسلمين في انجلترا وغرب أوربا. ويقول: إن المسلمين الذين استوطنوا غرب أوربا يشعرون أنهم مجموعة تختلف عن بقية المجموعات التي تسكن في هذه المنطقة، هذا الشعور مبلور في المنظمات والجمعيات المختلفة التي يكونها المسلمون لخدمة أغراض مجموعهم ولربطهم برباط كي لا تمحى ثقافتهم الاسلامية ونجد هذه الظاهرة في المملكة المتحدة وإيرلندا. كما نجد أن

للمسلمين عشرات الجمعيات كونوها لخدمة ثقافتهم الدينية .

ويقول أبرهم بولكي: إن أوربا تعرف الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا ويوجد على الدوام مسلمون في روسيا وهولندا واليونان ويوغسلافيا ودول البلقان بجانب البانيا وتركيا وهما دولتان مسلمتان ولكن المسلمين في كثير من هذه الدول يجدون معاملة قاسية. وكان الغرب على مر الدهور يريد تحطيم الاسلام ومحو الوجود الاسلامي ولكن هيهات له ذلك فدين الله لن يزول من الارض.

ومنذ ان عرفت أوربا الاسلام ناصبته العداء وعرفت ان في وجوده خطر على ثقافتها ودينها أما الآن فهي مستعدة لأن تفهم الاسلام وتتقبل وجوده بعد ان عرفت انها تعتمد في وجودها الاقتصادي على الدول الاسلامية، ان انتقال المسلمين الى أوربا جعل الاوربيين يتقبلون التعايش مع المسلمين مثال ذلك الباكستانيون في بريطانيا والأتراك في المانيا والمغاربة في فرنسا، وهذه الهجرة الى أوربا مستمرة وفي إزدياد وسيصبح الاسلام بإذن الله أحد أديان أوربا.

في بريطانيا الآن حوالي مليون مسلم وفدوا اليها في الـ ١٥ سنة الماضيةواستوطنوها وشجعهم على ذلك الديمقراطية والحرية ليكونوا جمعياتهم الإسلامية وصارت مجموعتهم متحدة ومتميزة عن بقية المجموعات.

ولقد استطاع المسلمون ان يتغلبوا على دعاية الغرب وزعمه أن الاسلام كان شيئا في الماضي وانتهى، ويننتظرون بلهف ذلك اليوم الذي سينتصر فيه الاسلام، لقد كان الاسلام صاحب الجولة الأولى في العالم مرتين وتشير كثير من الدلائل إلى قرب جولة ثالثة بإذن الله ويعمل المسلمون الآن للحفاظ على الثقافة الاسلامية والفكر الاسلامي لكي لا تنمحي شخصيتهم المسلمة المتميزة وهناك حقيقة مؤسفة أن بعض المثقفين والشباب انحرفوا في تيار الحضارة الغربية ساعدهم على ذلك جهلهم بانحطاط الثقافة الغربية وسمو الثقافة الاسلامية.

إن من يعيش في الغرب يستطيع ان يعيش انحطاط المجتمع الغربي وسمو المجتمع المسلم، والمسلمون في غرب أوربا يقيمون الاسلام كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعي لا يقاربه نظام ويقيمون فاصلا بين الحياة في ظل

الاسلام وبين الحياة في ظل فوضى الغرب وتفسخه.

إن المجموعة المتميزة في بريطانيا لهم دورهم في تبصير العالم الاسلامي بما يعتقده الغرب في كثير من نواحي العقيدة الاسلامية وتشكل مجموعة المسلمين في بريطانيا اكبر مجموعة إسلامية موجودة في قطر أوربي ورغبة أفراد هذه المجموعة في الثقافة الإسلامية ستجعل لهم دوراً بارزاً في نشر الفكرة الإسلامية.

ويتمثل النشاط الاسلامي في المانيا ، وإيطاليا، وفرنسا والنمسا في بناء المساجد وإنشاء الجمعيات وإنشاء الصحف ووضع الكتب وكذلك يقوم بهذا النشاط اتحاد الطلاب المسلمين في أمريكا وكندا.

ويتحدث الدكتور محمد حميد الله في كتابه «نمو الاسلام أوربا» فيقول:

يكاد يكون اليوم في كل قطر أوربي من الرعايا المسلمين ولا يزال المهتدون أقلية والأكثرية من أصل أسيوي وأفريقي. ويشتغل في كل من ألمانيا وبلجيكا وسويسرا وإيطاليا وغيرها من البلدان آلاف المسلمين كعناصر مساعدة وتجذب كل من إنجلترا أو فرنسا القسم الأعظم منهم.

وحتى بدء القرن العشرين كان لا يوجد مبشرون من المسلمين ومع ذلك في بدء الحرب العالمية الأولى يوجد في ووكينج قرب لندن جالية من المسلمين الهنود وقد شيدوا جامعا وأخرجوا مجلة باسم المجلة الاسلامية التي مضى عليها أكثر من خمسين عاما. للسنيين مؤسسات عديدة في كل من إنجلترا والمانيا وسويسرا وأخيراً يوجد مهتدون للاسلام ممن اهتدوا الى هذا الدين الحنيف عن طريق التقاة الصوفيين إن كتابات جونيون وتلاميذه أفضت الى تشكيل مجموعات إسلامية في كل من باريس وجنيف وأما كن اخرى، ويظهر ان المسلمين في يوغسلافيا لهم الآن الحرية في النشر والدفاع عن دينهم.

ويوجد الآن في جميع الجامعات الاوربية الكبرى كراسي لتدريس الاسلام لكثير من الفروع كاللغات والدين والتاريخ والفن والاقتصاد والاجتماع ويزداد عدد المسلمين في المعاهد الثقافية الاوربية وهم يزدادون دوما وبصورة خاصة في فرنسا وانكلترا والمانيا وإيطاليا وحتى في البلدان الشيوعية بقرب العدد من ٥٠ ألف طالب.

ويقول: إن اوروبا متفتحة للاسلام أكثر مما كانت عليه في القرون الوسطى، ورغما عن ذلك فهناك بعض العقبات التي يلزم تذليلها ولا بد من الاشارة بأن كثيرا من المؤلفين المسلمين يكتبون باللغات الاوربيةإذ يفسرون القرآن وينشرون بعض الكتب عن الاسلام ، وبذلك يزيدون الثروة الدينية وأن الفهرس الاسلامي المعروف (ايندكس إسلاميكوس) هو باللغات الاوربية وقد ساهم في تأليفه كثير من الكتاب المسلمين، ويعتبر هذا الفهرس في أوربا من الأسفار القيمة والجديرة بالثقة ».

ولا ريب أن هذه الملامح السريعة تستطيع أن تعطي اتجاه الريح.

ولكن هناك ما هو اهم من ذلك: هو نشأة تيار جديد في الفكر الغربي يحاول ان يتفهم الاسلام ويرى انه السبيل الوحيد لصلاح البشرية وأن أوربا لن تستطيع ان تجد المجتمع السليم الا اذا اعتنقت أسلوب العيش الاسلامي، وردد هذا كثيرون في مقدمتهم برناردشو وغيره وهناك من أشار الى ان الاسلام يحل مشاكل البشرية المعاصرة ومعضلاتها الحاضرة ومن يرى ان الغرب حامل بالاسلام وسوف لا يجد محيصا عن التماسه منهجا لمجتمعه وحياته عاجلا أو آجلا.

الفصل الثالث

الاسلام في الافق

إن صورة الاسلام في الأفق تتمثل في عدد من العناصر والخطوط العامة بحيث لا تخفى على الرائي ابدا وبحيث لا يستطع أهل الانتقاص من أقدار الأمم والحضارات إنكار ضوءها ووهجها. وهو يتمثل اليوم في ثلاث عناصر ضخمة:

(١) التفوق البشري.
(٢) إمتلاك الطاقة والثروة.
(٣) امتلاك التكنولوجيا.

تتحدث كل الابحاث التي تقايس المجتمعات والأمم اليوم عن الغرب: القوة الجديدة » تقول إحدى هذه الأبحاث: الزمن تغير فجأة وعلى غير انتظار تبدلت نظرة العالم الى العرب بعد طول معاملة لهم على أنهم دول متخلفة، لأول مرة منذ زحفت جيوش الاسلام من الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي لنشر رسالة محمد في العالم تمكن العرب من تحقيق سلسلة من الاعمال الناجحة عسكريا وسياسيا واقتصاديا. وإن الوجود العربي استعاد ثقله القديم وتفجرت قدرات الخلق الفني والأدبي في كل بلاد العرب.

لقد رسم الاوربي صورة مشوهة للانسان العربي تعطيه صفات البدائي الهمجي غير المتحضر، هذه النظرية ترجع اساسا الى العصور القديمة عندما وصلت الجيوش العربية الى اوربا وفتح الاوربيون أعينهم على جندي غريب آثار الخوف في نفوسهم وشعروا مع قدومه بما يمثله من خطر على تقاليدهم، إن هذا الجندي نفسه هو الذي حمل معه الى اوربا: «العلم» الذي كان العرب سابقين الى الى كشف اسراره.

جاءت حرب اكتوبر تضيف الى العربي سمات جديدة بما احدثته من تأثيرات على شخصيته.

والسؤال المطروح في الغرب الآن:

كيف سيستخدم العرب قوتهم الهائلة الجديدة؟

عندما اقتحمت جيوش مصر حصون اسرائيل، عبر الاسرائيلي الذي تجاوزت غطرسته كل حد، استطاعت أن تضرب تفوقه القتالي السابق.

وقد وضع أقدام العرب على عتبات الطريق نحو مستقبل مشرق، والعرب ملتزمون بمواصلة نضالهم في سبيل التحرر وسيكون النضال طويلا وبكل الوسائل وفي كل المجالات».

هذه صورة لما يراه الغرب عن الاسلام وأهله اليوم وفي اغسطس عام ١٩٧٤ كتب الاستاذ احمد بهاء الدين: إن الغزو التركي لقبرص أعاد الى الأذهان دفعة واحدة ذكرى قرون غابرة: الاسلام يطرق أبواب أوربا. العثمانيون ضد الإغريق، ولم تتورع جريدة انجليزية ذات يوم ان تستخدم في عنوانها الضخم كلمة «البرابرة» كل قصص الحكم العثماني في البلقان من جديد.

المسألة الشرقية من جديد، أوربا مشكلة العالم العربي الاسلامي، في تلك السلسلة التاريخية والمتصلة الحلقات عبر التاريخ، مداً وجزراً، بين شرق وجنوب البحر الابيض من شماله وغربه.

هل عاد الشرق يطرق ابواب الغرب، بعد دورة من الزمان ولكن بجيوش هذه المرة من المال الغزير.

(٢)

وتقول جريدة نوفل أو بسرفاتور في ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣.

إن غزوة العالم العربي الاسلامي للغرب الصناعي تحدث هزة اعنف من الهزة التي آثارتها ولادة العالم الشيوعي.

وتقول: إن غزوة العرب مالية أو أي شيء آخر إلا أن تكون إسلامية فما الذي يحمل الغربيين إلى النظر للعالم العربي بالمنظار الإسلامي، ما الذي يجعلهم

يرفضون أن يصدقوا ان الإسلام لن يفعل فعله في توجيه مقدرات « الغرب » وبالتالي في مقدرات العالم كله.

ماذا يمكن ان يفعله البترول للاسلام وما يحتمل ان يفعله الاسلام بالبترول ثم ما يمكن للاسلام والبترول ان يفعلا بالعالم فعلا وهل يمكن ان يحلا مشاكل التنمية الاقتصادية والتضخم وازمة السيولة النقدية وكيف حصل هذا كله هذا هو ما يخيف العالم الصناعي الرأسمالي.

وتتحدث الصحف والانباء عن الازمة الاقتصادية التي تعاني منها امريكا وخاصة في مجال الطاقة والتضخم المالي الذي يؤثر على قوت الشعب اليومي، وتتحدث عن انتاج الدول العربية من البترول وهو يمثل ٦٠ في المائة من الانتاج العالمي.

وان ١٢٠٠ مليار دولار هو دخل دول البترول العربي عام ١٩٨٥ في الشرق الاوسط، وتتساءل الصحف عما اذا استمر دخلها من البترول بمعدلاته الحالية فما هو التهديد الاقتصادي الحقيقي، ان الدول المصدرة للبترول ستحقق دخلا صافيا يصل الى ٦٥٠ مليار دولار خلال خمس سنوات ثم يتضاعف هذا الدخل عام ١٩٨٥ وستكون دول الشرق الأوسط قادرة على شراء كميات كبيرة من الأسلحة والفنون العسكرية لتدعيم نفوذها.

هذا هو ما يشغل الغرب إزاء الثروة الاسلامية الضخمة وامتلاك الطاقة الى أمد طويل وتشير الصحف الغربية الى تسمية: قلق عالمي لزيادة دخل دول البترول العربية الاسلامية وأثر ذلك في الاقتصاد العالمي وخاصة فيما يصاحب ذلك من تفوق بشرى في عالم الاسلام بينما يوجد انهيار ضخم في تعداد السكان في الغرب.

وقالت مجلة تايم الأمريكية (١٩٧٣/٣/٢٩) إن الثروة البترولية في الدول العربية في طريقها إلى احداث تغيير في « تاريخ العرب » وتزويدهم بسلاح لم يتوافر لهم منذ عهود الحروب الصليبية وهو سلاح قوي يمكنهم من استخدامه في التنمية، وفي مواجهة الأخطار وإن الدول العربية تمر الآن بثورة في البترول ستتيح لها إمكانيات القوة والثراء، وأن العرب الذين يبلغ عددهم مائة مليون

شخص بدأو يدركون فجأة أبعاد السلاح الاستراتيجي الذي يمسكون بهوقالت أن استهلاك الولايات المتحدة من البترول يزيد بنسبة ٧ و٨ سنويا وأن الدول العربية تسيطر على ٦٠ في المائة من احتياطي البترول العالمي وإن دخلها الذي وصل الى أربعة آلاف مليون و٤٠٠ مليون دولار وسيصل الى ٤٠ ألف مليون دولار عالم ١٩٨٠ وهذا الرقم يزيد عما تحققه الشركات الصناعية الضخمة من البترول وعددها ٥٠٠ شركة، وقال وليم فولبرايت أنه قد يأتي يوم تقرر فيه إحدى دول الغرب احتلال دول النفط في الشرق الاوسط بالقوة أو تترك ذلك لأصدقائها الاقوياء عسكريا في المنطقة كإسرائيل: الصحف (أبريل عام ١٩٧٣)

ونشرت الصحف اليومية في لندن ذات صباح عناوين ضخمة من كلمتين لا ثالث لهما:

« العرب قادمون »

وقالت: ذلك لأن العرب يملكون القدرة على شراء أكبر شركات الولايات المتحدة وهللت الصحف لمجرد أن فريقا من أثرياء العرب قد حملوا معهم الى لندن بضع مئات الملايين من الجنيهات الاسترلينية لشراء الأراضي والمباني في قلب العاصمة البريطانية (١٩٧٤/٩/٢٠) .

وتساءلت الصحف: عن الدوافع التي جعلت المال العربي- ولم تمض سنة هجرية بعد معركة العبور- يحول إتجاهه صوب بلاد الفرنجة ».

وفي وسط هذا الخليط المتضارب من النظرات والمشاعر نجد العرب يتجهون الى تأصيل فكرهم الأساسي بالدعوة والعمل على إنشاء البنك الإسلامي وإعداد منهج أصيل للاقتصاد الاسلامي وتوجيه المال الاسلامي وجهة البناء والانشاء ويتحدث الفكر الاسلامي اليوم عن التكنولوجيا ودخولها الى العالم الاسلامي وتحركها في إطار الفكر الاسلامي نفسه ويجري الحديث حول قدرة المال الاسلامي على شراء العلم نفسه وليس الآلات، حتى يصبح علما عربيا إسلاميا يتحرك في إطار اللغة العربية، خاصة وأن البلاد الإسلامية أخذت تشكل قوتها العسكرية في مواجهة اسرائيل وكل خطر أو غزو استعماري أو شيوعي،

وقد أثبتت حرب رمضان أنه لم يعد لإسرائيل على العرب ذلك التفوق التكنولوجي الذي كان معروفاً قبل عام ١٩٧٣.

كذلك فإن البحث يدور حول مجتمع الغرب الذي أسرف في الإستهلاك واسرف في رفع مستوى معيشته وفي ترفه وبذخه ووضع للاقتصاد العالمي قوانينه التي تحكمه وهو يريد الآن من الدول الإسلامية ان تدفع الثمن له في أزماته كما كانت تدفعه في أيام رخائه وإزدهاره.

وتقول الأبحاث: إن الذين اخترعوا قوانين السوق والعرض والطلب ليس من حقهم أن يتذمروا إذا دارت عجلة هذا القانون مرة لغير صالحهم، وإن تركوا المسافة تتسع بينهم وبين دول العالم النامية بل شعوبه الجائعة، وأن العرب لا يريدون أن يدمروا قواعد الاستقرار الاقتصادي في العالم ولكنهم يريدون فقط حقوقهم، إنهم يدركون واجبهم نحو المجتمع الدولي ولكن على المجتمع الدولي ان يدرك واجبه نحوهم، ذلك أن المجتمع الدولي ليس محتاجا لحل مشاكله إلا لبعض التقشف وهو مهما تقشف فسيظل في نعمة، إذا قيس الى سائر العالم بأكمله ولكنهم لا يريدون التقشف ويبحثون عن الحل على حساب الآخرين».

وتشير الأبحاث الى تآمر الغرب على ثروة الاسلام.

وتقول: إن الخطر المستحدث بالنسبة للمال العربي هو الإحتواء الأجنبي والوصاية والتهديد بالمصادرة والإحتلال وأن المال العربي ما زال أسير المؤسسات المالية العالمية حيث تستقطب الحضارة الاجنبية الجزء الاكبر من الأموال العربية وفي الغالب لا تدخل هذه الاموال في الاقتصاديات العربية بل تبقى خارجها.

الفصل الرابع

التفوق البشري

من أبرز مظاهر تألق الاسلام في الآفاق: تلك الظاهرة الضخمة التي تتأكد في مجتمع الاسلام وهي التفوق البشري، ومدى الخطر الذي يحسبه الغرب لهذا التضخم والحملة القاسية المليئة بالتآمر على هذا الخطر خاصة في الوقت الذي يضعف فيه النمو البشري في الغرب ويتضاءل.

والظاهرة كما تبرزها التقارير والاحصائيات:

أن العالم يضم الآن ٣,٥ مليار من السكان ترتفع إلى ٧ مليارات نسمة في نهاية القرن الحالي وقد زاد الجنس البشري سبعمائة مليون في السنوات العشر الأخيرة في كل عام يولد بالعالم ١٢٧ مليون طفل ويصل الى سن التعليم ٩٥ مليون طفل وإن الدول النامية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية هي أكثر الدول تأثراً بهذه الزيادة إذ أن ثلثي سكان العالم يعيش في هذه المناطق وأن خمسة أسداس الزيادة المنتظرة في عدد السكان تكون أيضاً في هذه المناطق وقد أصبح الوافدون يزيدون عن الراحلين في الشهر الواحد بما لا يقل عن سبعة ملايين نفس فالعالم يستقبل كل يوم ٢٠٠ ألف نسمة زيادة صافي بعد الخسائر وقد استغرق العالم ثلاثة آلاف عام بأكملها قبل أن يضاعف تعداده ولكنه الآن يتضاعف تلقائيا كل خمسة وأربعين عاما.

ولا ريب أن لنا نحن المسلمين عبرة في دراسة هذه الأرقام. فنحن نؤمن أن الكون كله لله وأنه هو الخالق وأن ظاهرة التفوق البشري هذه ظاهرة طبيعية في طريق اكتمال صورة الكون والأرض على النحو الذي أشار إليه القرآن لتأخذ الأرض زخرفها وزينتها ولتخرج الأرض مذخورها من معطيات الحياة في قاع البحار وفي قلب صخور الجبال وفي جوف الأرض، وأن للمسلمين في هذه المئتيْ ألف طفل يوميا أكثر ١١٩ ألف طفل وهذا يدل على أن ظاهرة

التفوق البشري تمثل جيشانا ضخما في عالم الإسلام بما يدل على تفوق ظاهر لهذه القوة المؤمنة بالله، بينما نجد أن الانحسار السكاني واضح الدلالة في عالم الغرب.

وفي إحصائيات اخرى أن عدد سكان العالم الآن هو ۳۷۰۰ مليـون نسمة وأنه إذا سار معدل المواليد على حالته الآن فإن العدد سيتضاعف خلال ٢٦ سنة، أي في نهاية هذا القرن يكون قد ارتفع إلى ٧٤٠٠ مليون ساكن وأن هذه الزيادة ستكون من نصيب الدول النامية في آسيا وأفريقيا أي أنه من بين ٢٢٤ طفلا يولدون في الدقيقة الواحدة ٢٠٢ طفل للدولة النامية و٢٢ طفلا للدول المتحضرة.

وهكذا نجد انحساراً في مواليد الغرب ونمواً شديداً في مواليد الإسلام ومن هنا نجد تلك الحركة الضخمة التي تصورها الصحف وتلوكها دون أن تفهم ما وراءها، وهي محاولة الغرب لضرب هذه القوة وتدميرها حتى لا ينمو في سنوات قريبة «ذلك العملاق» الذي سيقود البشرية في اتجاهها الصحيح.

ومن هنا نجد المجتمع الغربي يرفض تحديد النسل ويفرضه على العالم الإسلامي

ويعلن البابا بيوس الثاني عشر رأيه صراحة في تأييد المسيحية لكثرة النسل ويواجه المسلمون مع حملة تحديد النسل ذلك التحدي الخطير، تحدي نمو الصهيونية في فلسطين ونمو المسيحية في أوربا وفي أجزاك كثيرة من العالم الاسلامي، بينما يسعى المسلمون إلى خفض تعدادهم وهنا تنكشف المؤامرة.

إن الخطة مدبرة ضد المسلمين بالذات ذلك أن غير المسلمين يخشون تكاثر المسلمين ويحاولون إيقاف هذا التزايد بكل وسيلة: ومن هنا كانت الدعوة إلى تحديد النسل والحد من تعدد الزوجات.

وبينما يطلب ذلك إلى المسلمين تترك الصين ليتزايد سكانها بمعدل ١٤ مليوناً كل سنة ويجري تهديد العالم الثالث بنضوب الثروات وتلك أكذوبة كبرى فإن الخطر كله كامن في سوء توزيع الثروة والعالم الثالث يملك أغلب ثروة العالم وإفقاره إنما يجيء من نهب هذه الثروة وتصديرها للأمم المترفة الإستعمارية المسيطرة التي تأخذ من طاقتها والتي تقوم على سياسة الاستهلاك المدمرة.

(٢)

تتحدث الأبحاث عن ظاهرة الانحسار السكاني في الغرب وتصفها بأنها ظاهرة مخيفة وخطيرة تقلق الخبراء الاجتماعيين السياسيين ورجال الأعمال وهي ظاهرة هبوط نسبة المواليد بين الشعوب الغربية والأمريكية بالذات فأمريكا تتجه نحو حالة الصفر في النمو السكاني فهي تقف الآن في النقطة التي يكون فيها عدد المواليد مساويا لعدد الوفيات. وتتحدث الأبحاث عن هذا الخطر الهائل الذي يتهدد الولايات المتحدة والدول الغربية على بعد بضعة أجيال: مما يؤدي إلى انخفاض القوة العاملة وما يؤدي إلى ركود الإنتاج في حين أن الدول الفقيرة تعاني نمواً هائلا في السكان.

وتقول الأبحاث أن عدد سكان أمريكا ٢١٢ مليون نسمة وأن النمو السكاني في أمريكا يصل الى درجة الصفر ٢٠٢ عندما يبلغ السكان ٢٦٠ مليون نسمة يشارك الولايات المتحدة في هذه الظاهرة (السويد، ألمانيا الغربية، اليابان، هنغاريا، رومانيا) وإن نسبة هذه الدول في هبوط مستمر منذ الحرب العالمية الأخيرة.

وأن الهبوط كان هائلا في السنوات الأربع الماضية: في السويد، وفنلندا، النمسا بلجيكا، الألمان، أما هنغاريا وبريطانيا فقد بلغت درجة الصفر والقلق ناجم من أن القوة العاملة سوف تتضاءل في المستقبل مما يؤدي الى ركود الانتاج ومن أجل ذلك شددت بعض دول أوربا في قضايا الإجهاض وفرضت عقوبات. ومنع السوفيات تداول الحبوب المانعة للحمل وأعطوا أجازات للزوجة الحامل.

ويتوقع الخبراء أن أكثر دول أوربا ستصل درجة الصفر في النمو السكاني في بداية القرن الواحد والعشرين، ويرى بعض الخبراء أن نمو السكان الى درجة الصفر سيؤدي الى ركود اقتصادي اجتماعي.

ويرجع الخبراء هبوط الخصب في المدى البعيد في الدول المتطورة الى مجموعة عوامل يطلقون عليها التعقير أو التحديث (موردنا برشين) ويقول الخبراء أن موانع الحمل والاجهاض قد خفضت المعارضة الأخلاقية لضبط النسل وان ثلث النساء الكاثوليكيات يمارسن موانع الحمل بالرغم من تعاليم

الكنيسة الكاثوليكية من أن موانع الحمل أمر خاطىء غير مستحب كذلك فإن الموجة الجديدة للأنوثة قد ساعدت على جعل نسبة المواليد منخفضة حيث شجعت المرأة على تحدي دورها كربة بيت وأم، وقال: الدكتور جون يلدز: إن المرأة لم تشعر بأن عليها خلق الأطفال لتصبح إنسانا بشريا، ويرى كثير من النساء أن مساهمتهن في المجتمع أو تحقيق اكتفاء ذاتي أكبر يكون ببقائهن في أعمالهن بدلا من البقاء في البيوت مع الأطفال وأن المرأة تصبح شيئا مهملا إذا كانت أماً أو ربة بيت (٦,٥ مليون عاملة تؤلف ٤٦٪ من القوة العاملة في الولايات المتحدة).

ويشير التقرير الى خطورة امتناع الشباب عن انجاب الأطفال: يقول بول ايرليس في كتابه (القبيلة البشرية) عام ١٩٦٨ وكتاب آخر (حدود النمو) إن العالم يواجه كارثة إذا تقلص النمو السكاني وقال ولفريدنيكرمان: إن الانسان قد استخف بحجم الموارد الطبيعية الهائلة في العالم. وهناك إشارة الى ان التضخم الاقتصادي يعد عائقا في انجاب الاطفال. وأنه بوجود دخلين في البيت غدا في مقدور الكثير من الأزواج التمتع بالأمور الترفيهية.

(٢)

وهكذا نجد الخلفية الواضحة لموقف الغرب إزاء التفوق البشري في عالم الاسلام، إنه موقف الرغبة في إيقاف النمو حتى لا يجتاح المسلمون ثمرات أرضهم ومقدراتهم التي تصدر الى الغرب والتي يسيطر عليها عدد قليل من أصحاب الملايين أغلبهم من الذين يمتلكون ويديرون ثروة البشرية كلها.

ومن هنا كان ذلك الإلحاح الذي نواجهه في الصحف لا يتوقف عما أسموه الانفجار السكاني وقد استدرجوا الى الكتابة في ذلك عدداً من الذين يعلمون والذين لا يعلمون ومنهم الاقزام الذين ينتظمون في الماسونية عن طريق أندية الروتاري والليونز وغيرها فضلا عن هذه الحشود من العلماء الذين تجمعهم المؤتمرات الدولية في تحديد النسل ومؤتمر الغذاء العالمي.

وقد أكدت عشرات المصادر والدراسات أن الخوف من نمو السكان في البلدان النامية والمختلفة هو الذي يقلق سادة الغرب فإن هؤلاء سيصبحون قوة

عددية تضر بالبلاد الأوربية وآية ذلك هذه الغاية تلك المبالغ الضخمة التي تصرفها المؤسسات الدولية في إقرار هذا العمل في البلاد المتخلفة ففي تونس وحدها تصرف ٢٠ ملياراً من الفرنكات سنويا على تأسيس مستشفيات التعقيم.

ويشير الاستاذ خورشيد بجامعة كراتشي عن سوء نية الاوربيين والتخطيط الاقتصادي لإدامة احتلال الدول المتقدمة للشعوب النامية:

«إن آسيا والعالم الإسلامي أكبر مناطق الارض اليوم إزدحاما بالسكان وما عدد السكان في البلاد الغربية بالقياس إليها إلا قليل: إن هذا التفوق السكاني سوف يقضي على الاسس التي أقامها الغرب لسيادته السياسية في العالم منذ القرون الخمسة الماضية وعلى ذلك. التفوق الفني والعلمي الذي كان له على الشرق والذي به استطاع ان يقيم احتكاره السياسي على العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة سكانه، لقد آمن الاستعمار أن الغرب بوسعه أن يحتفظ باحتكاره السياسي على العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة سكانه، ولكن الأوضاع الحالية والحقائق الجديدة في العالم قد فندت هذا الخيال الخاطىء وأماطت اللثام عن وجه الحقيقة وأنه لأجل التناقص المطرد في عدد سكان البلاد الغربية فقد ظهرت بوادر الانحطاط والأفول في السياسة رغم الشعور بعد الحرب العالمية الأولى خاصة بأن خطة تحديد النسل ضررها أكثر من نفعها من الوجهتين السياسية والاجتماعية، ومن ذلك ان فقدت فرنسا مكانتها العلمية شيئاً فشيئاً وأعلن المارشال بيتان عقب الحرب العالمية الثانية اعترافه بأنه من الأسباب الأساسية الرئيسية التي عملت لتوهين قوة فرنسا وإزاحتها عن مكانتها العالمية: قلة عدد الأطفال والسكان.

وقد بدأت آثارها السيئة تحدث في انجلترا وغيرها وأوجست خيفة من آثارها السويد والمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وشعرت بحاجة ماسة الى إعادة النظر في خطتها بشأن عدد السكان ولذا فهي تبذل الآن جهوداً متتابعة لزيادة عدد سكانها بدلا من تقليله، إلا أن الغرب لن يستطيع مع كل هذه الجهود ان يزيد عدد سكانه الى حد يستطيع معه ان يحتفظ بمكانته السياسية ويبقى متربعا على كرسي السيادة العالمية بل الذي لا شك فيه أنه سيعود عاجزاً في المستقبل

عن مقاومة الشرق والعالم الاسلامي مهما بذل من جهوده لزيادة عدد السكان في أقطاره.

واشار الدكتور خورشيد الى أن عدد السكان في بلاد الشرق أكبر بدرجات من عدد السكان في الغرب وأن هذا معناه أنه ليس في الإمكان بقاء شعوب الشرق محكومة مغلوبة على أمرها بعد تدربها على الآلات الميكانيكية وتصنيعها في العلوم الفنية، بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة كسابق الفطرة أن تفقد سيادة الغرب على العرب أزهى أيام حياتها وأن تبرر القيادة العالمية في أماكن فيها زيادة السكان ولها في الوقت نفسه خبرة فنية وتكتيكية حربية فكل ما يصنعه الغرب للاحتفاظ بسيادته العالمية في مثل هذه الأوضاع خطيرة للغاية وأن أي محاولة للحد من زيادة السكان في الشرق عن طريق تحديد النسل ومنع الحمل مسألة فاشلة تماما ».

نعم، إن هناك محاولة خطيرة يحاولها الغرب ليوقف النمو السكاني والتفوق البشري في عالم الاسلام وكذلك لإيقاف القدرة على استعمال التكنولوجيا والسيطرة عليها في مقدمة ذلك خطة تحديد النسل ومنع الحمل كحل ناجح، أو تحويل إرادة المسلمين والغرب لتوجيه مقدراتهم وثرواتهم ومقدرتهم الاقتصادية والمالية الى طريق الإستهلاك والترف ويقول الدكتور خورشيد: « إن هذيان أمريكا وكل ما تبذل من النصائح والمواعظ عن مشكلة السكان إنما هو نتيجة الى حد كبير لشعورها بتلك النتائج والمؤثرات السياسية المتوقعة على أساس تغيير الأحوال في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

ويقول أرثر كورمل: أنه لما تعجب الناس في البلاد المتقدمة إعجابا فطريا أن يقل عدد سكان الناس في البلاد غير المتقدمة ذلك أنهم يرون في زيادتهم المطردة خطرا داهما على مستواه الرفيع في المعيشة وعلى سلامتهم السياسية.

وقد أشار ميك كارل إلى هذه المؤامرة الخطيرة لانقاص سكان العالم الاسلامي، قال: إن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا إلا قليلا حتى يطلعوا على حقيقة هذا الدجل ثم لايغتفرونه لأهل الغرب لأنه استعمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة ولاسيما الأمم السوداء الى مزيد من الذل والخسف

حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها وأن القوة الغالبة لا تكون في المستقبل إلا للبلاد التي تتمتع بزيادة السكان وتتحلى في نفس الوقت بالعلوم الفنية وأن محاولة أمم الغرب للاحتفاظ بسيادتها وقيادتها للعمل هي التي تدعوها الى العمل ونشر حركة تحديد النسل ومنع الحمل في بلاد آسيا وأفريقيا وفي نفس الوقت تعمل البلاد الأوربية الآن ما في وسعها لزيادة سكانها وفي نفس الوقت تستعين بأحسن ما عندها من أساليب الدعاية لتقيم حركة تحديد النسل في البلاد الآسيوية والأفريقية وللأسف أن كثيرا من المسلمين يتقدمون ليقعوا في شرك دجلها وقد بينه الى هذا المعنى الفيلسوف الإسلامي محمد إقبال الذي يقول: هناك سيل عرم من الكتب والرسل قد انجرف في بلادنا لدعوة الناس الى اتباع خطة منع الحمل وتشويقهم الى قبول حركتها، على حين أن الغرب في بلادهم يتابعون الجهود الفنية لرفع نسبة المواليد وزيادة عدد السكان.

ويقول الاستاذ علال الفاسي: إن أكبر الخطر أن تدرس حركة تحديد النسل منفصلة عن سياقها السياسي والتاريخي فنحن لا نستطيع أن نفهمها على حقيقتها ولا ان نرسم لأنفسنا خطة عملية راشدة إلا داخل نطاق التحدي.

فإذا أضفنا الى هذا: الخطط الصهيونية لإجلاء العرب عن الشرق الاوسط وتهجيرا أكبر عدد ممكن من اليهود إليه وخلق حركات داخل كل بلد عربي وإسلامي من الأقليات التي يصل بها التعصب حيانا الى المطالبة بالانفصال عن الوطن الوالد عرفنا أن التناقص في عدد المواليد لا يخدم إلا مصلحة الاستعمار والصهيونية. كذلك فإن علماء الطب والاجتماع والدين من جهة وعلماء الاقتصاد من جهة أخرى يرون أن تحديد النسل خطر على قوة الدولة العديدية وعلى زيادة انتاجها ويقاومون الدعوات التي سبقت في بلادهم والحركة التي نشأت عنها فكيف يمكننا نحن الذين ما زلنا في طور التخلف وما زلنا نأمل ان يكون من شعبنا قوة مادية وإنسانية أن نتجه الى معالجة ضعف الانتاج الاقتصادي بأضعاف الاخصاب الإنساني كذلك فقد أشار الباحثون الى أن التنقيص من عدد السكان هو خطأ من الناحية الاجتماعية لأن المواليد لا يولدون بأفواههم فقط بل يولدون بعقولهم وسواعدهم فهم مادة وعامل قوي في النمو الإقتصادي

وتقوية الانتاج وليسوا مجرد طفيلين في المجتمع وإنما هو عجز التدبير من الحاكمين وسوء توزيع الثروة على المواطنين والتخلي عن الأقاليم الوطنية للمستعمرين هو الذي يدفع الى هذا التفكير الكسول الذي يرضى بتلك التدابير غير الانسانية.

الفصل الخامس

مستقبل الإسلام

يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في كتابه (الاسلام والغرب والمستقبل): تستطيع أن تميز بعض المبادىء الاسلامية التي يمكن أن يكون لها في المستقبل القريب أثرها البالغ إذا ما أتيح لها أن تعمل عملها في الحياة الإجتماعية، ذلك أن هناك مصدران للخطر تواجهها الحضارة الغربية هما: الشعور بالعنصرية وآفة الخمر وأن الروح الاسلامية في مكافحتها لكل من هاتين الآفتين تستطيع أن تسدي خدمات اجتماعية وأخلاقية جليلة. إن انطفاء جذوة النزاعات العنصرية بين المسلمين يعتبر ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية في الاسلام وفي العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الاسلامية ومع أن التاريخ يظهر عموما أن الشعور بالعنصرية لم يكن قاعدة عامة بل حالة شاذة في طبيعة العلاقات بين الأجناس البشرية المختلفة فإن من سيئات العصر الحاضر أن يكون هذا الشعور بارزاً وبارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التي استطاعت أن تقتطع لنفسها - ولو مؤقتا - حصة الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذي قام بين الدول الغربية في القرون الاربعة الأخيرة.

ويشير توينبي إلى أن أخطار النزاعات العنصرية الهدامة التي تلعب أوجها في أفريقيا الجنوبية، أو في العالم الجديد عبر البحار قد أخذت تعصباً عنصرياً ما زال في تزايد. وعنده أن القوى التي تدافع عن فكرة التسامح العنصري إذا ما أعانتها قوى أخرى ومن المعقول أن تكون روح الإسلام هي تلك القوة المدخرة التي قد تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام».

ويتحدث عن آفة الخمر ومالها من أثر سيء بين الشعوب البدائية في المناطق الاستوائية التي فتحها الغرب وصارت ميداناً لمشاريعه ويقول إن الاسلام يستطيع أن يلعب دوراً في هذه المناطق الاستوائية التي فتحها الغرب، ثم يقول:

هنا نستطيع أن نرى أثرين فعالين يمكن أن يحدثها الإسلام في مناطق وقعت تحت سيطرة مجتمع غربي رمي بشباكه على العالم كله ».

ولا ريب أن المؤرخ توينبي قد ظلم الاسلام ظلماً شديداً مرتين، مرة حين تنكر لحضارته ودورها الضخم في بناء مستقبل البشرية كله ومرة أخرى حين أراد أن يقصر دوره في المستقبل على حل مسألتي العنصرية والخمر، ولا ريب أن يكون توينبي قد صدر في بحثه كله عن ذلك الاتجاه المسيحي الغربي الذي استعلى به على كل مفهوم والذي حصره دون الإنصاف أو التقدير لكل ما تستجيش به البشرية من قوى جديدة، ذلك أنه كان يريد الدفاع عن الحضارة الغربية: حضارة الليبرالية الفردية التي صنعها الرهبان المسيحيون الغربيون، وأن يقف في وجه التحديات التي قدمها سوركن وشبنجلر من سقوط الحضارة الغربية وانهيارها وقرب أفول نجمها.

ولا ريب أن رأى توينبي في مستقبل الاسلام هو رأى الغرب المسيحي الرأسمالي الطامح إلى استدامة السيطرة (مع الاحتفاظ بوجهة نظره إلى الصهيونية التي يستمدها من نظرته المسيحية المعادية لليهودية) ولذلك فهو يرى أن أسلوب العيش الغربي في العالم الاسلامي هو الطريق الوحيد وأن على المسلمين أن يأخذوا العلم والتكنولوجيا الغربي واسلوب العيش معها وهذا هو الزيف الذي عجز توينبي عن أن يتحرر من السقوط فيه وهو بشر ولا شك يؤمن بمسيحيته وحضارته وغربيته. ولا يتصور مستقبلا للبشرية غير هذا الغرب وهذه الحضارة وهو يريد أن يطعمها بكل ما في الديانات أو الفكر الانساني من أسباب تمد في عمرها وتجعلها خالدة إلى الأبد وهيهات، ولذلك فهو يحذر من يقظة الخلافة الاسلامية، ويحذر من تزعم المسلمين لقيادة العالم، ويحذر من فريق ثالث ليس هو التابع للغرب أو المخاصم للغرب.

ويقول: إذا سبب الوضع الدولي الآن حروباً عنصرية يمكن للاسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة أخرى ثم يقول، «وأرجو أن لا يتحقق ذلك» وهناك اعتذاره عن جرائم المستعمرين واغفاله دور الماسونية واليهود (الدونمة) في إسقاط الخلافة ودعم حركات التغريب وهذا ما لاحظه الأستاذ خوري في بحثه عن توينبي وبالجملة فإن رؤيا توينبي هي رؤيا مسيحية مستمدة

من تفكيره الغربي المسيحي وإن نظرته للإسلام قد صدرت عن روح التحيز الذي لا يستطيع التحرر منها ونحن نؤمن دائما بأن الناس وجهة نظر الوافد لا تقبلها أبداً في استقراء الأمور وأن الطريق الصحيح هو أن نواجه قضايانا في ضوء العقيدة الإسلامية والإيمان بها ومعرفة ابعاد التحديات التي تواجهنا.

وقد استطاع المسلمون عام ١٩٧٣م- ١٣٩٣هـ كسر قيد ظل يحول بينهم وبين التحرك زمنا طويلا بعد أن أدالوا من الصهيونية في معركة العاشر من رمضان وتلك علامة على طريق جديد في حاجة إلى عمل كبير حتى يتحقق له من النتائج ما يكفل دعم هذا المنطلق الجديد، وأن الخطة التي قام بها الفكر الإسلامي منذ بدأ مرحلة اليقظة توشك أن تسلم العالم إلى مرحلة جديدة هي مرحلة النهضة.

وإن مواجهة الصهيونية العالمية التي اتخذت رأس جسر لها في فلسطين هو بمثابة العمل الذي تتركز فيه القوى وتنصهر فيه التحديات التي حملها الاستعمار والشيوعية خلال أكثر من مائة عام، وإن هذه القوى الثلاث تتكامل اليوم لتحول بين صربة جديدة لتمزيقه، وما تزال قضايا بنجالاديش والفيلبين ولبنان وجنوب السودان والتحديات التي تواجه مسلمي أفريقيا والملايو تشكل أخطاراً وتحديات ذات أهمية خطيرة في الخطوة التي تحاول الصهيونية العالمية القيام بها في وجه التقدم الإسلامي الزاحف بقواه المختلفة:

«الطاقة والاقتصاد والتكنولوجيا والتفوق البشري».

وتجري المحاولات في كل هذه النقاط لإحداث التمزق والإفساد والحيلولة دون تحقيق الغاية المرتجاة.

(٣)

التحدي الكبير القائم في وجه المسلمين

إن التجارب العديدة التي تمر بالمسلمين، وخاصة تلك التي مرت في السنوات الثلاثين الأخيرة جديرة بأن تلفت أنظارهم إلى حقيقة ماثلة يجب ألا تغيب عن الأذهان لحظة، ويجب أن تقوم كل مخططاتهم ومشروعاتهم ومصالحهم على ضوئها، ويلزم أن تكون عنصراً أساسيا لكل مطامحهم ومشاغلهم، بل وجدهم ولهوهم. ذلك هو ما يسمى بالتحدي الكبير الذي لا ينتهي، هذا التحدي الذي اسلم الشعوب إلى الهزيمة والتخلف حين فقدت الإحساس به، وغفلت عنه وحين غلب عليها ذلك الإحساس بالأمن والتوقف عن مواجهة التحدي والغفلة عن الحذر الدائم إزاء أخطار الأعداء المتربصين.

لقد كان هذا الأمر وهذه الغفلة عن أدوات المقاومة والمحافظة على ثغور الأمة وأطرافها باليقظة والسلاح والمرابطة وتلك الاستنامة عن الأخطار هي مصدر كل ما واجهته من مباغتة على طول تاريخها سواء من الدولة البيزنطية أو الحروب الصليبية أو حملات الفرنجة أو زحف التتار أو تطويق الاستعمار للعالم الإسلامي في العصر الحديث أو هجرة اليهود إلى فلسطين.

إن المراجعة لوقائع التاريخ الإسلامي تثبت أن مصدر الأزمات الكبرى كان هذا الأمن، وهذه الغفلة عن الأسلحة والاستنامة عن الأخطار.

ولقد كان «الحذر» عنصراً أصيلا أكيداً مما علم الله سبحانه وتعالى المسلمين في القرآن حين دعاهم إلى الأمة الوسطى وهو جزء لا يتجزأ من كيان هذه الأمة ووجودها فإذا غفلت عنه فقد آن لعدوها أن يصرعها بالغزو والتسلط والاحتلال.

ولقد كانت أكبر معارك المسلمين هي في مواجهة هذا الخطر، وكان الأمن الذي عرفه المسلمون في بغداد عام ٦٥٦ هو مقدمة الغزو الذي قام به التتار وكان الأمن الذي عرفه المسلمون في تلك المفازة التي تصل بين حدود الدولة الرومانية وبين بلاد المسلمين هو مقدمة الغزو الصليبي ثم الغربي، وكان

التراخي في المرابطة في الثغور الإسلامية على البحر الأبيض في مواجهة أوربا هو الذي مكن للمراكب الصليبية من الوصول إلى موانىء الشام وكان الأمن الذي عرفه المسلمون في الأندلس هو مقدمة انقضاض الإسبان والبرتغال عليهم والقضاء على وجودهم فيها.

وكذلك كان الأمن الذي عرفه المسلمون في ابان الدولة العثمانية.

هذا الأمن ليس أمنا صادقا ولكنه أمن زائف لأنه يقوم على تجاهل واقع العالم من حول المسلمين، والنكوص عن الوصول إلى أدوات التقدم والغرق في الترف والملذات والأهواء، والانقسام والصراع بين الحكام.

ولقد ولدت أجيالنا في ظل الاستعمار الذي سيطر على العالم الإسلامي منذ أكثر من مائة عام وما زلنا نعيش هذا الخطر، ولقد خيل إلى البعض أن خروج جيوش الاحتلال وتحرر الأوطان هو مقدمة لمرحلة من الأمن جديدة ولذلك فإن محاولات التلهي عن الخطر كانت مصدر الضربات التي أصيب بها العرب والمسلمون في السنوات المتوالية هزيمة ونكسة وغزوا وتسلطا وسيطرة على فلسطين وبيت المقدس.

وما يزال الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين وبيت المقدس يمثل قمة التحدي والخطر الذي لا يسمح للمسلمين والعرب مطلقاً أن يحسوا بالأمن، ذلك لأن هذا الخطر ليس محدوداً بمكن ولكنه خطر مصحوب بالتوسع والمطامع في بلاد كثيرة ومواقع غاية في الخطورة والحساسية وهو ليس خطراً سياسياً عسكرياً فقط ولكنه خطر فكري وثقافي واجتماعي، متصل أشد الاتصال بالذاتية الإسلامية وكينونة الأمة العربية وبالنظام الإسلامي والشريعة الإسلامية وباللغة العربية والتاريخ الإسلامي جميعاً ذلك أنه يستهدف استلاب الكيان النفسي الاسلامي المتمثل في العرب أولا وفي الفكر الاسلامي اساسا وذلك أمر خطير يستدعي أن تظل الأمة بكامل قواها وأفرادها وكفاياتها ومقدراتها قائمة يقظة لا يطرف لها جفن أو تنام لها عين إلى جيل أو جيلين آخرين.

ولذلك فإن أشد ما يدخل على المسلمين الآن أن يتصوروا أنهم يستطيعون أن يعيشوا حياة الأمن، أو أن يتوقف الحذر. ما دامت هذه الجبهة مفتوحة

عليهم جميعاً أخطارها قريبة من كل أوطانهم.

فإذا أمنوا وأقاموا مجتمعاً فيه طابع الرفاهية والترف فإن ذلك سيكون منذراً باجتياحهم من قوى عديدة تتربص بهم.

ولذلك فعلى المسلمين والعرب أن يوطنوا أنفسهم على أن يعيشوا حياة الخطر والتحدي لا حياة الأمن، وأن يظلوا قائمين في مواجهة الخطر وفي حالة الحذر، وأن يكونوا في رباط دائم.

وليس هذا غريباً ولا عجيباً، ولكن الغريب هو عكسه مما حاول خصوم المسلمين أن يلقوه إليهم بالطمأنينة والاستسلام وإلقاء أنفسهم في أحضان عدوهم وقد شهدوا نتيجة التجربة وخطأ التبعية فإن قوانين التغريب والغزو الثقافي أوقعتهم في الهزيمة مرة ومرة ولم يتحقق لهم النصر إلا حين أخذوا بقوانين أمتهم وعقيدتهم والتمسوا الأصالة من خلال مفهوم الإسلام.

ولا زال الإسلام كذلك وسيظل منذ أن بزغ فجره وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يمثل هذه القوة الصامدة على أرض الله تحمي رسالته وأمنه في مواجهة كل القوى التي تحاول أن تجتاحها سواء جاءت من شرق أو غرب أو شمال أو جنوب، وذلك موقعها الجغرافي ومركزها الاستراتيجي ومكانها الإقتصادي ومقدراتها ومعطياتها وثرواتها، ولأمر آخر، ذلك أنها تحمل رسالة التوحيد والعدل والإخاء البشري إزاء عالم يعيش بالأحقاد والصراع والتسلط والسيطرة.

ولذلك فقد كانت كل القوى وستظل تحاول أن تتجمع لتحطيم هذا الكيان أو احتوائه، ومن هنا كان على أصحاب هذا الكيان أن يكونوا قادرين بأحدث وسائل العصر وأقوى قوى الإيمان بالله على الثبات في وجه الأعاصير والصواعق.

ومن هنا جاءت كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحاسمة فيما معناه أن هذه البقعة في رباط إلى يوم القيامة. وحين يحاول الباحثون والمفكرون مراجعة التاريخ في سبيل البحث عن سبب التخلف الذي أصاب المسلمين والهزيمة التي لحقت بهم في الماضي، نجد أن ذلك يتركز في مصدر واحد هو أقوى من كل

المصادر وأبرزها، ذلك هو فقدان الحذر والاستسلام إلى الأمن.

وشيء آخر عام: هو تهاوي الإرادة الحاسمة في وجه الخطر. ولا ريب أن تخلف المسلمين على مدى العصور قضية مستقلة عن الإسلام نفسه كمنهج ورسالة، ذلك أن المسلمين قد طبقوا الإسلام في مراحل من تاريخهم فوجدوا عظمة التمكين في الأرض فلما خالفوا عنه وجدوا الأزمة التي لا تنكشف إلا بعودتهم إلى التماس منهج الإسلام.

ولا عيب في المنهج لأنه منهج رباني المصدر، قائم على الفطرة والحق والخير وقد جرت تجربته الناجحة المظفرة وسجلت بصماتها على صفحات التاريخ ولن تكون القيم الاسلامية في تقدميتها ونصاعتها مسؤلة عن التخلف بحال وإنما جاء التخلف من تجاوزها وإهمالها.

وسقوط العزيمة وتهاوي الارادة، هي مصدر آخر إلى جانب الغفلة عن الأخطار المحدقة من كل جانب، ويرجع ذلك إلى التهاون في بناء الانسان المسلم على الصمود والخشونة والانفطام عن الشهوات بحيث يكون قادراً على الانتصار على النفس فلا تستهويه المتارف والمغريات فيسقط ذليلا أمامها، ولا بد أن يعود المسلمون إلى بناء الارادة بالاستعلاء عن الأهواء وبناء الفكر بالنظر إلى مختلف الأبعاد.

أن ظواهر التخلف ظهرت في اليوم الذي بدأ فيه المسلمون يميلون إلى الحلول السهلة ويسترخون ويتجاهلون الخطر المحدق ويبتعدون عن حياة الوقوف في وجه التحدي والمرابطة الدائمة في الثغور والانحراف عن تطبيق القرآن شريعة أمة ومنهج حياة، وهم أمة الرباط إلى يوم القيامة كما حدث الصادق المصدوق.

لقد فقد المسلمون التحدي فسقطت العزيمة وغفلوا عن المجاهدة حين فقدوا روح الصلاة، وطابع الايمان واكتفوا بالمظاهر، وهذا الدين لا يصلح له إلا من يأتيه من جميع أطرافه.. عند ذلك دارت الدائرة..

يقول المؤرخ أرنولد توينبي: إن الغرب وضع الحبل في رقبة العالم الاسلامي منذ القرن الخامس وكان يتهيب أن يشده وظل خائفا ثلاثة قرون، ثم بدا له أن

المسلمين في نوم عميق فشد حبله وسيطر.

وعلى المسلمين أن ينظروا إلى الطامعين، وكيف أنهم يعيشون في حالة التحدي التي لا تنتهي، وهم على الباطل فما بال أهل الحق وفي حوزتهم تلك الأمانة التي سلمها لهم الأجداد، كيف يلقون الله وقد فرطوا فيها وكيف يحكم عليهم التاريخ، هؤلاء في باطلهم لا يستسلمون فكيف يستسلم ويفرطون فيما يملكون وهم حملة أصدق رسالة وأصحاب حق، وهم الموكلون بتبليغ هذا الدين إلى العالمين. لماذا لا يثبتون على حقهم ولا يصمدون في مواجهة الأعاصير الهوج، ولماذا لا يعيدون بناء إرادتهم بإقامة صرح التربية الاسلامية، ولماذا لا يفهمون تغيرات الأمم والمجتمعات وقد أعطاهم كتابهم نواميس الكون والأمم والحضارات.

أن مسؤلية المسلمين في هذا العصر جد خطيرة وحساب التاريخ لهم جد عسير.

الخاتمة

الاسلام في دورة الفلك

ترددت في الغرب منذ وقت بعيد أفكار تقول: «إن الحضارة الغربية في طريقها إلى الانهيار وأنه لكي يطول أمد إنهيارها يجب القضاء على الوريث الوحيد الذي هو الأمة الاسلامية التي تحمل بدينها وتراثها وترابطها وموقعها الاستراتيجي كل مؤهلات القدرة على حمل لواء الحضارة على نحو أكثر صلابة وعدالة وإنسانية ومن أجل هذا وجهت الخطط للعمل على تفتيت هذه الأمة حتى لا تتمكن من القدرة على إرادتها والسيطرة على العالم.

هذا المعنى الذي انتهت إليه أبحاث مؤتمر علمي جمع صفوة من الباحثين الغربيين الذين درسوا تاريخ الحضارات القديمة وخاصة الحضارة الرومانية والفارسية وغيرها، وما يزال يفرض على مخططات الغرب وجهة معينة في كل ما يتعلق بأمر الاسلام والمسلمين ربما لا تبدو واضحة لدارسي الأحداث الفرعية يوما بعد يوم حيث يجد علامة استفهام كبرى أو حلقة مفقودة، وهذا العمل هو من مخططات الصهيونية والاستعمار والماركسية وهي القوى الثلاث التي تتمثل في «قوة» قائمة من وراء المذاهب والحكومات والنظم تحاول أن تفرض نفوذ أصحابها على واجهة السياسة العامة الظاهرة.

ومن وراء هذه القوى تكمن الدعوة إلى محاولة تقليص المسلمين بوسائل مختلفة من بينها إضعاف نسلهم وتحديده حتى لا يكونوا تفوقاً بشريا خاصة وأن الغرب الآن قد وصل إلى مرحلة الإنهيار والضعف ومحاولة تبديد الثروات الاسلامية حتى لا تشكل قوة تجمع وتحشد في مواجهة الغزو الاستعماري والصهيوني.

وعن طريق «التغريب» والغزو الثقافي حتى لا يلتقي المسلمون على اساس واحد من الفكر والإيمان والاعتقاد.

ونحن حين نبحث في كتابات رجال الاستشراق والاستعمار نجد (توجيهات صريحة واضحة في هذه الأمور جميعاً ، كلها تعلن الخوف من الوحدة الفكرية الاسلامية وهناك محاولات تحاول أن تجدد صيحات الخوف من الجامعة الاسلامية والوحدة والخلافة).

ومن أجل هذا يجري العمل في محيط الفكر المطروح في أفق العرب والمسلمين على دعوتهم إلى أشياء كثيرة كلها زائف. وأخطر ما يدعون إليه فرض تصوره بضرورة التلازم بين الأخذ بعلوم وتكنولوجيا العصر وبين إتباع اسلوب العيش الغربي بكل علله وأمراضه.

وأي عقل ممكن أن يقبل ذلك: هذا جهاز غربي الصنع من أحدث الأجهزة سواء كان عقلا إلكترونيا أو آلة سينما أو راديو أو مركبة فضاء كيف يمكن أن يطلب إلى أن أحمل داخله فكرا غربيا إنه (أداة) ليست سوى منطلق لما أريد أنا أن أقوله عن طريقها أو أحمله عليها.

ما العلاقة بين المطبعة أو السينما أو التليفزيون وبين آراء الغرب ومفاهيمه وسمومه، إن هذه الأدوات إنما جاءت إلينا لتحمل للناس فكرنا وتاريخنا ووجهة نظرنا فهي أداة فقط مفصولة تماما عن فكرها. ونحن ننقل أحياناً مترجمات الغرب وأفلامه ورواياته ولكنا نعرف دائما أن ذلك هو فكر ومثل وأساليب مجتمع غير مجتمعنا، نطالعها لكي نعرف اساليب عيش الآخرين ولكنا لا نطبقها حيث لنا أساليبنا وتقاليدنا وقيمنا.

وكيف يمكن أن ننقل أسلوب عيش الغرب، والغرب الآن يسير في مرحلة التمزق والانحلال والانهيار الاجتماعي سواء في أسرته أو مجتمعه أو أخلاقه أو أدبه أو فلسفته وكيف يطلب إلينا أن نقبل ذلك؟

ولو كان الغرب في مرحلة القوة والتماسك اليوم لما كان لنا العذر أيضاً في أن نأخذ أسلوب عيشه ولا أن يبهرنا منهجه، فإن جذور الخلاف ووجهات النظر وطريقة التفكير بيننا وبينه هي جد مختلفة من الأعماق. وما نحن بطبيعة ديننا وتركيبنا الثقافي والاجتماعي مؤهلون للاندماج أو الإنطواء أو الإنصهار في المجموعات البشرية الأخرى مع تقديرنا للجامعة الإنسانية التي تربطنا ولكنا

مؤهلون في الحقيقة لأداء دور مختلف « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » فهذه الجماعة المؤمنة التي أنشأها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ليست في الحقيقة إلا « جهازاً » جديداً إنما « أعد » ليقدم للبشرية رسالة الله وليؤدي على وجه الأرض كلمة الحق ولتقيم مجتمع الانسانية الكريمة التي عجزت الايدلوجيات المتعددة عن أن تصل إلى شيء منه، هذه الأمة إنما تعد لذلك، ودورها قادم، وإن جهل ذلك الكثيرون الذين يرون أنه لا فائدة لنا إلا أن تندمج وننصهر في الحضارة القائمة بخيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب، وما هكذا كانت دعوة قرآننا ورسالة نبينا، وإنما كانت هذه الرسالة لقيادة البشرية إلى الخير والحق. ولا ينقص من هذا الهدف الكبير الضخم الذي لم تنضج بعد الأمة الاسلامية لأدائه وحمل أمانته، لا ينقص منه ما نرى من « أزمة » وتخلف وتمزق، ما تزال عقابيله بعيدة المدى وما يزال الضوء الكاشف للفجر الجديد بعيد، ولكن من يعرف أن هذا الكون يجري أمره على سنن وقوانين لا تتخلف.

(ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا).

يعرف أن المسلمين لا يخرجون على هذا القانون مهما كانوا مؤهلين لقيادة البشرية، ولا بد أن يخضعوا لسنن الله وأن يغالبوها ويتوافقوا معها حتى يصلوا إلى وضع القوة والتمكن: وهذه الحضارة القائمة إنما هي بمثابة حقل التجارب الذي يوضع بين أيدي المسلمين حثيثا، ليقفوا على ما في التجربة الغربية التي أمتدت منذ أن أسلم المسلمون ميراثهم في الأندلس إلى اليوم. وليروا ما هي إيجابياتها وسلبياتها وليتمكنوا من بعد من تحقيق إرادة الله وتطبيق حدود الله فلا تكون الحضارة صراعا ولا ترفا ولا بذخا ولا ظلما ولا سيطرة ولا غروراً فإذا أحسن المسلمون فهم تجربتهم الأولى وتجربة الغرب اليوم واستقاموا على الطريقة اسلم الله إليهم قيادة البشرية في مستقبلها القريب وإلا فإن سنة الله سوف تلحقهم مرة أخرى.

إن الأمة الإسلامية المؤهلة لقيادة البشرية وذات المعتقد الأصيل لا يمكن أن تخدع وهي تستطيع أن تأخذ من العلوم ما تشاء على انه مواد خام وأن تصهر ذلك في بوتقة (لا إله إلا الله) متحررة من أنماط العيش ومن أوهام

الوثنية وأخطار المادية وفساد الإباحية وتعرف أن الحضارة العصرية على شفا الهاوية، بالإلحاد والتمزق والتحلل.

وسوف تنكسر كل القيود وتتحطم كل المؤامرات التي تدبر لتأخير دور المسلمين وإطالة أمد الحضارة المنهارة (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) يحدث هذا عندما يصبح المسلمون مؤهلين لحمل الأمانة قد فطموا أنفسهم عن الشهوات والمطامع وأصبحت الدنيا في أيديهم وليست في قلوبهم وليعلموا أن ما يعطيهم الله من تفوق بشري وثروة مال وموقع استراتيجي إنما هو في عداد المسؤلية والحجة المقامة عليهم يوم الحساب بأنهم قادرون على إقامة الحق ودك الباطل.

لا ريب أن المسلمين اليوم هم المؤهلون لهذا الدور الذي يقترب حثيثا ولكنهم في حاجة إلى استعداد كبير لحمل الأمانة، وإلى فهم عميق لضرورة تحويل الحضارة في اتجاه العمل الإنساني القائم على الإخاء البشري وعلى المساواة بين الناس وعلى هدم العبوديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلى أن تكون ثروة المسلمين في سبيل إسعاد البشرية كلها وليست لخدمة حفنة من أباطرة الاستعمار والصهيونية المسيطرين الآن على مقدرات الشعوب.

إن كل الدلائل والعلامات تدل على أن حضارة المجتمعات الغربية سوف تنهار وتندك معاقلها وسوف ترد أصولها ومقوماتها العلمية إلى أيدي المسلمين- جزاء وفاقا - ليحملوا مرة أخرى أمانة الحضارة الحقة فهل سيكونون على طريق القرآن ونهج الإسلام.

ليست المسألة أكثر من مسألة وقت حتى يتملك المسلمون في أيديهم تلك الأسرار العلمية بقوة ويحولونها إلى أحضان لغتهم التي هي لغة القرآن وأن التحدي الصهيوني ما هو إلا مقدمة لهزيمة المكر والتآمر التلمودي مهما بدأ الآن أن الصهيونية قادرة على الحركة.

وسوف تعيش حضارة الاسلام الصاعدة حضارة التوحيد إلى جانب حضارة الغرب الغاربة حضارة الوثنية فلا عيب أن تتجاوز الحضارات ولكن البشرية سوف ترى نموذجا فريدا. فالحضارات الإسلامية ليست عدوانية ولا غازية ولا مستعمرة ولا متسلطة ولكنها سوف تجعل معطيات العلم والتمدن للبشرية كلها

وليس لجنس ولا لأمة ولا لطبقة.

ومهما حاول دهاقين السياسة الغربية من استعمار وماركسية وصهيونية في تأخير هذا الضوء عن ظهوره في موعده المقدر له فلن يستطيعوا.

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق).

صدق الله العظيم

الموضوع | الصفحة